





الآباء والبنون

891.73

T936dA

تأليف

اشهر كتاب الروس في القرن التاسع عشر

إيفان سي . نرمنيف

تعريب

أكرم فاضل

فرالدور أبوب

عن ترجمة فرنسية
بقلم : ر . رودوف

عن ترجمة انكليزية
بقلم : س . ج . هوكارث

78187

مطبعة الرابطة

شركة الرابطة للطبع والنشر المحذوفة - بغداد

١٩٥٠

Cat. 9 an. 52



1887

آثار ذو النور أبوب

الدكتور ابراهيم	..	..	..	..	قصة كبيرة
اليد والارض والماء	..	..	..	..	قصة كبيرة

مجاميع قصصية كل منها تحوى ست قصص :

رسل الثقافة	..	..	..	المجموعة الاولى
الضحايا	..	..	..	» الثانية
صديقى	..	..	..	» الثالثة
وحى الفن	..	..	..	» الرابعة
برج بابل	..	..	..	» الخامسة
الكادحون	..	..	..	» السادسة
العقل فى محنته	..	..	..	» السابعة
حيات	..	..	..	» الثامنة
الكارثة الشاملة	..	..	..	» التاسعة
عظمة فارغة	..	..	..	» العاشرة
قلوب ظمأى	..	..	..	» الحادية عشرة

المجموعة التالية :

صور شتى	..	..	..	المجموعة الثانية عشرة
---------	----	----	----	-----------------------

آثار أكرم فاضل

الكوميديا البشرية صدرت

في المقاهي والملاهي تحت الطبع

كلمة المترجمين

يعتبر إيفان ترجنيف في طبعة الطبقة الأولى من الكتاب العالميين ، وهو عند الروس من عظماء كتابهم الحالدين . ويذهب كثير من النقاد الى اعتبار هذه القصة (الآباء والبنون) الأثر الممتاز بين مؤلفاته ، حتى أن أحد الزعماء السياسيين في القرن التاسع عشر اعتبره « كتاب القرن » والجدير بالذكر أن هذا الأثر يحلو عقلية أبناء ذلك القرن في روسيا بصورة فنية رائعة ، بقسميها الشيوخ المتزمتين المحافظين (الآباء) ، والشبان الثائرين المتمردين (البنون) ، صورة لها ما يماثلها في كل قرن ، وفي هذا القرن بصورة خاصة ، بل وفي بلادنا على الأخص .

ولا يتوهم القارئ بأن بطل هذه القصة شيعوي ، اذ هو في الحقيقة نهليستي . والنهليستيون في نظر الشيوعيين أناس متطرفون ، الى حد تخريب الطريق أمام التطور الشيوعي الطبيعي .

ومهما كان الأمر فهذه الأثر الأدبي النفيس ، أسمى من أن يكون دعاية لمذهب سياسي ، فما كان ترجنيف داعية سياسياً ، ولا شيعياً .

وقد حاولنا أن تكون الترجمة مطابقة للأصل جهداً الامكان ، ونعتقد أن بينها وبين الأصل ، من الفرق ، أقل مما بين التراجم المختلفة

لغة واحدة ، أو بين الترجمة الانكليزية والفرنسية . فقد استعنا بأكثر
من ترجمة واحدة الى الانكليزية ، وبترجمة فرنسية واحدة ، على
ضبط الأصل .

ونترك بقية الايضاح في تقدير قيمة هذا الكتاب وأهميته ، الى
الكتاب الأمريكي العظيم سنكلير لويس ، الذي قدم لترجمة كونستانس
بارنت (طبعة هيريتاج الأمريكية) ، والى جون وينترتش ، الذي
شرح ظروف مولد الكتاب شرحاً وافياً .

هذا ونرجو أن يكون عملنا هذا خدمة لرواد الأدب من شبان
الجيل الطالع المثقفين ، وتكميلاً لما تخرجه مطابع البلاد العربية الراقية ،
من عيون الأدب الغربي وآثاره الخالدة .

ولا يسعنا قبل نقض يدنا من كلمتنا هذه ، إلا أن تقدم جزيل
شكرنا الى الأديب اللامع الأستاذ نعيم بدوي ، الذي أشرف على إخراج
هذه الترجمة ، وأعانتنا على إصدارها بهذا الكمال ، وكذلك مطبعة الرابطة التي
بذلت كل ما في وسعها لنشر الترجمة بهذه الحلة القشبية والاتقان المحمود .

بغداد ١٥ ايلول ١٩٥٠

المترجمان

مقدمة طبعة هيريتاج الامريكية

بقلم نيكولاي بوش

عند شيوع آثار المؤلفين الروس الكلاسيكيين في هذه الأيام ،
ذلك الشيوع الذي يرجع الفضل في قسم منه الى اعجابنا بما أنجزه اتحاد
الجمهوريات السوفياتية من أعمال حربية ، كما يرجع بعضه الى رأي
لا نرتاح اليه عن أدبنا القصصي ، ذلك هو أن أغلب هذا الأدب طلق
ضحل . ان أدب تولستوى ودستويفسكي التكفيري الجبار ، وتمثيلات
تشيكوف ، قد قدمت سيراً للعالم لا تقل عن سير ترجميف عظيمة ، وتمائلها
أهمية . لقد أنسي ترجميف بعض الشيء ، ولكنه سيعود كما عاد ترولوب .
ان رفته العظيمة أكبر من أن تستحق إهمالاً .

ان في أدب تولستوى ودستويفسكي رقة أيضاً ، ولكنها رقة أم
ريفة نحو ابنها المريض . فمن شعاراتهما ، التي كتبت بحروف تقاوي
الحياة : « انا غير مسرورين . » فهما يشعان معاً بأن البشرية يجب
أن تنقذ ، على الرغم من أنها لا تستحق الانقاذ ، وما اعتادا قط أن
يعرضا رقة كركة ترجميف التي تسود أدبه . ذلك لأن الاخلاق المدنية

الراقية ، التي يسبغها ترجميف على تراجمه ، عندما يصور الشخصيات الروسية البارزة في قصصه ، تمدّها بقبس من نور يخفف من ظلمة الانحطاط والتأخر ، أو سطوع ضوء اتكلف المربك ، الأمر الذي تجده عند بقية الأساتذة الروس . ففي مقدورنا نحن الأمريكان الغرباء عن الروس ، أن نفهم أبطال ترجميف ، ونحهم ، ونبتسم لهم . اني أتعشم أن تعطي هذه الطبعة الأنيقة للقراء الجدد ، لمحات عن روسيا ، أكثر رقة وأوثق علاقة بالريف ، مما تعطيه أقبية كوركي ، ولكنها لا تقل عنها واقعية وأهمية .

ان بطل القصة بزاروف ، تلميذ الطب ، الذي يؤمن بأناييب الاختبار أكثر مما يؤمن بالمبادئ والأعلام ، هو مثال حي لكل المتطرفين ، وأهل البدع من الشبان في كل زمان ، بأماته الفجة ، وباحتقاره لكل المؤسسات القائمة على الاستغلال ، والتقاليد ، احتقار شاب مندفع ، وبخشونته ، واخلاصه لأصدقائه ، وأخير أسقوطه فريسة لتلك العواطف الرقيقة ، التي كان يظن بأنه أرقى منها .

ان مستر وينترتش ، حين يروي كيفية ولادة هذا الكتاب ، يرى أنه مقيد بزمان ، ولكنه في نظري ، لا يرتبط بالزمان أكثر من كتاب لاونيل ، أو هنكوي . ففي سنة ١٩٤٣ لمعت قصة بزاروف كما تلاتات سنة ١٨٦٢ ، حين نشرت لأول مرة ، ان بطلها شخصية انسانية معقدة ساحرة على الدوام .

يسمي بزاروف نفسه نهيليستياً ، ولك أن تسميه شيوعياً ، أو واقعياً

متطرفاً ، او طبيباً يدين بالعلم . اعطه سيكارة بدل السيكار ، وأركبه
سيارة سريعة بدل عربة السفر ، التي ينطلق بها لرؤية أهله وحبية قلبه
أنا سبرجيفنا ، وسترى أن ليس ثمة شيء في غير زمنه ، وأنه ليس غراً
في عواطفه القلبية ولا ثورته العقلية . ان اسمه من الاسماء القليلة التي قدر
لها الخلود ، مثل كيشو ومكاوبر وشارلوك هولمز ، بل هو أبرز شخصية ،
عدا تلك التي عاشت حقيقة . اذن فيجب أن يقدم هذا الاسم لقراء جدد
من وقت لآخر .

وليس في حب أبويه العظيم له ، وتدايلهما اياه ، لما عاد من دراسته
الطويلة بعيداً عن أحضانهما ، ما يسمى في غير زمنه . ان ظلم الآباء
للأبناء يعتبر الآن شيئاً سديداً ، ولكن هنالك الكثير مما يحزن
ويستدر العطف ، في تلك الحالات النادرة ، حين يتوق الآباء الى الاحتفاظ
بصدقة أبنائهم ومحبتهم ، وما أشد ما يؤلم ويستدر العطف في الحالة التي
يعرضها ترجميف في هذا الكتاب !

ان بعض سكان أمريكا ، في أواسط الغرب ، ليجدون سحراً في
التعرف الى السهول التي يصفها ترجميف ، والى الحقول المترامية التي
تتخللها الغابات ، والجداول وأحراش البتولا ، والسماء المزدهجة
بالشحارير ، والى الحبوب من حنطة وشعير ، والى جموع العمال المتهادين ،
والى الاقنان ، وقد كان أشباههم عندنا عبيداً ، ثم تحولوا الى شركاء
في الغلة في الجنوب ، وكذلك الأحرار الشماليين الذين يتحدثون عن
تحرير العبيد ، كما يتحدث المستنيرون من ملاكي الأرض ، في قصة ترجميف .

ان قصة (الآباء والبنون) قصة عميقة رقيقة ، بطلاها شخصان طيبا القلب ، ولكنها أيضاً ، من قصص الحب الخيالية ، وفيها يتجلى ما يكتنف الروس من غموض ، بعرض الصداقة العميقة ، أكثر مما يتجلى بالعرض الهزلي التحليلي . ان هذا الكتاب ليس أكمل ولا أطول من فصل تام لتوماس وولف — روسي من شمالي كارولاينا ، أو لتولستوي — الكارولايني المزارع في روسيا — وسيكون عند القراء كافة شيئاً مقبولاً .

كيف ولد لهذا الكتاب

بقلم جون ت. وينتر بيش

قال صاموئيل جونسون مصرحاً ، في لحظة من لحظات حديثه :
« ليس هنالك من يكتب لغير الكسب ، سوى الأغبياء . »
وكل انسان يستطيع أن يتذكر استثناءات كثيرة ، بها يهدم هذا
التعميم الشامل ، الذي يبدو لأول وهلة ، في منطق هذا الرجل الأنيق ،
أمراً لا يقبل الخطأ . ان في الامكان ذكر مجموعات من الاستثناءات ،
لا أفراد ، فهنالك من يكتب لمجرد الزهو والخيلاء ، وهؤلاء يفوزون ،
عند الاختبار ، بأولية قائمة الأغبياء ، ولكنهم ليسوا أغبياء عموماً .
وهنالك الوعاظ المسيحيون ، وليس هؤلاء أغبياء مطلقاً . وهنالك من
الرجال والنساء من يكتب لأن قلبه يسوقه الى الكتابة ، ورأسه يعلمه
كيف يكتب .

إن ترجميف من هذا النوع الأخير ، وقد كان غنياً أيضاً . يقول
هنري جيمس : « ليس من غير اللائق أن يشير الانسان الى أن ترجميف
كان يملك ثروة طائلة ، وهذا أمر مهم في حياة رجل القلم . وأعتقد أن
أغلب صفاته الممتازة يرجع الى هذه الحقيقة . فهو يكتب حسبما يملسه

عليه ذوقه ومزاجه ، دون أن تردعه أو تضغط عليه اعتبارات خارجة عما يدور في رأسه (هذا بغض النظر عن الرقابة الروسية) وما كان يخاف بدأ من أن يتأخر أو ينزل به الزمن . فلو أخذنا بنظر الاعتبار عدم وجود الحافز المالي عنده ، وطبيعة الكسل والتراخي المعقدة ، التي لا يستثنى منها من هم في مثل حالته المالية ، لوجدنا انتاجه مدهشاً . »

إن كل هذه الحقائق تنطبق على جيمس نفسه ، وبنفس القوة (عدا الرقابة الروسية) وتلك حقيقة لم يكذب يشعر بها وهو يقول ما قال . فهل كان بالإمكان أن يغير الفقر أسلوب كل من جيمس وترجنيف ؟ هل كان بالإمكان أن يكتب أحدهما « صورة سيدة » والآخر « الآباء والبنون » تحت تأثير الرغبة في الربح ؟ أعتقد أنهما كانا يفعلان ، وأعتقد أنهما كانا يستعملان عين الكلمات في عين المواضيع ، وينتجان نفس الكتابين .

إن مهمما الحاجة قد خلق أغلب الفن في العالم ، على أنواعه ، وأناي أعرف صانعاً يدوياً ماهراً يعمل بالقلم والفرشاة ، كان بإمكانه أن يصبح مصوراً عظيماً ، لولا عمة قد أقنعتة بالموارد الذي يكفي لسد ضرورياته . وكان المعاش قليلاً ، ولكن حاجاته كانت قليلة أيضاً ، وقد تكون مطامعه تافهة أيضاً ، فحاجته إلى ذلك المعاش جعلته يرسم ويصور لقاء أقل ما يتطلبه العيش . وهذا تعريض كاف عن المطامع .

وربما كان الدكتور جونسون ، بعد كل هذا ، على شيء من الصواب . فمن المؤكد أن تعميمه قد قسا لأن أغلبنا يعتقد حتماً ، دون حاجة إلى

في لغة أمة أخرى ، لا تشبه روسيا من حيث التأخر ، وتبعد عنها ألوف
الأميال ، تلك هي قصة « مقارة العم توم »

لقد زرعت بذرة الآباء والبنون في صيف عام ١٨٦٠ حين التقى
ترجنيف صدفة في عربة قطار ، طبيباً ريفياً ، يتكلم بلهجة نارية حية .
فوجده رجلاً من الشعب ، قد جر نفسه بنفسه ، وارتفع عن وسطه
بمجهوده العنيف ، الى رتبة ذوي الاختصاص . وتلك ظاهرة عظيمة
في روسيا القيصرية . وما استطاع ترجنيف أن يجد شيئاً له في القصة
الروسية .

وبعد شهرين شرع بكتابة القصة ، ولم يكملها إلا في تموز سنة ١٨٦١
وقد اختلف أصدقاؤه ، الذين قدمت القصة لهم ، في آرائهم حولها ،
فيخائيل كتكوف ، صاحب البشير الروسية لم يعجبه ما سماه بالتضمين
المتطرف ، لكنه ، مع ذلك ، نشرها في مجلته خلال سنة ١٨٦٢ ،
وأعقبه نشرة الكتب على الفور . ويقول يارمولينسكي : « لقد قرأ القصة
كل الناس ، من الامبراطورة ، الى اولئك الذين لم يفتحوا كتاباً منذ
أيام الدراسة . »

لقد غضب الشبان الروس على ترجنيف غضباً شديداً ، فقد رأوا في
بزاروف صورة ساخرة لهم ، بدلاً من أن يجدوا فيه نموذجاً للجيل
الناهض ، كما يراه الكبار . فحملوا الى بابه اتهامهم اياه بالتقصير في تصوير
شخصيات قصصه . ولكنه كاد قد أجاد عمله ، وكتب يقول : « لقد
صفتني الايدي التي كنت أظنها ستصفق لي ، واحتضنتني الايدي التي

أهرب من لمسها الى آخر الأرض . »

تعتبر « الآباء والبنون » قصة قصيرة ، اذا ما قيسست بالقصص الروسية التي تطول وتطول ، والقارىء الذي عرف الأدب الروسي عن طريق تولستوى ودستوفسكي ، لا يعتبرها أكثر من ملخص . أما من يقرأها ، آخذاً بنظر الاعتبار هذه السنين الثمانين التي مضت ، فباستطاعته أن يدرك كيف استطاع ترجيف أن يقدر روسيا الشرقية المترامية الأطراف الموجودة اليوم مثل هذا التقدير .





الفصل الأول

« إيه يا بيتر ألم ترهم حتى الآن ؟ » وجه هذا السؤال سيد يناهر الأربعين ، عاري الرأس ، يرتدي سترة ترابية فوق سراويل من الصوف الانكليزي ، وهو يدخل شرفة محطة لعربات المسافرين في ٢٠ مايس سنة ١٨٥٩ . وكان المخاطب خادم السيد ، وهو شاب مستدير الحدين ، ذو عينين بليدين صغيرتين ، وذقن تزيناها خصلة من الزغب فاتح اللون . أجاب الخادم ، وكان كل شيء فيه يدل على انه من الجيل العصري الناهض ، قرطاه الفيروزيان ، وشعره المصبوغ الملمع بالدهان ، ومشيته الأنيقة ، أجاب بلهجة متشائخة ، وهو يتطلع الى الطريق العام :

« لا أيها السيد لا أستطيع أن أراهم . »

فتساءل السيد : « أهو كذلك ؟ »

فأجاب الخادم مؤكداً : « أجل . »

تهدد السيد واقعد مسطبة . فلنتركة في جلسته طاوياً ركبتيه تحته ، وعيناه تتطلعان بكآبة يئمة ويسرة ، فلعل القاري يهتم بأن يكون أكثر معرفة بشخصيته .

اسمه نيقولاي بتروفيتش كيرسانوف ، يملك أرضاً صغيرة تستحق الاعتبار ، يعمل فيها حوالي المائتين من الأبقان ، وتقع على بعد خمسة عشر فرسخاً من تلك المحطة . وكان قد قسمها على فلاحيه وحوّلها الى مزرعة من الطراز الحديث ، ومساحة الأرض - حسب قوله - تنوف على الخمسة آلاف مشارة . أما أبوه ، وهو من جنرالات سنة ١٨١٢ ، فقد قضى معظم حياته في الخدمة العسكرية ، قائد لواء أولاً ، ثم قائد فرقة . وكان مقر خدمته في الأقاليم ، حيث مكنته رتبته من أن يزهر بنفسه ويختال علناً . أما نيقولاي بتروفيتش نفسه فقد ولد في جنوبي روسيا ، وكذلك أخوه الأكبر بول ، وقد بقي حتى ناهز الرابعة عشرة من عمره يتلقى تعليمه على عدد من المربين القاسيات ، والخدم المطلقاء السهلي القياد ، وأنواع شتى من الضباط الملاحقين بالخدمة .

وتنحدر أمه من عائلة كولياجن ، وكانت تسمى ، وهي عذراء ، اكاثيا ، ومن ثم اكاثوكليا كوزمينشنا كيرسانوفا . وكانت من ذلك النوع من السيدات العسكريات ، وأعني بذلك انها كانت ترتدي القبعات الفخمة التي لا ذوق فيها ، وتلبس الثياب الحريرية ذات الحفيف ، وكانت أول من يقبل الصليب في الكنيسة ، واذا تكلمت أسرع ورفعت صوتها ، وكانت تدرب ولديها على تقبيل يدها صباحاً ، ولم تقصر قط قسوه أن تباركهم مساء قبل ذهابهم الى الفراش . وبكلمة مختصرة انها كانت تحيا حياة تناسبها . ولما كان نيقولاي بتروفيتش ابن ضابط ، فقد تحتم عليه أن يحذو حذو أخيه بول ، أي أن يدخل الكلية العسكرية ،

رغم انه لم يظهر شجاعة عمره ، بل وانه ليدو جباناً .

ويوم صدر الأمر بتعيينه في رتبة عسكرية ، كسرت ساقه ، وأدى ذلك الى أن لزم الفراش شهرين ، ثم نهض أعرج لسوء الحظ . وبعد أن ضرب أبوه يداً بأخرى أسفاً ، أرسله مضطراً لتلقي العلوم المدنية ، وكانت سن نيقولاي ثماني عشرة سنة حين وجد نفسه طالباً في كلية سانت بترسبورج . وفي نفس هذا الوقت تعين أخوه في رتبة ضابط في الحرس في نفس المدينة . وهكذا جمع الأب الشاين في مكان واحد ، ووضعها تحت هيمنة خالها ايليا كولياجن ، وكان هذا موظفاً خطيراً . ولما أتم الأب هذه المهمة ، رجع الى فرقته وزوجته ، وبقي بعيداً عنهما ، لا يرسلها إلا نادراً ، واذا ما فعل خط لها صفحات كبيرة من الورق الأشهب بخط زاه أنيق ، وأضاف اليها ، وسط أقواس من الزخرف المتكلف امضاءه الفخم « الجنرال بتروفيتش » . ونال نيقولاي بتروفيتش درجته الجامعية سنة ١٨٣٥ ، وفي تلك السنة أحيل الجنرال كيرسانوف على التقاعد لتقصيره في عرض عسكري ، ولذلك قرر الانتقال الى سانت بترسبورج ، بينما كان على وشك استئجار دار بالقرب من حدائق تافريفسكي ، والالتقاء الى النادي الانكليزي ، وأنهت صدمة مرضية حياته لسوء الحظ ، وتبعته اكانوكليا كوزمينيشنا على الفور ، إذ لم تتمكن من اعتياد حياة العاصمة الحامية ، بل ظلت تذوب شوقاً الى الحياة القديمة في الأقاليم .

ووقع نيقولاي بتروفيتش في حب ابنة موظف مغمسور اسمه

بريمولوفيتسكي هو صاحب الشقة التي كان يسكنها ، وكان ذلك في حياة والديه ، فاغاطهما ذلك غيظاً شديداً. ولما كانت الفتاة قد بادلت الحب ، بل وأكثر من ذلك كانت فتاة تقدمية ، أي انها تتابع وتطالع بامعان مواضيع علمية تنشر بين حين وآخر في الصحف ، فقد تزوجها بعد انتهاء العزاء على الفور وترك وزارة المالية حيث كان قد عين في وظيفة فيها تحت تأثير نفوذ أبيه ، وبدأ حياة زوجية سعيدة في معنى مجاور لمصلحة الغابات ، ثم انتقل الزوجان بعد حين الى شقة صغيرة ، غير انها نظيفة أنيقة جداً يستطيع المرء أن يتباهى بمراحضها اللامع وغرفة الاستقبال الباردة الى حد الانجماد. ومن ثم هاجرا الى الريف حيث استقرا نهائياً ، وهناك في موسم الندى ولدا ولدها اركادي . وكانت حياة الزوجين هادئة من ذلك النوع الذي يسمى ذا السعادة الكاملة . كان الزوجان لا يفرقان قط ، يقرآن معاً ، ويعزفان على البيان معاً ، وينشدان المقاطيع الشعرية الغنائية سوية . وكانت تعني بالحديقة وترية الدجاج . وكان هو يذهب الى الصيد ، او يراقب ادارة المقاطعة . وكان اركادي ينمو في وسط هادي مريح فيزداد صحة وسمنة . وعند بداية سنة ١٨٤٧ ، أي بعد مرور عشر سنين على هذه الحياة الرتيبة الثابتة لفظت الزوجة أنفاسها . وكانت الضربة أقوى من أن يحتملها الزوج ، حتى إن شعره شاب خلال أسابيع قليلة ، ورغم انه سافر باحثاً عن السلوى والعزاء ، إلا أنه وجد نفسه مجبراً على العودة بعد سنة ، وبعد عدة سنين قضاها في خمول ، حظى باهتمامه موضوع التطور الاقتصادي . وفي سنة ١٨٥٥ أرسل ابنه الى

كلية سنت بترسبرج وبسبب ذلك قضى ثلاثة أشتية في العاصمة ، حيث بقي
حبس المنزل تقريباً ، يقضي أغلب وقته في محاولة التقرب من الشبان
أصدقاء ابنه . وقد منعه ظروف عدة من قضاء الشتاء الرابع في سنت
بترسبورج ، وهكذا نجده في مايس سنة ١٨٥٩ بشعره الأشهب وسترته
التربة ، منحني الظهر قليلاً ، مع انه في منتصف عمره ، ينتظر عودة
ابنه بعد أن ارتفع هذا الابن الى مرتبة حملة الشهادات الجامعية كأبيه
نيقولاي .

تسلل الخادم من البوابة بدافع الشعور بالضعة ، او ربما هرباً من
حضرة سيده ، فأشعل غليوناً ومضى يدخن . أما نيقولاي بيتروفيتش
فقد ظل جالساً خافض الرأس ينظر الى درجات الشرفة القديمة حيث
كانت دجاجة مميّنة مرقطة تصعد مختالة تحملها ساقان صفراوان مقوسان .
وأثار اختيالها قذرة شرسة فأخذت تنظر اليها من أعلى الدرابزين
نظرة استهجان صريحة .

كانت الشمس تسكب اشعة حارة ، وانبعثت من هري قريب رابحة تبين
شوفان حار ، وغاص نيقولاي في شرود ذهني ، وظلت هذه العبارة
تروح وتغدو في ذهنه : « ابني اركادي قد اجيز » وقد حاول مراراً
ان يفكر بشيء آخر ولكن عبثاً كان يحاول ، حتى انتقل فجأة الى
ذكرى زوجته المتوفاة فحدث نفسه متألماً : « آه لو كانت على قيد
الحياة » وعندها تهاوت حمامة سميّنة زرقاء ، وحطت في عرض الطريق
لتختطف جرعة ماء من بركة صغيرة قرب البئر . وفي تلك اللحظة

التقطت اذناه صوت عجلات عربية تقترب :

« انهم قادمون كما أظن » ، قال الخادم ذلك وهو يتقدم
مجتازاً البوابة .

ووثب نيقولاى بتروفيتش على قدميه وحقق في الطريق : أجل لقد
لاحظت للناظر عربية تجرها ثلاثة جياد ، وظهر منها قبعات مما يلبسه
الطلاب ، وتحت احداها ملاح وجه حبيب .

وصاح كيرسانوف وهو يركض ويحرك ذراعيه : « اركاشا
اركاشا » . وبعد بضعة دقائق كان يضغط بشفتيه على خد طالب قد تخرج
حديثاً ، مترب مشمس حليق .

الفصل الثاني

قال اركادي بصوت صاف فيه عنفوان الشباب ، رغم ان السفر قد اخشنه قليلا : « إيه يا أعز والد فلنتعاق أولا » ثم أضاف بسرور ، وهو يبادل أباه الضم والعناق : « أنظر كيف عفرتك بالتراب » .

فقال نيكولاى ييتروفيتش بابتسامة ودية صميمة وهو ينفض ياقة معطف ابنه الزرقاء وسترته أيضاً : « آه ليس في ذلك ضرر قط » وتخلص بعد ذلك من عنساق ولده برفق ، وأخذ يتقدم القادمين الى صحن الحان وهو يقول : « من هنا من هنا ، وستعد الحيل حالاً » . ويظهر ان انفعاله كان قد سرى الى ابنه أيضاً فصار يتمتم ويهمهم مثله ، ويمجد نفسه أحياناً في حاجة الى كلمة تسعفه . وأوقف اركادي أباه وقال : « دعني أقدم لك يا بابا صديق الطيب بزاروف ، وهو الصديق الذي كنت أكثر من ذكره في رسائلي ، والذي تكرم بأن قدم معي زائراً » .

فاستدار نيقولاى بتروفيتش حالاً ، وتقدم من رجل طويل القامة ، يرتدي معطفاً طويلاً ، بمنطقة ذات ذوائب ، وكان قد نزل من العربة

توا ، فد له يده وضغط على اليد العارية الحمراء الممدودة إليه بشيء
من التردد .

ورحب نيقولاى بتروفيتش بالزائر بقوله : « حقاً انى سرور
برؤيتك ، واني ممتن لتكرمك بزيارتنا ... ومع الأسف ... أو مل
أن ... ولكن هل لي أن أسألك عن اسمك ؟ »

فأجاب المحاطب بلهجة فيها رجولة وهدوء ، وهو يقلب ياقة معطفه ،
ويظهر ما تبقى من وجهه : « ايفاجني فاسليف . »

كان الزائر طويلاً نحيفاً ذا جبين عال يلوح كأنه قد انبسط من أعلى
وضاق من جهة الانف ، له عينان خضراوان ، وشاربان طويلان
تربان ، وسرعان ما تألق ذلك الوجه بابتسامة فتجلت فيه امارات الذكاء
والثقة بالنفس .

وعاد نيقولاى بتروفيتش يقول : « يا حبيبي ايفاجني فاسليف انني
على ثقة بأنك ، وأنت معنا ، سوف لا تشعر بثقل وطأة الزمن . »
فلوى بزاروف شفتيه قليلا ولم ينعم عليه بجواب ، غير أنه رفع
قبعته ، وبذلك أبان الجزء الأعلى من حجمته مغطاة تماماً بشعر كثيف
يصعب تعيين لونه .

وأضاف نيقولاى قائلاً لابنه وهو مقبل عليه : « والآن يا اركادي
هل نسرج الخيول حالا ؟ أو نفضل ان تستريح قليلا . »

« فلمنستريح في الدار يا أبي . لذا أرجو أن تأمر باعداد الخيل . »
فوافق ابوه بقوله : « سأفعل . يايتر . تمحرك أيها الرفيق الطيب . »

ولما كان يتر من الخدم المهذبين تهذيباً تاماً ، فانه لم يقترب من سيده الصغير ، ولا هز يده مصافحاً ، بل اكتفى باخفاء رأسه عن بعد ثم اختفى وراء البوابة .

وقال نيقولاى بتروفيتش : « ورغم أني قد أتيت في الفيتون فقد أحضرت معي ثلاثة من الجياد لعربة السفر . »
وشرب أركادي جرعة ماء من قدح أصفر قدمه له صاحب المحل ، بينما كان بزاروف يولع غليونيه ويتقدم من السائس الذي كان مشغولاً بأسراج خيول العربة .

ومضى نيقولاى بتروفيتش يقول : « يسع الفيتون راكبين فقط ، لذلك أجد صعباً عليّ أن أعلم رغبة رفيقك . »
فقاطعه أركادي بقوله : « هو . يسره أن يركب عربة السفر ، وهذه المناسبة أرجو أن تهمل الرسميات معه ، فعلاوة على أنه شخص بديع ، فهو بسيط ايضاً ، وسترى ذلك بنفسك . »

وخرج سائق العربة يجري الخيول وراءه ، وقال بزاروف للسائس : « هيا تحرك يا ذا اللحية الكثة » وأضاف سائس آخر وهو يضع يديه في شقين أسودين في صدره : « لقد سماك السيد ذا اللحية الكثة . »
أسمعت ذلك يامتيوشا ؟ انك حقاً ذو لحية كثة .

ولم يجب متيوشا بل آمال قبعته جانباً وسحب الأعنة عن ظهر الحصان المبلل بالعرق .

وصاح نيقولاى بتروفيتش بالخدم : « اسرعوا يا رفاق ، مدوا

أيديكم جميعاً ولكل منكم كأس من الفودكا . »

ولم يمض وقت طويل بالطبع حتى أسرجت الخيول ، وجلس الأب
وابنه في الفيتون واعتلى ييتر صندوق القيادة ، ودخل بزاروف عربية
السفر ، وأراح رأسه فوق حشيتها الخلفية .
وأخيراً تحرك الموكب .

الفصل الثالث

قال نيقولاى بترفيتش وهو يربت على ركبة أركادي تارة وعلى كتفه أخرى : « إني لأسر كلما تذكرت بأنك قد أنهيت دراستك وعدت الى الدار . وها هو ذا أنت . »

فسأله أركادي : « وكيف عمي ؟ أهو بصحة جيدة ؟ » وكان مبعث السؤال أنه شعر بسرور صياني ، وبسعادة مفرطة لأوبته ، وشعر أيضاً بدافع يدفعه الى أن يحول الحديث من الأمور العاطفية الى الأشياء الاعتيادية المألوفة .

« أجل ان عمك بصحة جيدة ، وقد أراد في الحقيقة أن يأتي لاستقبالك ، ولكنه غير عزمه في آخر لحظة . »
ومضى اركادي يسأل : « هل انتظرتنا طويلاً ؟ »
« مدة خمس ساعات تقريباً »

فهتف اركادي : « يالك من أب عزيز » ثم مال على أبيه وطبع قبلة صميمة فوق خده ، فابتسم نيقولاى بترفيتش بهدوء . وأعقب الأب بقوله : « لقد أعددت لك حصاناً أبديعاً وستراه قريباً ، وقد أبدلنا

ورق غرفتك بأجمعه . »

« وهل لديكم غرفة لـبزاروف أيضاً ؟ »

« سنهيء له واحدة . »

« أجل . أرجو أن تكرمه بكل ما تستطيع ، إذ لا أقدر أن أعبر

لك عن مقدار تقديري لصداقته . »

« ولكنك لم تعرفه منذ أمد طويل أليس كذلك ؟ »

« لا ليس من مدة طويلة . »

« هكذا ظننت لأنني لم أراه في سائت بترسبرج في الشتاء الماضي .

وما هي هوايته ؟ »

« العلوم الطبيعية في الدرجة الأولى ، ولكن لو توخينا الحقيقة

لوجدناه يعرف كل شيء ، وسيكون دكتوراً في السنة التالية . »

« آه فهو إذن في كلية الطب ؟ » أبدى نيقولاى بتروفيتش هذه

الملاحظة ثم ساد السكون فترة من الزمن ، ومضى نيقولاى يقول وهو

يشير بيده : « يا بيدر هل أولئك الفلاحون من فلاحينا ؟ »

فنظر بيدر الى الجهة المشار اليها ، ورأى بضع عربات تسير في طريق

ضيقة ، وكانت خيولها دون أعنة ، وفي كل عربة إثنان أو ثلاثة من

الموجيك يرتدون أقمصه غير مزرزة ، فأجاب بيدر : « أجل إنهم من

فلاحينا . أين تراهم يقصدون ؟ المدينة ؟ » ثم أضاف باحتقار « أجل

وربما الى الحانة . » ثم غمز السائق بعينه لينال تأييده وتحبيذه ، ولما

كان الأخير من اتساع المدرسة القديمة ، وممن لم يشتركوا في الحركات

الحديث ، فانه لم يحرك عضلة واحدة في وجهه .

ومضى نيقولاى بتروفيتش يقول لابنه : « لقد حشد الفلاحون لي هذه السنة عدداً كبيراً من المتعبات ، فهم يصرون على عدم دفع أعشارهم . وماذا يمكن أن يصنع الانسان معهم ؟ »
« وهل أنت راضٍ عن عمالك المأجورين ؟ »

فتمتم نيقولاى بتروفيتش : « لست راضياً عنهم جميعاً . لقد فسدوا وهذا ما يؤسف له كثيراً ، ويظهر أن نشاطهم قد فارقهم كلية ، فلم يكتفوا بتخريب آلاتي ، بل تركوا الأرض غير محروثة أيضاً . أيعجبك هذا الحديث عن شؤون إدارة المزرعة ؟ »

فلاحظ أركادى بلهجة المتسائل : « إن ما نحتاج اليه هنا الآن هو الظل . »

« آه ولكننا قد أضفنا مظلة الى الشرفة الجنوبية بحيث تستطيع تناول الغداء في الهواء الطلق . »

« إن ذلك سيعطي المسكان هيئة مغنى أليس كذلك ؟ .. ان ما اتبعته من اصلاحات في المزرعة أمر غير مجد مطلقاً . ولكن الهواء هنا ، آه ما أجمل رائحته . أجل ففي رأيي ليس ثمة رائحة تشبه هذه في مكان آخر . آه يا للسماء . »

وتوقف اركادى فجأة ملقياً نظره ناحية عربة السفر ، وعاد الى الصمت .

وقال نيقولاى بتروفيتش : « اوافقك انك ترى ان السبب في

حبك للمكان هو أنك ولدت فيه . فالمسكان قين بأن يكون له عندك
معنى خاص . »

« آه ليس ثمة معنى من هذا النوع مهما كان : »

فتطلع اليه نيقولاى بتروفيتش ، وظلت العربى تسير نصف فرسخ
دون أن يعودا الى الحديث ، وأخيراً أبدى نيقولاى بتروفيتش
ملاحظة بقوله :

« لا أتذكر فيما اذا كنت قد كتبت لك بأن مريبتك العجوز
ابكوروفنا قد ماتت ؟ »

« ماتت ؟ يا للمرأة المسكينة العجوز . وبروكوفيتش هل هو حي ؟ »
« أجل ولم يطرأ عليه تغيير ما . أعني أنه لا زال كثير التذمر كعادته
والحقيقة أنك سوف لا تجد أي تغيير مهم قد حل في مارينو . »

« وهل احتفظت بنفس الوكيل السابق ؟ »

« لا . لقد عينت آخر جديداً . لأنني قد توصلت أخيراً الى أنه
لا يمكن ابقاء رجل متحرر في هذا المركز . أعني أنني لا أستطيع أن
أثق بأمثال هؤلاء وهم في مركز ذي مسؤولية . »

فغمز اركادى ناحية بيتربينه ، فخفض نيقولاى صوته قليلاً وقال
بالفرنسية : « انه خادمى الخاص . كما ترى وهو منهم ! » ثم عاد الى
الروسية فقال : « أما بخصوص الوكيل فقد عينت أحد الباعة المحليين
براتب ٢٥٠ روبلاً سنوياً وهو يسدو قديراً نوعاً ما ولكن . »
وعندها حك جيبينه ، وهذا ما يفعله كلما اتتبه انفعال داخلي ، وعاد

يقول : « أريد بأني أخبرتك بعدم وجود تغيير في مارينو ، والامر ليس كذلك تماماً ، وأرى من واجبي أن أحيطك علماً بأن .. بأن . »
وتردد قليلاً ثم أضاف بالفرنسية : « ربما عدت صراحتي عند المزمعين شيئاً سجعاً . ومع ذلك فسوف لا أخفي عنك أمراً . وسوف تتأكد مما أقول . أن لدي آراء خاصة حول العلاقات التي يجب أن تبقى مصونة بين الأب والابن . ولا أعني بهذا إنه لا حق لك في الحكم على سلوكي . فالأحرى بمن كان في مثل سني .. حسناً لأجل أن نكون صرحاء تماماً فإن الفتاة التي ستجدني أتحدث عنها .. »

فقال أركادي « أعني مينجكا ! »

فاحمر وجهه ويقولاي بتروفيتش وقال ناصحاً : « لا تتكلم عنها بصوت مرتفع . أجل أنها تعيش معنا . لقد قبلتها لوجود غرفتین زائدتين عندنا ، ولكن الامر يجب أن يتغير الآن طبعاً . »

« ولماذا يا بابا ؟ »

« لأن صديقك هذا قد أتى معك ، وأيضاً لأن الوضع قد يبدو

سجعاً غير مستحب . »

« لا تتعب نفسك بسبب بزاروف فهو فوق هذه التوافه . »

« أجل كما تريد ، ولكن المحذور مسبب عن صغر جناح السكفي . »

فاعترض اركادي بقوله : « بابا . بابا . يكاد الانسان يظن بأنك تعتبر

نفسك ملوماً على شيء . وليس لديك في الحقيقة ما تلوم نفسك عليه . »

فأجاب يقولاي بتروفيتش وقد ازداد وجهه احمراراً : « ولكن

لديّ ما ألام عليه . »

فكرر اركادي قوله بابتسامة ودية : « لا ليس لديك شيء من ذلك مطلقاً » . وأضاف لنفسه وهو يشعر شعوراً رقيقاً نحو والده الطيب الشفوق : « ترى لماذا يقدم هذه الاعتذارات » وشعر أيضاً بشيء من التعالي ، ثم أضاف بلهجة يمازجها ابتهاج غير اختياري في كونه قد بلغ السن التي يحسب له فيها حساب : « أرجوك ألا تزيد شيئاً آخر . » وعندئذ نظر اليه نيقولاى بتروفيتش من تحت اصبعه التي كانت لا تزال تمسح جبينه ، وشعر في تلك اللحظة بطعنة في فؤاده ووبخه عقله على ما بدر منه .

وقال بعد وجوم : « من هنا تبدأ حقولنا . »

فوافقه اركادي : « أجل وتلك غابتنا على ما أظن . »

« أجل . ولكنني بعثتها وستقطع هذه السنة . »

« ولماذا بعثتها ؟ »

« لأنني بحاجة الى ثمنها ، ولأن أرضها يجب أن توزع على الفلاحين . »

« ماذا ؟ على الفلاحين الذين لا يدفعون الأعشار ؟ »

« ربما . ولكنهم سيدفعون يوماً . »

فقال اركادي : « إني لآسف لفقد الغاية » ثم عاد يسرح نظره في

الأرض المنبسطة .

وكان منظر الأرض التي يقطعونها نما لا يصح أن يسمى جيلاً ، فلم

تكن تلك الأرض سوى حقول بعد حقول يعتورها قليل من التموج ،

تمتد حتى الأفق . حقاً لقد كان ثمة بقع من الادغال ، ولكن الخنادق
وما يحدها من نجوم متفرقة ، تذكر الانسان بمنظر الأراضي المنقرضة
من زمن الملوك كاترين ، وكذلك الجداول المحصورة بين شطوط ضيقة
وعرة ، وقرى أكواخها قيئة قد تشققت سقوفها السوداء ، وهي
متلاصقة يعلو بعضها بعضاً ، تتخللها عرائش للطحن ، مضحكة ، من
الصفصاف الجدول ، وفسح للدرس مسطحة خالية ، ذات بوابات مائلة
متداعية ، ووسط المدافن الخربة كنائس مشادة من الحشب أو الطابوق
قد كشط ملاط جدرانها وهددت صلبانها بالانهيار . وانقبض فؤاد
أركادي وهو يستعرض هذا المنظر . وعلاوة على ذلك فقد كان
الفلاحون ، الذين يصادفونهم في الطريق ، صعاليك يمتطون جياداً صغيرة
هزيلة . أما أشجار الزينة المغروسة على جانبي الطريق ، كصفوف من
الشيخاذين ، فقد تهطل لحاؤها وتشققت جذوعها . وأخيراً بدت الأبقار
القدرية وهي ترعى العشب في الخنادق ، تبدو عظامها من تحت جلودها ،
وكأنها قد انقذت تواء من وحش ضار . وإذا ما تملأ المرء بمنظر هذه
الحيوانات الضعيفة المسكينة ، تصور شبح الشتاء الشاحب ينبعث وسط
الربيع الجميل ، بزوابعه وجليده وجمده .

وقال أركادي لنفسه : « ليست هذه مقاطعة غنية ، وهي لا تعطي
المرء صورة عن الرفاه والعمل الجدي . وعلى كل فهل يستساغ أن
ترك على حالها ؟ لا . إن ما تحتاجه هو التعليم . ولكن كيف يوفر
هذا التعليم ؟ وكيف يبدأ به ؟ »

ورغم حالة أركادي هذه ، وما دار في رأسه من أفكار سوداء ،
فقد بدا الربيع متبوءاً عرش مملكته ، فبدأ كل شيء حوله اخضر
زاهياً ذهبياً ، وأخذت الأشجار والنجوم والأعشاب تنموج وتتألق
بفعل أنفاس الربيع ، ذلك النسيم الدافئ . وشرعت القنابر تسكب
أرواحها الحاناً رنانة متصلة لانهاية لطولها ، وكانت السنونو تدور
عالياً ، ثم تطلق صرخاتها وتنقض على برك الماء ، ثم تطير قريبة من
أوجه التلال وهي صامتة . وكانت الغربان السوداء الجميلة منتصبه بين
الزروع .

ومضى أركادي يحدق ويحدق ، وبهذا صارت أفكاره السابقة
تزداد انطماًساً حتى اختفت . فرمى معطف السفر عن كتفه ونظر الى
وجه أبيه طرباً وقد تملكه فرح صبياني ، مما جعل أباه يضمه ضمة
أخرى .

وقال نيقولاى بتروفيتش ملاحظاً : « لم يبق إلا القليل من
الطريق ، وعندما نصعد ذلك المرتفع ستبدو المنازل للعيان ، ويا له من
وقت سنقضيه معاً يا اركاشا ! ستساعدني على إدارة المزرعة اذا راقك
ذلك . وسيزداد كل منا قرباً من الآخر ، وسنعرف بعضنا أكثر فأكثر . »
فهتف اركادي : « أجل سنفعل . ويا له من ظرف طيب لكلينا ! »
« أجل . خصوصاً وان قدومك صادف الربيع بجماله وروعته .
ومع ذلك فلست على يقين بأنني لا أتفق مع بشكن حيث يقول في
(يوجين اونيجين) :

ياربيع الحب يافصل النماء أي حزن هاجني لما أتيت !

وصاح بزاروف من عربته : « أركادي . إرسل لي من فضلك عوداً او عودين من الثقاب ، إذ ليس لدي ما أولع به غليونني » . فسكت نيقولاى بتروفيتش عن إلقاء الشعر على الفور . أما أركادي الذي كان يصغي الى أبيه بتعجب شديد ، وبجماس غير قليل ، فقد أسرع وأخرج من جيبه علبة ثقاب فضية أعطاها الى بيتر الذي قام بمهمة نقلها .

وصاح بزاروف : « هل لك بسيكار عوض ثقابك ؟ »

فأجاب أركادي : « أجل . »

وهكذا عاد بيتر الى العربية لا بالعلبة وحدها ، بل ومعها سيكار أسود غليظ أولعه أركادي بسرور ، وأخذ ينشر حوله دخاناً ذا رائحة نفاذة كريهة حتى ان نيقولاى ، وهو من كارهي التدخين منذ الولادة ، وجد أن لا مناص له من تحويل أنفه ، ولكنه فعل ذلك سرّاً لكيلا يكدر ابنه .

وبعد ربع ساعة وقفت العربية بجانب سلم صغير جديد من الخشب يؤدي الى منزل مصبوغ باللون الرمادي ، مسقف بصفائح حمراء من الحديد . وكان هذا القصر هو مارينو أو نوفايا سلوبودا^(١) أو بوييلي جوتور^(٢) ، كما يسميه الفلاحون .

(١) الفتيلة الجديدة باللغة الروسية .

(٢) مزرعة الفقير باللغة الروسية .

الفصل الرابع

لم تظهر لاستقبال القادمين ثلة من الخدم ، بل فتاة ذات اثني عشر ربيعاً ، يرافقها شاب يشبه بيتر ، ولكنه يرتدي بزة خادم رمادية اللون ، ذات منطقة فضية كثيرة الوشي بارزته . وكان هذا خادم بول كيرسانوف الخاص ، فتقدم وفتح باب العربة صامتاً ، ثم حل أبازيم عربة المسافرين ، فترجل السادة الثلاثة ودخلوا الدار عبر قاعة مظلمة عارية ، وطالعهم لحظة من الزمن ، وجه شابة من وراء باب ، ثم دخلوا غرفة استقبال مؤثثة على آخر طراز .

وقال نيقولاي بتروفيتش وهو ينزع قبعته ويدفع شعره الى الوراء : « وهكذا عدنا الى البيت . إذن فلنتعش أولاً ثم نذهب الى الرقاد . » فقال بزاروف ملاحظاً وهو يقتعد أريكة : « لاشك أن شيئاً يؤكل أمر يرحب به . »

« هكذا تماماً . سأوصي باعداد العشاء على الفور . » قال ذلك نيقولاي بتروفيتش وهو يرقص على قدميه لسبب خفي . وأضاف : « ها قد أتى بروكوفيتش » ودخل أثناء ذلك رجل يناهز الستين ،

أبيض اللثة ، خشن الملامح ، يرتدي سترة فراك بنية اللون ذات أزرار نحاسية وياقة حمراء ، وابتسم مسروراً وهو يقترب من أركادي ليصافحه ، ثم تقهقر ناحية الباب بعد أن انحنى للزائر ، وعقد يديه وراء ظهره .

فقال نيقولاي بتروفيتش : « وهكذا ترى السيد الصغير عندنا يا بروكوفيتش . لقد عاد الى الدار أخيراً . كيف تراه يبدو ؟ »

فقال العجوز مبتسماً ايضاً : « إنه في صحة جيدة جداً . جيدة جداً . » وبعد لحظة عقد حاجبيه وقال مقترحاً : « هل أعد المائدة ؟ »

« أجل من فضلك » ثم التفت نيقولاي الى بزاروف وقال : « هل تحب الذهاب الى غرفتك قبل تناول العشاء ؟ »

« شكراً ، لا أحب ذلك ، ولكن هل لكم في حمل حقبي الى هناك ، ومعها هذا الوشاح ؟ » قال ذلك وهو ينزع معطفه .

« بكل تأكيد . يا بروكوفيتش خذ معطف السيد . »

فتناول الخادم المعطف برفق وبكلتا يديه وغادر الغرفة على رؤوس أصابعه .

وعاد نيقولاي بتروفيتش يقول : « وأنت يا أركادي هل تريد الذهاب الى غرفتك ؟ »

وكان جواب أركادي وهو يتجه نحو الباب : « أجل . وإني لاكون شاكرآ لو اغتسلت . » وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل منه رجل متوسط القامة يرتدي بذلة انكليزية غامقة اللون ، وياقة بيضاء منشأة من آخر طراز ، وزوجاً من الأحذية الجلدية الممتازة . كان هذا

هو بول يتروفيتش كيرسانوف ، ومع انه في سن الخامسة والحسين ، فقد كان شعره مقصوفاً بعناية فائقة ، فكأنه فضة لامعة . وكان وجهه المصفر الحالي من الغضون ، المنتظم التقاطيع ، الواضح الملامح ، قد نحت بأزمل دقيق . كان الوجه لا يزال محتفظاً بآثار جمال فائق ، وأما عيناه اللوزيتان السوداوان فتحويان جاذبية خاصة . وكل ما يتعلق به من شكل او سلوك ، يعطي صورة للشباب في عنفوانه ، أي مظهر الشعور بالتفوق على بقية المخلوقات ، وذلك ما يختفي من أخلاق المرء عادة اذا ما تجاوز العشرين .

وأخرج من جيبه يداً نحيلة طويلة ذات أطراف وردية ، وبانت مع تلك اليد رشاقة كم القميص المكوي وبياضه الناصع وأزراره البيضوية الكبيرة . مد كل ذلك الى ابن أخيه ، وبعد أن صاحفه مرحباً على الطريقة الأوربية ، قبله ثلاثاً على الطريقة الروسية ، أي أنه مسح خده بشاربه المعطر ، وهو يقول : « إني لأهنتك . »

وقدم نيقولايتروفيتش اليه بزاروف ، فاحنى بول يتروفيتش قامته المرنة مع ابتسامة خفيفة ، ولم يقدم يده هذه المرة ، بل على العكس أعادها الى جيبه .

وقال وهو يرفع كتفيه برشاقة ، ويظهر أنياباً بيضاء جميلة : « لقد كدت أظن أنك سوف لا تصل . ما الذي حدث لك ؟ »
فأجاب أركادي : « لا شيء . عدا أننا ابطأنا قليلاً ، ولهذا السبب فنحن جياع كالذئاب . لذا أرجوك يا بابا أن تستحث بروكوفيتش ،

وسأعود بعد لحظة . »

فأضاف بزاروف وهو ينهض عن الأريكة : « انتظر فسأصحبك . »
وترك الشابان الغرفة معاً .

وتساءل بول بتروفيتش : « من ضيفك هذا ؟ »

« إنه صديق لأركادي . وبناءً على تعريف أركادي ، فهو رجل
ذو ذكاء . »

« وهل سيبقى هنا ؟ »

« أجل . »

« شخص مهمل الشعر كهذا ؟ »

« بالتأكيد . »

ولم يقل بول بتروفيتش ذلك ، غير أنه أضاف أخيراً بالفرنسية وهو
ينقر المائدة بأصابعه : « أرى أن صاحبنا أركادي يحتاج الى صقل (ثم
بالروسية) وعلى كل فاني مسرور بعودته . »

وقليل ما قيل أثناء العشاء ، وخصوصاً بزاروف ، إذ ندر أن تكلم
رغم أنه أكل بشهية تامة ، وبرهن نيقولا بتروفيتش على أنه المهذار
الوحيد ، فكان يروي حوادث كثيرة عما أسماه حياته الزراعية ، وأخباراً
عن المشاريع المقبلة ، وعن الجمعيات وقضية التوكل ، وعن الحاجة الى
استخدام الآلات وغير ذلك من المواضيع ، وأما بول بتروفيتش فلم
يتناول طعاماً قط ، بل احتسى كأساً من الحمر الأحمر ، وبقي يندرع
الغرفة جيئةً وذهاباً ، وكان يخرج بعض الأصوات بين الفينة والفينة مثل

« آه » أو « أوه » أو « همم » .

وانحصر حديث أركادي بحوادث سنت بترسبورج القليلة التافهة ، رغم ان المتكلم كان يشعر شعوراً مبهماً بذلك النوع من التكلف الذي يشعر به الشاب ، وهو يروي حوادث صباه ، بعد أن يكون قد شب عن الطوق ، فكان يلوك العبارات ويلقيها دون ضرورة ، متجنباً برشاقة لفظية (باباشا) الصبانية ، وقد وصلت به الحال الى استعمال كلمة (اوتيقي)^(١) رغم انه لفظها بصعوبة . وأخيراً ، وتحت تأثير رغبته المفرطة في أن يزيل اضطرابه ، شرب من الخمرة اكثر مما يطيق ، فذاق كل انواعها ، بينما كان بروكوفيتش يعض شفته دون أن يرفع عينيه عن سيده الصغير . وانهى العشاء وتفرق الجمع .

وقال بزاروف لأركادي ، بعد أن ارتدى معطف النوم وجلس على حافة فراش صديقه : « إن عمك هذا رجل غريب ، ما أبعد أن يتصور الانسان امكان وجود مثل هذه الاناقة في الريف . إنه ليستحق جائزة على عنايته بأظافر يديه . »

فقال أركادي : « إنك لما تتعرف به . لقد كان في شبابه أسداً مغواراً ، وساقص عليك تاريخ حياته يوماً . أجل ، فكم امرأة قد أضاعت صوابها في سبيل الحظوة بحسن روائه ؟ »

فقال بزاروف ملاحظاً : « إذن فهو يعيش الآن على الذكريات كما أظن . وعلى كل حال فليس هنا من يستطيع أن يستأسره . لقد أمعنت

(١) أبي بلغة السكبار البالغين عند الروس .

النظر فيه هذه الليلة ، ولم أشاهد كل حياتي ياقة ثوب بمثل ذلك
النصوع ، وذقناً كاملة الحلاقة كذقنه ، ومع ذلك فإن أموراً كهذه
جديرة بأن تبدو مضحكة الآن . أليس كذلك ؟ »

« أجل ، قد تبدو كما تقول ، ولكنه شخص ممتاز بذاته . »
« آه بكل تأكيد . إنه شخص ملائكي ، وأبوك رجل بديع ايضاً .
فرغم كونه يروي شعراً سخيفاً ، ورغم آرائه المضحكة عن الاقتصاد
فإن قلبه طيب جداً . »

« إن له قلباً من ذهب . »

« ومع ذلك ألم تر أنه كان في حالة عصبية هذه الليلة ؟ »
فهز أركادي رأسه موافقاً ، وكأن هذا الضعف الذي أظهره أبوه
بدا غريباً حتى له .

وقال بزاروف شارحاً : « هذا غريب حقاً . آه منكم أيها الخيالون .
إنكم تجهدون أعصابكم حتى يختل جهازكم العصبي . والآن أسعدت
مساء . إن في غرفتي مغسلة انكليزية ، والباب مفتوح . إن أشياء كهذه
يجب أن تشجع ، فهي بشير التقدم . »

وخرج بزاروف ، واستسلم أركادي الى الشعور بالراحة . كم هو
لذيذ أن يغرق الانسان في النوم في داره المريحة ، وفي فراشه المألوف ،
وتحت أغطية معروفة حاكها أيدٍ حبيبة ، ربما كانت يدي مربيته
العجوز الرحيمة الطيبة التي لا تسكل ولا تمل . وعندما تذكر ايكوروفنا
تتهد ، وصلى على روحها لترضى عنها قوى السماء ، ولكنه لم يصل لنفسه .

وسرعان ما استسلما هو و بزاروف للرقاد . ولكن آخرين من أعضاء ذلك المنزل ظلوا ساهرين ، وخصوصاً نيقولاى بتروفيتش ، إذ كان مهتماً فرحاً جداً لرَجوع ابنه ، ومع انه أوى الى فراشه ، فقد ترك الشمعة مولعة ، وأراح نفسه بأن وضع رأسه على يده ، وتمدد غارقاً في أفكار عميقة .

وكذلك أخوه ، فقد بقي في مكتبه الى منتصف الليل تقريباً ، جالساً بين ذراعى كرسي واسع ، أمام موقد في زاوية من الغرفة ينلظى الجمر فيه ، ولم يغير من لباسه سوى أنه أبدل حذاءه الجلدي اللامع بخفين أحمرين من الفلين ، وأمسك بيده عدداً من جريدة « كاليكناني » دون أن يقرأه ، فقد كانت عيناه تحدقان في الموقد ، مستقرتين على لهب أزرق يعلو بين الحين والحين . أما أين كانت تجول أفكاره فالله وحده يعلم . ولكنها لم تكن قد عرجت على الماضي ، ودليل ذلك ما يبدو على مخياها من تقطيب ووجوم ، وليست تلك حالة من تشغل أفكاره الذكريات الحلوة دون غيرها .

وآخرهم الفتاة نينجكا ، وكانت جالسة على أريكة في غرفة خلفية ، مرتدية سترة زرقاء ، وقد ألقت فوق شعرها الفاحم قطعة بيضاء من الشاش ، وكانت ترهف السمع وتحد البصر نحو باب مفتوح تطل منه ألبسة طفل صغير ، وتسمع أصوات تنفس ذلك الطفل النائم .

الفصل الخامس

كان بزاروف أول من استيقظ في اليوم الثاني ، فخرج من الدار .
وقال لنفسه متمتماً وهو ينظر حواليه : « آه ليس هذا المكان مما
يستهيوي النظر . »

لقد وجد نيقولا ي بروفيتش ، عند توزيع أراضيها على الفلاحين ،
أنه مضطر الى استبقاء قطعة قفراء ، تبلغ مساحتها أربعة فراسخ من
مزرعته الجديدة ، حيث بنى داره ، وألحق بها أقساماً لسكنى الخدم
ولبقية المرافق الحيوانية . وقد اختط حديقة وشاد بركة وحفر بئرين .
فتمت الأشجار في الحديقة نمواً ضعيفاً ، ولم تكتسب البركة إلا قليلاً
من الماء ، وأعطت البئران ماءً أجاجاً ، وكان كل ما في الحديقة من النبات
النامي نمواً طيباً ، بضعة أشجار من الليلاك والأكاشيا . وتحت ظلال
هذه الأشجار المجتمعمة المتكاثفة ، اعتاد سكان الدار أن يتناولوا
فطورهم ، أو يشربوا شايم .

وقطع بزاروف ممشي الحديقة في لحظات ، واكتسب ود خادمين
صغيرين ، التقى بهما صدقة ، وانطلق معهما لاصطياد الضفادع من

مستنقع يبعد فرسخاً عن الدار .

وسأله أحد الصبيين : « ما حاجتك الى الضفادع أيها السيد ؟ »

فأجاب بزاروف ، وكان يملك موهبة خاصة ، بها يحوز ثقة من هم أدنى منه ، رغم انه لا يخدمهم مطلقاً ، بل يعاملهم كأنداد : « إني أجعل منها أشياء مفيدة . إني أفتح بطونها ، وأرى ما تحويه أجوافها . إتنا نحن البشر ضفادع أيضاً ، غير أننا نمشي على قدمينا الخلفيتين . وهذه العملية أعرف ما تحتويه أجوافنا ايضاً . »

« وما فائدة ذلك ؟ »

« فائدته هو أنه عندما تمرض ، وأريد أن أعالج مرضك ، أستطيع

أن أجتنب بعض الخطأ . »

« إذن فأنت طبيب ؟ »

« أجل . »

« إصغ الى ما يقوله السيد يا فاسيلكا . انه يقول : إتنا أنا وأنت

ضفدعان . »

« لا أحب الضفادع » هكذا أجاب فاسيلكا ، وهو صبي يناهز

السابعة ، ذو شعر أبيض كندف القطن ، وتتكون ملابسه من صدرية ضيقة رمادية وياقة ضيقة صلبة .

فسأله بزاروف : « ولماذا لا تحبها ؟ أظنها تعضك ؟ لا . هيا الى

الماء أيها الفياسوف الصغير . »

وترك نيقولا يبتروفيتش فراشه ايضاً ، ولما ذهب لرؤية أركادي ،

وجده قد أكمل ارتداء ملابسه ، وعندها يمم الأب والابن شطر الشرفة الى المظلة ، وسط أغصان الليلاك ، ووجدوا ابريق الشاي يفور فوق المنضدة الملاصقة للدرازين . وظهرت في الشرفة ايضاً تلك الفتاة التي استقبلت القادمين مساء البارحة ، وأعلنت بصوتها الحاد : « ان ثيودوسيا نيقولايفنا ليست على ما يرام هذا الصباح ، وهي لا تستطيع أن تشارككم في الفطور ، ولذا فقد طلبت مني أن أسألكم ، هل تخدمون أنفسكم او ترسل لكم دنياشا ؟ »

فأجاب نيقولاي بتروفيتش بشيء من العجلة : « سأدير الشاي بنفسي ، فهل تريده بالليمون يا أركادي أم بالقشطة ؟ »

فأجاب : « بالقشطة » ، وبعد أن وجم قليلاً قال : « يا باشا . »

فنظر نيقولاي بتروفيتش اليه مرتبكاً وقال : « نعم . »

فغض أركادي من بصره وقال مفتحاً : « سامحني اذا ظهر لك سؤال في غير محله . ولكن صراحتك البارحة قد شجعتني على أن أكون صريحاً ايضاً ، سوف لا تتكدر مني أليس كذلك ؟ »

« لا . استمر من فضلك . »

« إذن فأنا أجزأ أن أسألك هل وجودي هنا هو الذي جعلها

لا تشترك معنا في الفطور ؟ أعني ثينجكا . »

فأدار نيقولاي بتروفيتش وجهه قليلاً .

وتساءل أركادي : « ولكن لماذا هذا الحجل من علاقتك بها ؟

انك تعرف آرائي . » وكان يطلق الكلام في سرور غير قليل . « وثانياً ،

لا يمكنك أن تشك مطلقاً في عدم رغبتى بالتدخل في شؤونك الخاصة
ورغباتك قيد شعرة . لا . اننى على يقين بأنك تحسن الاختيار . فاذا
كنت قد طلبت من هذه الفتاة أن تحتلمي تحت سقفك ، فهذا يعني أنها
جديرة بذلك كل الجدارة ، وعلاوة على هذا فليس من حق الابن أن
يحكم على أبيه ، هذا من جهتي ، وخصوصاً أنا الذي له أب مثلك ، أب
لم يحدد أبداً حرية ابنه في تصرفاته الخاصة . »

ارتجف صوت أركادي عند أول الحديث ، لا لأنه شعر بأنه يقوم
بدور شريف فحسب ، بل لأنه أدرك أيضاً أنه يلقي ما يشبه المحاضرة على
أبيه . ونتيجة لما يتطلب من متكلم ينشد التأثير على كائن مثله ، قوي
صوت أركادي أخيراً وضم تعابير شديدة بعض الشدة .

وأجاب نيقولاى بتروفتش بصوت خافت : « شكراً لك يا أركادي »
ومضت أنامله تجول في جبهته كالعادة « ولم يخطئ ، حدسك فلو أن هذه
الفتاة لا تستأهل العيش معي لما دعوتها الى ذلك . وبكلمة أخرى ،
لم آوها عندي لرغبة في العبث الباطل ، ولم يخف عليك ذلك كما قلت ،
وما كنت لأتسكلم في هذا الموضوع لولا رغبتى بأن تعلم بأنه من المحتمل
أن الفتاة قد شعرت ببعض الارتباك ، فلم تظهر لاستقبالك عند
قدومك . »

فصاح أركادي بلهجة تدل على شرف النفس مرة أخرى : « إذن
دعني أذهب انا للقائها » ووثب عن كرسيه ومضى يقول : « أجل
فلاذهب بنفسى لأشرح لها لماذا يجب عليها ألا تجتنبني . »

ونهض نيقولاى بتروفيتش وشرع يقول : « اركادى أرجو أن
تسمح لي . . إذ أنى لم أعلن لك حتى الآن . . »

ولكن اركادى مرق من الشرفة دون أن يصغى اليه ، وصدق
نيقولاى بتروفيتش وراءه مدة دقيقة او دقيقتين ، ثم غلبه الارتباك
فعاد الى كرسيه وقلبه يخفق بسرعة . فهل تراه حسب أن علاقته بابنه
ستسوء عقب ذلك ؟ أكان يتصور أن ابنه لو امتنع عن التدخل في هذا
الموضوع لكان من المحتمل أن يزداد احتراماً له ؟ او أنه كان يلوم
نفسه على ما أبدى من ضعف ؟ من يحزر مجرى أفكاره ؟ وربما كانت
أفكاره تحوي مزيجاً مما ذكرنا مع شيء من الخوف . ومهما كان
الأمر فان تلك المخاوف لم تكن عميقة الجذور ، ودليل ذلك عدم تغير
لون وجهه ، رغم سرعة خفقان فؤاده .

وسرعان ما سمعت أصوات خطى تقترب ، وظهر اركادى في الشرفة
مرة أخرى .

وصاح بלהجة انتصار وبصوت رحيم مرح : « لقد تعرفت بها . ان
ثيودوسيا نيقولايفنا ليست على ما يرام فعلاً ، ولكنها ستأتى حتماً بعد
قليل ، ولكن لماذا لم تقل بأن لي أخاً صغيراً ؟ إذن لكنت ذهبت لأقبله
قبلة المساء الباردة ، ولو أنى تداركت ذلك الآن . »

وحاول نيقولاى بتروفيتش أن يقول شيئاً ، او يبسط ايضاحاً ،
ولكن اركادى قطع عليه ذلك بأن أكب على عنقه .

وقال بول بتروفيتش من وراءهما : « ما هذا ؟ أعناق من جديد ؟ »

ولم يبد على الأب والابن في الحقيقة كدر لظهور بول المفاجيء ،
إذ مهما كانت العواطف المتبادلة بينهما رقيقة حساسة ، فإن المرء مبال ،
في تلك الحالات ، الى ما يخلصه منها .

وقال نيقولاى بتروفيتش بسرور : « وما الذي أثار استغرابك ؟
تذكر بأنني لم أر كشاً عدة قرون . وعلى كل فاني لم أره منذ البارحة . »
فقال بول بتروفيتش : « آه . إني غير مستغرب ، بل على العكس
اني لا أمانع في عناقه شخصياً . »

ولما اقترب أركادي من عمه شعر بلمسة الشارب المعطر مرة أخرى .
وجلس بول بتروفيتش الى المائدة ، وكان يرتدي بذلة صباح انكليزية
أنيقة جيدة التفصيل ، وقد اتى فوق رأسه طربوشاً ، القاء مهملاً جعل
زر الطربوش ينتشر بدون نظام بشكل يرمن الى الانطلاق في حياة
الريف . وكانت ياقة قميصه صلبة ايضاً ، ولكنها مخططة لا بيضاء ، مما
يناسب ذلك الهندام الصحي ، واستندت الى الياقة القوية الصارمة ذقن
حليقة نظيفة .

وقال بول : « ايه يا أركادي . أين صديقك الجديد ؟ »
« في محل ما في الخارج . إذ نادراً ما يتخلى عن رياضته المفضلة في
الصباح الباكر ، ولكن المهم الآنهم به كثيراً ، فهو يكره كل انواع
القيود والمجاملات . »

« هذا ما لاحظته » قال ذلك بول بتروفيتش وهو يضع الزبدة على
قطعة من الخبز بتوءدته المعروفة « ولكن هل سيقم هنا مدة طويلة ؟ »

في الفراغ المطلق ، في خلاء لا هواء فيه ؟ دق الجرس يا أخي نيقولاي
من فضلك ، فقد حان الوقت لأن أتناول الكوكاؤ . »

فلبى نيقولاي بتروفيتش الطلب ، وصاح منادياً دنياشا ، ولكن
أنت ثينجكا بدلاً منها ، شابة في سن الثالثة والعشرين ، شاحبة اللون
رقيقة المظهر ، عيناها سوداوان وشعرها فاحم ، وشفتاها حمراوان
ملمومتان كشتفي طفل ، ويدها ناعمتان . كانت ترتدي لباساً نظيفاً من
القطن ، وألقت على كتفها المستديرين منديلاً أزرق جديداً ، إلقاء
سهلاً ، وكانت تحمل بيدها كوباً كبيراً من الكوكاؤ ، وضعت بهنجل
أمام بول بتروفيتش ، وتدفق تيار من الدم الوردي الدافئ ، فصبغ بشرة
وجها اللطيف ، وظلت واقفة حذاء المائدة وعيناها مسبلتان ،
وأطراف أناملها تلامس المنضدة . ومع أنها كانت متضايقة من قدومها
كما يبدو ، فقد بان عليها مظهر من يعتقد أن من حقه أن يكون هناك .
فاكفهر وجه بول بتروفيتش ، واضطرب نيقولاي بتروفيتش .

وقال الثاني : « صباح الخير يا ثينجكا . »

فأجابت بصوت ناعس رائق : « صباح الخير . »

ثم نظرت متسائلة الى أركادي فابتسم لها ابتسامة ودية . وأخيراً
عادت بخطى هادئة ، دون أن تبالي بشيء ، والصفة الأخيرة من خواصها .
وساد الشرفة صمت ، وظل بول بتروفيتش يحسو الكوكاؤ لحظة ،
ثم رفع رأسه فجأة وتمتم : « ان السيد النيهيلستي على وشك أن يشرفنا
بوجوده . »

حقاً لقد بان للناسظر بزاروف يخطو فوق أخص الزهور ، وعلى
سترته السكتانية طبقة كثيفة من الوحل ، وفوق قمعته المستديرة العتيقة
وسق من نبات المستنقع ، وفي يده حقيبة صغيرة في داخلها شيء يتحرك
حركة من به حياة . ولما اقترب من الشرفة بخطاه الواسعة أوما برأسه
للجماعة وقال :

« صباح الخير ياسادة . عذراً عن تأخري . سأعود حالا ، فصيدي
لا بد أن يحفظ أولاً . »

فسأله بول بتروفيتش : « وما صيدك هذا ؟ أهو علق ؟ »

« لا ، بل ضفادع . »

« أتأكلها أم تربيتها ؟ »

فأجاب بزاروف دون اكتراث وهو يلج الدار : « اصطادها لغرض
التجربة . »

فقال بول بتروفيتش شارحاً : « أي أنه يشرحها . وبكلمة أخرى
إنه يؤمن بالصفدع اكثر مما يؤمن بالمبادي . »

فرمى أركادي عمه بنظرة تأنيب . وحق فيقولاي بتروفيتش ، فقد
هز كنفه استنكاراً . ف شعر بول بتروفيتش بأنه قد اشتط ، فأسرع
يقلب الموضوع الى المقاطعة والوكيل الجديد .

الفصل السادس

عاد بزاروف ، وجلس الى المائدة ، وانكب يشرب الشاي . وظل
الأخوان ينظران اليه صامتين ، ونظر أركادي الى عمه فأبىه ، ثم
العكس . وأخيراً سأله نيقولاى بتروفيتش : « هل سرت بعيداً هذا
الصباح ؟ »

« الى مستنقع بجانب أجمة من شجر الحور ، وبهذه المناسبة ، لقد
أثرت يا أركادي أربعاً من دجاج الأرض من مكانها ، فلعلك ترغب في
اصطيادها ؟ »

« إذن فأنت نفسك لست من هواة الصيد ؟ »

« لا . »

« هذا يعني أنك تفضل العلوم الطبيعية على أي شيء آخر . » وكان
بول بتروفيتش هو المتكلم .

« أجل إنني أفضل العلوم الطبيعية ، والحقيقة علوم التاريخ الطبيعي
بصورة خاصة ، أفضلها على كل شيء . »

« حسناً . لقد نبئت بأن الجرمانين قد خطوا خطوات عظيمة في
هذا المضمار . » وقد استعمل بول بتروفيتش كلمة جرمانين بدلاً من

الألمان بغية السخرية ، دون أن ينتبه أحدهم الى ذلك .

فأجاب بزاروف دون اكتراث : « حقاً ان الألمان هم أساتذتنا في هذا المضمار . »

« انك تقدر الألمان كثيراً . » وحملت لهجة بول بتروفيتش طابع الجد والأدب المتكلف . فقد بدأ يشعر بالضيق من الرجل ، فان طبيعته الارستقراطية لم تهظم عدم احتفال بزاروف بالرسميات . وكان ابن الدكتور هذا ، فضلاً عن تجاهله السلطان والسيطرة ، يجيب اجابات سليطة ، ويحمل حديثه عبارات خشنة تكاد تكون وقحة .

فرد بزاروف : « ان العلماء الاعلام في ذلك الجزء من الأرض ذوو نشاط . »

« هكذا تماماً . ورأيك في العلماء الاعلام الروس ؟ ربما كان جيداً ، ولكنه أقل اطراءً ؟ »
« إنه كذلك اذا سمحت . »

فقال بول بتروفيتش ملاحظاً ، وهو ينصب قامته ويدفع برأسه الى الخلف : « ان هذا يدل على تواضع جدير بالمدح من ناحيتك . ولكن كيف حدث أن أخبرنا أركادي بأنك لا تعترف بأية سيطرة مهما كان نوعها ؟ ألا تتق بسلطان ما ؟ »

« ولماذا أمتق بشيء ؟ أئمة في الدنيا ما يستحق الثقة ؟ من المؤكد أنني أقبل الحقائق اذا عرضت لي وهذا كل ما هنالك . »
« آه . إذا فالألمان قد حصروا أنفسهم ضمن نطاق الحقائق ؟ »

واكتسى وجه بول بتروفيتش تلك اللحظة بصرامة عسكرية ، كأنه قد
جرح فجأة الى أعلى مركز من مراكز الجيش العليا .

فأجاب بزاروف بتثاؤب عابر : « لا . ليس كل الألمان » وكان
واضحاً أنه غير راغب في استمرار ذلك الجدل . ونظر بول بتروفيتش
الى أركادي كأنه يقول له « سلم جدلاً بأن صديقك هذا ذو أطوار
غريبة . »

وعاد بول يقول بتكلف وهو يتباهى بنفسه : « أما من جهتي ، وأنا
إنسان معرض للخطأ ، فلست أحب الألمان ، ولا أدخل طبعاً في هذا
النطاق ، الألمان الروس الذين هم كما نعلم طيور رحل . إن ألمان ألمانيا
هم أولئك الذين لا أحتملهم . لقد أنجبوا مرة رجالاً كشيلر وذلك ..
ما اسمه ؟ كوتيه ؟ .. ولكلا المؤلفين مقام رفيع عند أخي ، ولكن
الامة الألمانية الآن تتألف من كيميائيين وماديين فقط . »

فقال بزاروف ملاحظاً : « إن كيميائياً بارعاً يشمن بعشرين من
شعرائك . »

فقال بول بتروفيتش ، وهو يرفع جفنيه متثاقلاً كمن أوشك أن
ينام : « لقد أنبتت بأنك لا تعترف بقيمة الفن ، بل تؤمن بالعلم فقط . »
« لقد أنبتك بأنني لا أؤمن بشيء على الإطلاق . وما هو العلم
بالاجمال ؟ أعني العلم بصورة عامة ؟ إن العلم الخاص يبقى بقاء الصناعة
والاختصاص ، ولكن العلم كشيء كلي ليس شيئاً مذكوراً . »

« جيد جداً ، ولكنك تتخذ نفس الموقف السلبي حيال الفروض

المتعارف عليها لاستمرار البشر في الحياة وصيانة مصالحهم . »

فاعترض بزاروف قائلاً : « ما هذا ؟ أهو امتحان في العقائد ؟ »
فشحب وجه بول بتروفيتش ، ورأى نيقولاى بتروفيتش أن الوضع
يتطلب منه أن يتدخل في الجدل .

فقال : « لا . سنتناقش فيما بعد . وعندئذ ستستقر آراؤنا ، بعد
فهم آرائك ، يا اخي الطيب . إنني شخصياً مسرور باهتمامك بالعلوم
الطبيعية ، فقد علمت مثلاً أن لبيك ^(١) قد اكتشف أشياء مذهشة في
موضوع تحسين التربة . إذن ففي استطاعتك أن تساعدني في زراعتي
بأن تقدم لي بعض الإرشادات الثمينة . »

فأجاب بزاروف : « إني في خدمتك دائماً يا نيقولاى بتروفيتش .
ولكن ما علاقة لبيك بنا ؟ علينا أن نتعلم الحروف الهجائية قبل أن
نحاول قراءة الكتب . إننا لما نصل الى حرف الألف . »

فقال نيقولاى بتروفيتش لنفسه : « انك نهيليسي . هذا واضح
جداً » ثم رفع صوته « ومع ذلك فدعني أطلب مساعدتك بين الفينة
والفينة . يا أخي بول أرى أن الوقت قد حان لأن نتباحث في أمور
الوكيل الجديد . »

فقام بول بتروفيتش عن كرسیه ، وهو يقول دون أن ينظر الى
أحد : « نعم . من المزعج حقاً أن يعيش الانسان في الأرياف خمس

(١) جوستوس فريهر فون لبيك (١٨٠٣ - ١٨٧٣) الكيميائي
الألماني الكبير ، وهو الذي أسس الكيمياء الزراعية على الأخص .

سنين ، ويبقى في معزل عن الثقافة العالية ، وحتى لو كان الانسان مجنوناً
فانه سيدرك ، بأن المرء ، مهما حاول أن يحتفظ بما تعلمه ، فان وحيماً
سينزل عليه لينبئه بأن كل ما تعلمه سابقاً سخيف ، وأن من كان يظنهم
رجال الحجي قد أصبحوا لا شيء ، وأنه قد تخلف كثيراً وراء الزمن .
ولكن ماذا يستطيع المرء أن يفعل في حالة كهذه ؟ من الواضح أنكم
أتم أبناء الجيل الطالع تعرفون أكثر منا . »

وبعد أن فرغ من كلامه استدار بطيئاً على عقبه وابتعد بصوته
الشاكي ، وحذا نيقولايتروفيتش حذوه .

ولما سد الاخوان باب الغرفة عليهما سأل بزاروف : « أقيم بول
يتروفيتش دائماً هنا ؟ »

« نعم . ولكن اصغ إلي يا أجنبي . لقد استعملت اسلوباً حاداً مع
عمي فأسأت اليه . »

« ماذا ؟ وهل علي أن أداهن هذا الأرستقراطي العتيق رغم مخبره
الدال على التدليس والخضوع للتقاليد ؟ وما دام كذلك فقد كان من
الأفضل له أن يبقى في مركزه في سنت بترسمبورج . وعلى كل فلنتركه
وشأنه . هل تعلم بأني قد عثرت على نموذج بديع لخنافس الماء المسماة
(دايا لسكوس ماركيناتوس) أتعرفها ؟ سأريكها . »

فقال أركادي ملاحظاً : « ألم أعدك بأني سأروي لك تاريخه ؟ »

« تاريخ من ؟ خنفسة الماء ؟ »

« لا ، بل تاريخ عمي . وسترى بعد ذلك بأنه خلاف ما ظننت . انه

يستحق الشفقة لا الهزؤ . »

« لا أجادل في ذلك ، ولكن ما الذي يجعلك تخلص في الدفاع عنه

الى هذا الحد ؟ »

« على الانسان أن يكون منصفاً دائماً . »

« لست أرى علاقة لذلك بالموضوع . »

« إذن فاصغ إلي . »

وعندها روى أركادي لصديقه القصة التي تجدها في الفصل التالي .

الفصل السابع

تلقى بول بتروفيتش كيرسانوف ، كأخيه ، تعليمه الابتدائي في البيت ، ثم دخل الكلية العسكرية الخاصة بالحاشية الأشرف . وقد امتاز منذ صباه بالوسامة علاوة على الثقة بالنفس . وكان ميالاً الى الهزل ، ذا أسلوب ساخر مفرح ، لا يخيب قط في ادخال السرور على نفوس سامعيه . ولهذا فلم يكذب يأخذ شهادته ويصبح ضابطاً حتى صال في المجتمع وجال ، مجارياً أنداده في اللهو والمغامرات الغرامية والتبذير . وقد تلاءمت هذه الصفات مع شخصيته . فترامت النساء عليه بجنون . أما الرجال فسموه الحظ في العلانية وكرهوه في السر . وفي ذلك الوقت استأجر شقة مع أخيه الذي كان يحمل له ودأ عميقاً ، رغم اختلافه عنه . وهذا الاختلاف بين الأخوين يتناول أموراً كثيرة ، فبينما كان نيقولا ي أعرج ذا وجه صغير رحيم سوداوي السحنة ، ميالاً الى قراءة كل ما يقع في يده من الكتب ، يكره الحركة وتزعجه المراسيم الاجتماعية ، كان بول بتروفيتش لا يقضي ليلة واحدة في البيت ، مشهوراً برشاقته وقوة بدنه (فهو الذي أهاج الحماس ، بين الشبيبة النضرة المعاصرة ، للألعاب الرياضية) ولم يقرأ أكثر من خمس او ست من الروايات الفرنسية ،

وقد وصل الى رتبة كابتن عندما أدرك السنة الثانية والعشرين من عمره . وقد ظهر أن المستقبل أمامه لامع بسام ، ولكن أحواله كلها انقلبت فجأة ، كما سأقص عليك فيما يلي :

كانت من شخصيات المجتمع في سنت بترسبورج آنذاك ، أميرة اعتادت أن تظهر في ذلك المجتمع وتختفي ، ولسمها الأميرة (ل) ما زالت ذكرها حية حتى الآن . ومع انها تزوجت رجلاً بارز الشخصية رفيع المقام ، ذا مركز مهم في المجتمع ، رغم انه سخييف بعض السخف ، فان عقمها جعلها تقضي وقتها في تدير رحلات مفاجئة الى الخارج ، والعودة بصورة مفاجئة ايضاً . ولا أطيل عليك ، لقد كانت هذه الأميرة تحيا حياة غريبة ، فقد كرس وقتها لسكل نوع مسر من اللهو ، فكانت ترقص في الحفلات حتى تسكل ، وتضحك او تمزح مع الشبان الذين تستقبلهم في غرفة استقبلها المنارة بأضواء مريية معتمة . ومن النريب جداً أنها كانت بعد أن تقضي في اللهو أغلب الليل ، تنهافت على نفسها ، فتبكي وتصلي وتضرب كفيها أسفاً ، ولا تستقر على حال ، بل تذرغ الغرفة حتى انبثاق الفجر . او تخلو بنفسها فتقرأ المزامير وهي مضطربة شاحبة باردة . ولكن سرعان ما تعود عند انبثاق نور اليوم الثاني فترجع امرأة دنيا ، قسوق مركبتها للنزهة بنفسها ، وتضحك وتثرثر ، وتترامى على كل ما يشم منه رائحة العبث واللهو . وكان سحرها غير اعتيادي ايضاً ، رغم ان أحداً لم يصفها بالجمال (فالشيء الجميل في وجهها هو عيناها ، وحتى هاتان العينان الرماديتان الصغيرتان ، لم تكونا

هما بالذات سرّ جاذبيتهما ، بل النظرات التي ترسلها) وقد كان شعرها كالذهب لوناً ووزناً ، يسترسل حتى ركبتيها .

وكانت نظراتها الساحرة لا تحتفل بشيء حولها ، فتراها تغيب في سهوم عميق ، كأنها تفكر تفكيراً عميقاً ، أو أنها مصابة بالنورستانيا ، نظرات تظل غامضة حتى عندما يدور لسانها في فمها يقذف سخفاً وهذياناً ، فانهما تبرقان بشكل غير اعتيادي لا يمكن التكهن به . وأخيراً فقد كانت أنيقة في ملابسها ، راقية في ذوقها .

التقى بول بترفيتش بهذه المرأة فرقص معها المازوركا . ومع أنها لم تتبادل معه كلمة جدية واحدة ، خلال الرقص ، فقد سقط في شرك غرامها على الفور ، ولما كان رجلاً قد اعتاد النصر ، فقد حازه هذه المرة أيضاً . ومع ذلك فمن الغريب ان سهولة هذا الانتصار لم تبرد حرارة غرامه ، بل استهوته تدريجياً حتى أصبح شديد الكلف بها . فقد بقيت هذه المرأة لغزاً غامضاً في ناحية ما ، وحتى بعد أن استسلمت له استسلاماً مطلقاً . غموض دائمٍ محير ، كأنه عقدة أبدية قوية ، تحجب أسراراً ليس في استطاعة بشر هتك أستارها ، فالله وحده يعلم أسرار تلك النفس . وأغلب الظن أنها كانت خاضعة لقوى مجهولة ، حتى عنها نفسها ، وهذه القوى تعبت بها ، ولا يستطيع عقابها أن يتغلب على ما تسبب لها من أوهام .

وكان سلوكها في كل حوادثها الغرامية مجموعة متناقضات ، وحتى تلك الرسائل القليلة التي كتبتها لبول بترفيتش - تلك التي لا شك أنها تثير

غيرة الزوج لو رآها - كانت وكأنها مرسلّة الى رجل غريب عنها تماماً .
وحل الوقت الذي انقلب فيه غرامها الى نوبات من اليأس ، فأمسكت عن
الابتسام والمزاح مع الرجل الذي اختارته ، وصارت تنظر اليه وتصغي
الى حديثه بنفور ، وقد كانت في الحقيقة ثمة فترات - وعلى الغالب لحظات
مفاجئة - ينقلب فيها ذلك النفور الى رعب يثلج الجسم ، فيكتسي وجهها
قناع الأموات ، فتحبس نفسها في مخدعها ، حيث تستمع خادمتها ، التي
تلتصق أذنيها بثقب القفل ، أصوات انتخاب يأس مكتوم . وكثيراً ما يجد
بول بتروفيتش ، بعد أن يعود الى داره ، أثر حديث رقيق معها ، أن
لا شيء يعمر صدره غير المראה اللاذعة بعد فشل نهائي لا مردّ له ،
فيسائل نفسه في حيرة : « ما الذي أريده منها أكثر مما حصلت ؟ » ومع
ذلك فان قلبه يذوب ويتفطر .

وحدث مرة أن أهداها خاتماً قد نحت فسه على شكل أبي الهول
فسأله قائلة : « ماذا ؟ أتهديني أبا الهول ؟ »

فأجاب : « أجل . انك أنت أبو الهول . »

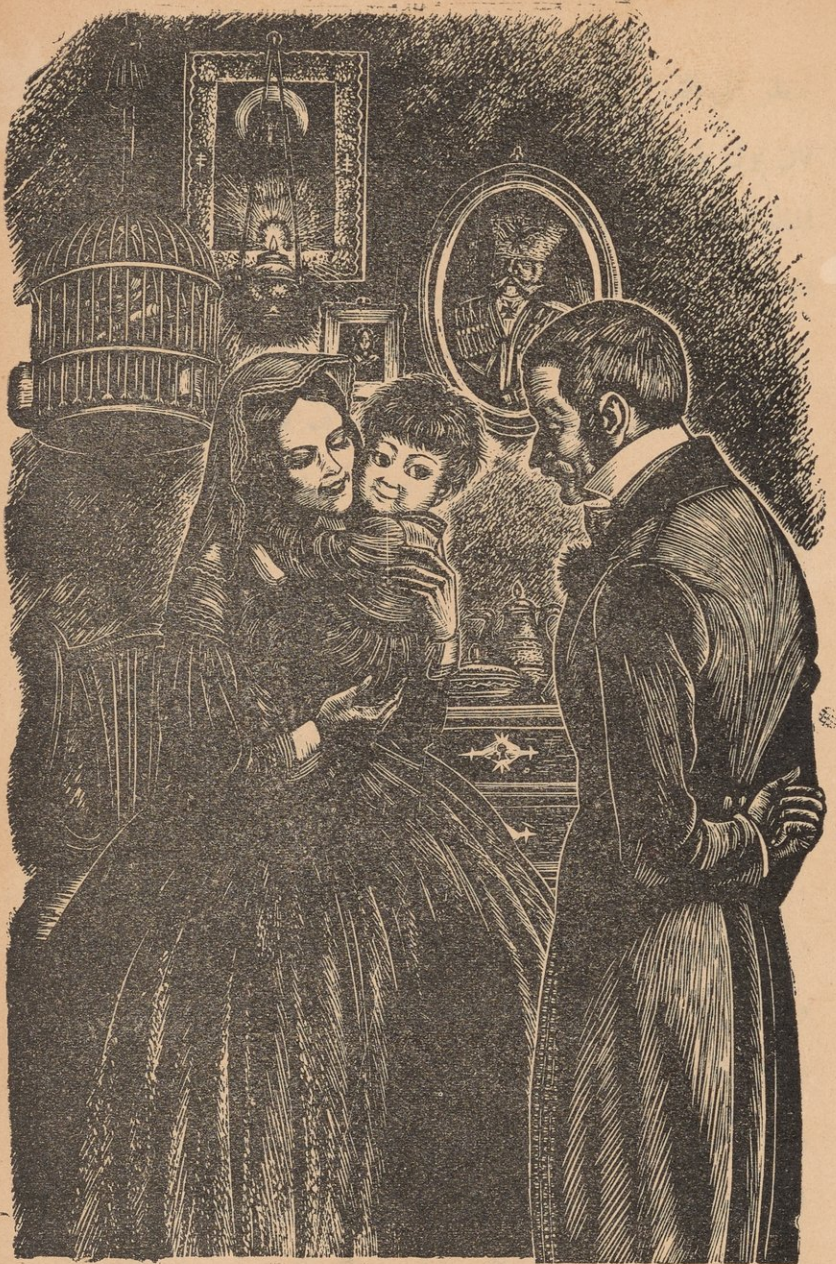
فتساءلت وهي تفتح عينيها الغامضتين : « انك تتملقني دون شك ؟ »
ولاحت على وجهها ابتسامة . أما عيناها فقد وصلتا الى منتهى الغموض .
لقد أصبح في حالة غير طبيعية حتى يوم كانت الأميرة تحبه ، أما حين
برد ذلك الحب الذي لم يدم طويلاً ، فقد أوشك أن يفقد عقله ، فأتعبها
بالملاحقة تحت تأثير الغيرة حتى الجأها ، بعد أن ضجرت من عرض حبه
المردود ، وملاحقته المضنية ، الى القيام بسفرة الى الخارج ، ولم يصنع

بول بروفيتش الى رجاء أصدقائه ولا الى نصيحة رؤسائه ، رغم كل ما حدث ، بل قدم استقالته من الخدمة وتعقب آثارها . وبقي يطاردها دون جدوى أربع سنوات ، ومع أنه كان يشعر بالحجل من سلوكه وانحطاط قيمته ، فان كل ذلك لم يجده نفعاً ، إذ أن خياله الخلاب الساحر الذي خيب آماله ، ذلك الخيال الجذاب الذي ظل أبداً يحوم حول ناظريه ، قد تغلغل عميقاً في شغاف قلبه . وأخيراً التقى الاثنان . وكان ذلك في بادن .

ورغم ما ظهر عليها من أنها ما أحبته قبلاً كما أحبته الآن ، فلم ينقض شهر حتى حل الشقاق مرة أخرى ، وكان نهائياً هذه المرة . فقد انطلق اللهب تماماً بعد أن خفق خفقته الأخيرة ، حقاً لقد علم مقدماً بأن الفراق أمر محتم ، ولكنه قنع بصداقتها ، وكأن الصداقة شيء ممكن مع امرأة كهذه . لقد تركت بادن دون ضجة ، ومن ثم تجنبت به باصرار وحزم ، فحيت آماله نهائياً ، فعاد الى روسيا ، وحاول أن يرجع الى سابق عهده ، ولكنه لم يستعد حيويته السابقة بكل ما حاول من وسائل ، فصار يتجول هنا وهناك كأنه قد تسمم . لقد أكثر من النزء ، وتعاطى كل ما يبيحه له مجتمعه . أجل انه ليتباهى بانتصارين من انتصاراته في ميادين الغرام ، ولكن لا فان ما ينشده لا يمكن إدراكه لا بنفسه ولا بواسطة الآخرين ، بعد أن فقد قوة المبادأة وبدأ الشيب يدب في رأسه . وصار همه الوحيد أن يتردد على ناديه فيغرق نفسه بالأخذ والرد ، ويلهو بجدل العزاب الذي يسره ، ومثل هذا اللهو يبشر بأسوأ النتائج كما

لا يخفى . ولم تدفعه تلك الحالة الى التفكير بالزواج للتخلص مما هو فيه .
هكذا انقضت عشر سنوات في مطاردة فاشلة و حياة لا لون لها .
ورغم ذلك فقد وجد بول ان الزمن يمر سراعاً ، بل وبسرعة عجيبة ،
إذ أنه يسير في روسيا بمثل هذه السرعة اكثر مما يسير في بقية العالم ،
عدا السجن ، فانه هناك يسير أسرع ، حتى كان يوماً في ناديه كعادته
يتعشى ، فسمع أن الأميرة قد ماتت ، وأنها ماتت في باريس وهي في حالة
من أشرف على الجنون . فنهض عن المائدة ومضى يذرع غرف النادي ،
وفور وصوله الى البيت سلمت اليه رزمة تحوي الخاتم الذي أهدها
للأميرة . ووجد على أبي الهول علامة الصليب ، ومع الخاتم رسالة تقول
فيها بأن الصليب قد حل اللغز .

حدث كل ذلك في أوائل سنة ٤٨ حينما فقد نيقولاى بتروفيتش
زوجته ، ومن غرائب الصدف أن زواج نيقولاى بتروفيتش يتفق مع
أوائل أيام تعارف بول بتروفيتش بالأميرة ، فلم يرَ بول أخاه منذ أن
استقر في الريف . حقاً لقد زار بول أخاه عند رجوعه من سفرته ،
راغباً أن يبقى معه شهرين ، مؤدياً واجب التهنئة على سعادة أخيه ،
ولكن الزيارة انتهت بعد أسبوع واحد فالفرق بين الأخوين كان
عظيماً جداً ، وحتى الآن رغم ان الاختلاف قد زال قليلاً ، إذ أن
نيقولاى بتروفيتش قد فقد زوجته ، وبول بتروفيتش ذكرياته ،
وشرع يحاول النسيان بصورة جدية بعد موت الأميرة ، فحتى الآن
ما زال بعض الاختلاف بينهما ، فبينما يستطيع نيقولاى بتروفيتش أن



ينظر الى الوراء الى حياة سعيدة وأنشودة ترفعه الى مصاف الرجال ،
فان بول بتروفيتش ما برح أعزب ، وعلاوة على ذلك فهو يدخل الدور
المظلم الكدر من أدوار الحياة ، حيث يحل الأسف محل الأمل ، والشباب
قد طار ، والشيخوخة تتقدم بسرعة . إن هذا الحين مؤلم حقاً لأمثال
بول بتروفيتش ، الذي فقد ماضيه ففقد بذلك كل حياته .

وهكذا قال نيقولاي لأخيه : « سوف لا أتجاسر فأدعوك الى
الاقامة في مارينو . فحتى في حياة زوجتي كنت ترى المكان مملاً . أما
الآن فانه حري بأن يقتلك . »

فأجاب بول بتروفيتش : « لقد كنت آنذاك شاباً مجنوناً ، ممتلئاً
كبرياء ، ومع اني لم أزد عقلًا الآن ، فأنا اكثر هدوءاً على الأقل ،
فاذا أردت أن أكون معك ، فاني سأتي اليك وأجعل دارك مقري
الدائم . »

واحتضنه نيقولاي بتروفيتش بدلاً من أن يحببه ، وبقي في القرية
ولم يتركها من ذلك الحين الذي قرّر قراره فيه على أن يسكن الريف ،
وكان ذلك بعد مرور سنة ونصف على تلك المحادثة ، وبقي فيها حتى
خلال الأشتية الثلاثة التي قضاها نيقولاي في سنت بترسبورج مع ابنه .
وصار يقرأ الكتب ، وخصوصاً الانكليزية منها ، ونظم حياته على
الطريقة الانكليزية بصورة عامة ، ونذر أن دعا أحداً من جيرانه الى
حفلة او زيارة منزلية . واقتصرت سفراته القصيرة ، في الأغلب ، على
الاشتراك في الاجتماعات الانتخابية ، وقد أخذ على نفسه أن يمسك لسانه

خلالها عن الكلام ، ولكنه كان يسلي نفسه بعض الأحيان باغضاب
رجال الجيل القديم من ملاكي الأرض ، وتخويفهم بأرائه الحرة
المهاجمة لمصالحهم ، وتجنب بول مثلي الجيل الحديث كبرياءاً ، ومع ذلك
فقد احترمه أعضاء كلا الحزبين ، رغم تسميته بالمتكبر ، وقد احتراموه
لعاداته الأرستقراطية المؤدبة ، ولما سمعوه عن انتصاراته الماضية ، ولأنه
كان يلبس بمنتهى الأناقة ، ولأنه كان ينزل في أحسن الشقق في أحسن
الفنادق ، ولأنه يتعشى عشاءً فاخراً كل يوم ، ولأنه قد تعشى يوماً مع
دوق ولنكدن في بلاط لويس فليب ، ولأنه يصطحب معه دائماً كل
لوازمه الفضية وحمامه السفري أثناء تنقلاته ، ولأنه يتعطر بعطور
نادرة ، ولأنه لاعب ورق من الدرجة الأولى ، وله شهرة في ذلك ،
ولذمته التي لا غبار عليها . وكان النساء أيضاً ينظرن إليه نظرتهم الى
رجل يملك سحراً جنونياً ، ولكنه كان قد أمسك عن التعامل معهن
من زمن طويل .

واستمر أركادي وهو يلف في الحديث : « أنت ترى إذاً يا ايفجني
أنك لم تحكم على عمي بانصاف ، وفوق ذلك فقد نسيت أن أخبرك بأنه
قد أنقذ أبي عدة مرات من الافلاس بتقديم كل ما يملك من النقود له ،
مع أنهما لا يشتركان في المزرعة ، وهو على استعداد لمعونة كل الناس ،
وهو يقف في صف الفلاحين باصرار ، رغم أنه يزور عنهم بوجهه عند
الكلام ، ويتعطر قبل أن يواجههم بالكلولونيا . »

فلاحظ بزاروف بقوله : « كلنا يعرف علام تدل مثل هذه الأعصاب . »

« ربما ولكن قلبه في الموقع الصحيح ، وليس هو بمجنون بأية حالة ، أما من جهتي فقد أفادني بنصائح كثيرة نافعة ، وخصوصاً في موضوع المرأة . »

« آه . ها . الكلب المزجور يخاف الإشارة . كلنا نعلم ذلك . »
واستمر أركادي يقول : « وبالاختصار فهو إنسان يائس بئس ويجب ألا يحتقر . »

فتساءل بزاروف : « من احتقره ؟ كل ما فهمت منك أنه رجل أوقف حياته على حب النساء ، ولما أضاع الهدف إنقلب فظاً ، وترك نفسه ينحدر الى أن أصبح عديم النفع . أقول ان رجلاً كهذا ليس برجل ، بل هو حيوان ذكر ليس إلا . إنه شقي كما تقول ، وأنت تعرفه أكثر مني دون شك ، ولكن من الواضح أنه لم يحاول أن يتخلص من السخف . وبكلمة أخرى إني لا أشك بأنه يتصور نفسه رجل عمل حقيقي ، لأنه يقرأ أحياناً جريدة كالسكناني ، ولأنه أنقذ فلاحاً من المقرعة باعفائه من دين . »

فلاحظ أركادي بقوله : « ولكن خذ بنظر الاعتبار ثقافته الأرستقراطية ، والعصر الذي عاش فيه . »

فاعترض بزاروف : « لماذا يعلو الانسان بنفسه ؟ على الانسان أن يتثقف بنفسه كما فعلت أنا ، وأما بخصوص العصر ، فلماذا أعتمد أنا او أي إنسان آخر على العصر ؟ بينما يجب علينا أن نجعل العصر يعتمد علينا ؟ لا لا يا صديقي ان الحساسية والطيش وأمثلهما هي الأغلاط

بالذات . خبرني مم تتكون العلاقة التي تسمى سرية بين الرجل والمرأة ؟
إننا نحن - الفزيولوجيين - نعلم مم تتكون . خذ تركيب العين فأني شيء
فيها يسبب تلك النظرات الغامضة التي تكلمت عنها . إن هذا كله شيء
خيالي وهو سخييف مصطنع ، فلنذهب لندرس الحنفساء . »
وذهب الصديقان الى غرفة بزاروف ، وكان الأخير قد نجح تمام
النجاح في تكوين مختبر صغير امتزجت فيه رائحة العقاقير برائحة الطباقي
الرخيص .

الفصل الثامن

ترك بول بتروفيتش عادة حضور المداولة بين أخيه وبين الوكيل ، وكان هذا الأخير نحيفاً طويلاً القامة ذا عينين حركتين ، يجيب على كل ما يطلب منه سيده بعبارة « حسناً جداً إذا كان هذا يرضيك . » يقول ذلك بصوت مدهن عذب . لقد نظمت ادارة المزرعة على أساس جديد ، وكانت هذه الادارة تفرقع كما تفرقع عربة صديئة المحاور ، او قطعة من الأثاث قد صنعت من خشب غير مناسب لتصميمها ، ولذلك كان نيقولاى بتروفيتش كثير الهم والتنهد ، ولو أنه لم يصل الى حدود اليأس . إن مصالحه لا يمكن أن تثمر بدون نقود ، وإن ما لديه من النقود قد نفذ . لقد ذكر أركادي لصديقه كما علمنا ، أن بول بتروفيتش قد تقدم لمساعدة أخيه عدة مرات ، لقد فعل ذلك حقيقة ، لقد اندفع مراراً ، متأثراً بحيرة أخيه ، الى أن يتمم بالفرنسية « ولكنى سأقرضك الدراهم . » يقول ذلك وهو يقترب من النافذة ببطء ، واضعاً يده في جيب سرواله ، ثم ينفذ ما وعد به . ولكن لم يبق عنده في الأيام الأخيرة مال مدخر ، ولهذا فضل الانتقال الى محل آخر . لقد كانت مشاكل ادارة المزرعة المحزنة تنعبه ، فقد كان شديد الثقة بأن أخاه

لم يستطع بكل ما لديه من غيرة واجتهاد ، أن ينظم أموره تنظيمًا حسنًا ،
ورغم أنه ما كان يستطيع أن يشير الى موضع الخطأ عند أخيه ، فقد
كان يقنع نفسه بقوله إن أخاه غير عملي ، وذلك يكفي لأن يجعل المحيطين
به يغشونه يمنة ويسرة . وكان لدى نيقولاى من الجهة الأخرى ثقة
كبيرة بمقدرة أخيه العملية . فكان ينشد مشورته دائماً بقوله « إنني
ضعف سهل القياد ، فقد قضيت كل حياتي متقاعداً ، أما أنت فلم تقض
حياتك عبثاً . أنت تعرف ذلك ، إن لك عين نسر لا تخطئ . » فكان
بول لا يجيبه على هذا الاطراء ، بل يدير رأسه ، دون أن يحاول
تصحيح خطئه .

ترك بول بتروفيتش أخاه في مكتبه وقطع الممشى الذي يفصل بين
الجناحين الخلفي والقبلي ، وعندما وصل باباً منخفضاً وقف لحظة من
الزمن متردداً ، عابثاً بشاربه ، ثم قرع درفة الباب بمفصل أصبعه .
فأجابت ثينيجكا من الداخل : « من هناك ؟ أدخل من فضلك . »
فقال بول بتروفيتش وهو يفتح الباب : « إنه أنا . »

فوثبت عن الكرسي الذي كانت جالسة عليه ، وناولت ابنها للمربية
الصبية ، فأخذته هذه وخرجت فوراً . وأسرعت ثينيجكا بترتيب هندامها .
فقال بول بتروفيتش وهو ينظر اليها : « لقد أزعجتك فأرجو أن
تسامحني ، أردت بمجيئي أن أطلب منك أن تشتري لي قليلاً من الشاي
الأخضر لاستعمالي الشخصي ، إذ علمت بأنك سترسلين خادماً الى المدينة
اليوم . »

فأجابت مينجكا : « سأفعل . فكم تريد أن أوصي بشرائه ؟ »
« نصف باون كمية كافية على ما أظن . » ثم أدار عينيه في الغرفة
مستوعباً كل ما فيها حتى جسم مينجكا نفسها وقال : « ياله من تغيير ! »
ثم أوضح بعد أن رأى أنها خابت في فهم ما يرمي إليه « إني أعني تلك
الستائر . »

« أجل . لقد أعطانيها نيقولاى بتروفيتش ، وقد علقها منذ زمن
طويل . »

« ولكن تذكرى بأني لم أزرك من زمن طويل . إن الغرفة تبدو
مريحة أليس كذلك ؟ »

فهمست : « أجل ، وشكراً لنيقولاى بتروفيتش لما يبدي من
عطف . »

وأضاف بول بتروفيتش وعلى وجهه ظل ابتسامة : « أترين الإقامة
هنا أحسن من محلك السابق الصغير ؟ »

« أجل . »

« ومن أقام مكانك في ذلك المحل ؟ »

« الفسالة . »

« آه . »

وغرق بول بتروفيتش بالصمت ، وقالت مينجكا لنفسها : « أظنه
سيذهب الآن . »

ولكن بول بتروفيتش كان بعيداً عن تحقيق هذا الظن ، فقد ظل

حيث كان ، وظلت هي أمامه تجمع أصابعها وتفرقها بحركة عصبية .
وسألها بول : « لماذا أبعدت الطفل ؟ إني أحب الأطفال . أرنيه من
فضلك . »

فأحمر وجهه ثم نجحاً إرتبها كأ وسروراً . لقد اعتادت أن ترتبك أمام
بول وتضطرب فكيف وهو يتكلم معها .

وصاحت : « دنياشا » وكانت تخاطب الفتاة كما يخاطبها أهل الدار
جميعاً ، بصفة المخاطب المجموع للاحترام : « هاتي ميتيا الى هنا
واسرعي . ولكن البسيه ملابسه أولاً . » ثم يمت ناحية الباب .
فقال بول بتروفيتش : « لا بأس لا بأس . »
فقالت وهي خارجة : « سأعود حالاً . »

نظر بول بتروفيتش في انحاء الغرفة ، لما أصبح وحيداً ، بانتباه .
كانت الغرفة الصغيرة الواطئة التي تضمه نظيفة مريحة عبقة برائحة البابونج
والريحان والدهان الذي يضاف الى طلاء الأثاث . والتصق بالحائط
كرسي قيثاري الشكل ، كان الجنرال المرحوم قد اشتراه أيام الحملة
البولونية ، وفي زاوية من الغرفة قام سرير للنوم تحت كلة من الموسلين ،
وبجانبه تماماً صندوق ذو مفصلات حديدية ، محدب الغطاء ، مغلف
بصفائح التنك ، وفي الزاوية المقابلة مصباح يضيء صورة قديس كبيرة
مسودة بالدخان ، صورة القديس نيقولاى صانع المعجزات ، وتدل من
هالة القديس الذهبية شريط أحمر يحمل بيضة من الصيني قد استقرت
على صدره ، وعلى عتبات النوافذ صفت بعض الجرار المحتمومة بعناية ،

مملوءة بمربي من أثمار السنة المنصرمة ، فكان الضوء يتحول خلالها الى أخضر ، وعلى أغلفتها عناوين بخط ثينجكا ، ذي الأحرف الكبيرة (توت الأوز) وهو ما يحبه بول بتروفيتش بصورة خاصة . وعلق بالسقف قفص صغير يتدلى من حبل طويل ، فيه شحورور قصير الذيل ، كان يوتوت ويقفز بصورة مستمرة ، فكان قفصه يهتز يمنة ويسرة وهو يغرد ، فتنتثر منه بذور القنب ممزوجة بالقش فوق بلاط الغرفة ، وحذاء الحائط فوق دولاب ذي أدراج ، وضعت صور غامضة لنيقولاي بتروفيتش في أوضاع مختلفة ، من تصوير مصور متجول ، وبجانبا صورة غير متقنة لثينجكا نفسها ، هي عبارة عن وجه لا عينين فيه ، يطل من اطار معتم ، وفوق هذا صورة لأيرمولوف بمعطفه الواسع وعبوسه الذي ينذر بالسوء ، ينظر الى سلسلة من جبال القفقاس البعيدة ، وعلقت فوق جبهة هذه الصورة وسادة صغيرة من الحرير تستخدم لشك الدبابيس ، بشكل حذاء .

كانت تسمع من خارج الغرفة وشوشة استمرت ما يقرب من خمس دقائق ، وتناول بول بتروفيتش من فوق الدولاب مجلداً ملوثاً بالزيت لكتاب ماسيلسكي (الفارس) وقلب بعض صحائفه ، وفتح الباب فجأة ودخلت ثينجكا حاملة ميتيا ، مزداناً برداء أحمر وياقة ذات أزرار ، وقد مشط رأسه الصغير وغسل وجهه . ومع أنه كان يتنفس تنفساً قوياً مسموعاً ، ويحرك يديه وجسمه حركات تدل على أنه طفل مكتمل الصحة ، فقد كان للرداء الجميل أثره ، لقد كان وجهه يشع سروراً .

وكانت ثينجكا أيضاً قد رتبت شعرها وأصلحت هندامها ، ولو أن ذلك لم يظهر أثره فيها ، وليس في الدنيا أجمل من منظر أمّ شابة جميلة تحمل بين ذراعيها طفلاً مكتمل الصحة .

قال بول بتروفيتش بسرور وهو يداعب ذقن الطفل المزدوجة بطرف أصبعه : « ياله من طفل جميل . » فثبت الطفل نظره في الشحورور الصغير وابتسم .

وقالت ثينجكا وهي تمحني فوق الطفل وتهزه برفق : « هذا عمك . » وكانت دنياشا حينذاك تضع شمعة موقدة على حافة النافذة فوق قطعة نقود من فئة الكوبكين لطرد الأرواح الشريرة .

وسأل بول بتروفيتش : « كم عمره ؟ »

« ستة أشهر ، وفي الحادي عشر من هذا الشهر سيبلغ السبعة . »

فصححت دنياشا بلطف : « لا بل ثمانية . أليس كذلك يا ثيودوسيا ؟ »

نيكولايفنا ؟ »

« لا بل سبعة . »

وعندها صاح الطفل ، وحول نظره الى الصندوق الموضوع في زاوية الغرفة ، وأطبق فجأة أصابع يده الخمس وراحته فوق فم أمه وأنفها . فقالت دون أن تحاول أن تخلص وجهها من قبضته : « يالك من طفل شقي . »

فقال بول بتروفيتش معللاً : « إنه يشبه أخي تماماً . »

ففكرت ثينجكا ملياً ثم قالت : « ومن تراه يشبه غيره ؟ »

وعاد يقول : « إني أرى الشبه واضحاً دون شك . » ونظر الى تلك الأم بامعان يكاد يكون رثاء .

وعادت تقول للطفل : « هذا عمك . » ولكنها قالتها هذه المرة بصوت خافت .

وصاح نيقولاي بتروفيتش من وراءهما : « آه أنت هنا يا بول ؟ » وأدار بول بتروفيتش وجهه مقطباً ، ولكن أخاه كان ينظر الى الثلاثة مسروراً ، وبهيئة شاكر ممتن ، حتى أن بول لم يجد مناصاً من أن يقابله بابتسامة .

وقال الأخ الأكبر ملاحظاً : « إن ابنك هذا طفل بديع . » ثم نظر الى ساعته وأضاف : « لقد أتيت الى هنا لأدبر قضية شراء شاي لي . » قال ذلك دون مبالاة وترك الغرفة .

وكان أول سؤال بدر من نيقولاي بتروفيتش : « لقد أتى مختاراً أليس كذلك ؟ »

فأجابت الفتاة : « أجل باختياره . لقد نقر على الباب ودخل . »

« وماذا عن أركاشا ؟ أيأتي لرؤيتك ايضاً ؟ »

« لا . وبهذه المناسبة هل لي أن أعود الى غرفتي يا نيقولاي »

بتروفيتش ؟ »

« ولماذا تريد ذلك ؟ »

« أظنها تناسبني أكثر من هذه . »

فقال نيقولاي بتروفيتش وهو يفرك جبهته مضطرباً متردداً : « لا أظن

ذلك . لقد كان علينا أن نفعل ذلك قبل الآن . لقد فات الأوان .
وتقدم من الطفل متودداً ، وقبل خده قائلاً : « صباح الخير أيها الشقي
الصغير . » ثم انحنى قليلاً وضغط بشفتيه على يد ثينجكا التي بان بياضها
ناصعاً فوق الرداء الأحمر .

فتمتعت وعيناها مسبلتان : « لم تفعل ذلك يا نيقولاي بتروفيتش ؟ »
ثم رفعتهما ونظرت من تحت أهدابها نظرة ساحرة حائرة واحمرت
وجنتاها وابتسمت ابتسامة لطيفة يمازجها شيء من السخف .
ولكي نفهم الظروف التي أدت الى اجتماع نيقولاي بتروفيتش
بثينجكا نقص ما يلي :

قبل ثلاث سنين قدر الحظ لنيقولاي أن يقضي ليلة في نزل في مدينة
ثائية من المدن الريفية ، فأدهشته نظافة الغرفة التي بات فيها ، وأناقة
أغطية الفراش ، فقال لنفسه : « لابد أن تكون مديرة النزل امرأة
ألمانية . » ولكنه وجد عند التحقيق أنها غير ألمانية ، بل امرأة روسية
تناهز الحسين ، نظيفة الملبس ، ذات وجه لطيف تبدو عليه مخائل
الذكاء ، والأخلاق الممتازة ، وعند الفطور خاض معها في حديث عميق
طويل خرج منه وهو يحمل لها وداً عميقاً . وشاء الحظ أن يلتقي
بهذه المرأة عند انتقاله الى الريف لادارة مزرعته الجديدة .
ونظراً لنفوره من استخدام الأتقان فقد قرر أن يستخدم الخدم
المستأجرين . أما من ناحيتها فقد كان اليأس قد خامرها لقساوة
الظروف ، فقد أصبح عدد زوار المدينة قليلاً جداً ، لذا اقترح عليها

نيقولاى أن تذهب معه الى الريف لتكون مديرة منزله هناك ، ولما كانت أرملة وليس لها سوى ابنة صغيرة تسمى مينجكا فقد قبلت ما عرض عليها .

وبناء على ما مرّ فقد انتقلت أرينا سافشنا مع طفلتها بعد اسبوعين الى مارينو ، واحتلت جناحاً في المنزل الريفي الجديد . ولم يمض عليها وقت طويل حتى وضعت كل شيء في محله . ولم تتعرض لذكر ابنتها مينجكا التي كانت تناهر السادس عشرة أمام أحد ، وقليلاً ما كان الناس يرون هذه الفتاة . . وهكذا كانت الفتاة تحيا حياة متواضعة في معزل عن الناس ، حتى أن نيقولاى بتروفيتش نفسه ما كان يرى وجهها اللطيف إلا أيام الآحاد في فناء الكنيسة . ومضى على ذلك اكثر من سنة . وفي أحد الايام دخلت أرينا عليه مكتبه ، وانحنت له مسلمة كما اعتادت ، ورجته أن يعينها على العناية بابنتها التي أصابت عينها شرارة من الموقد . ومن حسن الحظ أن نيقولاى بتروفيتش كان عنده مجموعة طبية من الأدوية ، لا بل أنه أسس صيدلية تحتوي على الكثير من الأدوية التي يحتاجها الانسان في الاسعافات الأولية المستعجلة ، شأن الذين يعتزلون في بيوتهم ، ولهذا طلب من أرينا أن تسرع في إحضار المريضة . ولما سمعت مينجكا بأن السيد يطلبها اضطربت ، ولكنها أطاعت أمها تلبية للواجب ، فقادها نيقولاى بتروفيتش الى النافذة وأخذ رأسها بين يديه ، وبعد أن فحص العين المحمرة الملتفة ، كتب وصفة محلول وركب المحلول بنفسه ، ومزق منديله وأخذ يعلمها كيفية غسل العين غسلًا جيداً ،

وكانت مئنجكا قد لازمت الصمت ، وحاولت أن تترك الغرفة . فصاحت
بها أرينا « إن ترك الغرفة دون تقبيل يد السيد أمر قبيح . » وشعر
نيقولاي بالارتباك وهو يمد لها يده ، ولم يلبث أن قبل رأسها المنحني في
مفرق الشعر . وشفيت عين مئنجكا سريعاً ، ولكن تأثيرها على نيقولاي
بتروفيتش لم يذهب بنفس السرعة ، لقد أصبح يطوف في خياله وجه تقي
رقيق مرفوع نحوه ، ويشعر بلمس خصل من الشعر الناعم . ويتخيل
دائماً شفتين بريئتين مفتوحتين قليلاً ، تظهر من خلالها أسنان براءة
تعكس الضوء كالمرآة . وصار بنتيجة ذلك يطيل النظر الى الفتاة في
الكنيسة ، ويحاول أن يحادثها ، وكان حياؤها المفرط يمنعها عن مقابلته
بالمثل . والتقت به مرة في ممر ضيق في حقل الشوفان ، فتجنبته مخفية
في كتلة من النبات المرتفع هو عبارة عن خليط من السنابل ، وقرنبيط
قد طاولها في النمو ، وبعض الشجيرات . ورغم محاولتها الاختفاء فقد
لمح رأسها في خصلة من السنابل الذهبية المنفرقة . فناداها ، ولما رآها
تتطلع نحوه بعينين مستوحشتين قال لها متحجباً :

« صباح الخير يا مئنجكا . لا تخافي فاني لا أؤذيك . »

فهممت ترد التحية دون أن تترك المحل الذي التجأت اليه : « صباح

الخير يا سيدي . »

وصارت تألفه شيئاً فشيئاً بمرور الوقت وعندما أخذ حياؤها منه
يزايلها ماتت أمها بالكوليرا . ووقع السيد في حيرة عظيمة ، فما الذي
يصنع بالفتاة مئنجكا التي ورثت عن أمها حب النظافة والأدب الجم

والتصرف المعقول الحسن ، وفوق ذلك فقد كانت الفتاة وحيدة* ، وكان نيقولا يبتروفيتش رقيقاً طيب القلب متواضعاً ، لكل هذه الأسباب سلك الطريق الذي لا يمكن أن يسلك سواه ، ونحن في غنى عن بقية التفاصيل .

وتساءل نيقولا يكرة أخرى : « إذن فإن أخي قد زارك . إنك تقولين أنه طرق على الباب ودخل ؟ »

« أجل . لم يفعل أكثر من أن طرق الباب ودخل . »

« حسن جداً . والآن أعطني ميتياً . »

وراح نيقولا يلعب بالطفل ، يرميه نحو السقف ويتلقفه بيديه ، عملية يرتاح لها الطفل كثيراً ، ولكنها تقلق الأم أكثر ، فتراها تمد يديها بحركة لا شعورية كلما رمي الطفل نحو السقف .

ورجع بول بتروفيتش الى مكتبه ، وهذا المكتب عبارة عن غرفة قد غطيت جدرانها بورق قد رسمت عليه زهور برية كبيرة ، وعلقت فوقها الأسلحة ، وفرشت أرضها بسجاد إيراني مخطط . أما أثاث الغرفة فعبارة عن مكتبة من البلوط القديم الأسود تضم كتباً حديثة ، ومكتب جميل ، وبضعة تماثيل من البرونز ، وموقد يتكون معظمه من خشب البندق ، مكسو بقطيفة غامقة اللون . فتمدد فوق أريكة وعقد يديه وراء رأسه وحلق في السقف . إن الأفكار التي كانت تدور برأسه آنذاك يجب ألا تبدو حتى للجدران ، ولذلك نهض وأطلق الأستار من عقدها ، فغطت النوافذ ، ثم رجع الى الأريكة .

الفصل التاسع

وشهد نفس اليوم بزاروف يتعرف بثينجكا ، وكان ذلك عندما كان يتمشى مع أركادي في الحديقة ، يتحدث معه عن سبب عدم ازدهار بعض الأشجار فيها ، وخصوصاً البلوط المتوفرة له شروط النماء . فقال بزاروف : « عليكم أن تكثروا من زراعة أشجار الحور الفضي ، مع الصنوبر النروييجي ، وأشجار الليمون أيضاً ، هذا بعد أن تضيفوا إلى الحديقة كمية طيبة من السماد . إن السبب في ازدهار أشجار هذه الحملة هو أنها تتكون من الليلاك والأكاسيا ، وهما نوعان متوافقان . ولكن هالو ... من أولئك الجالسون هناك ؟ »

وكان الجالسون في الحملة ثينجكا ودنياشا وميتيا الصغير . فتوقف عندهم بزاروف ، وأومأ لهم أركادي بإيماءة صديق قديم ، ثم سار الاثنان في طريقهما ، وسأل بزاروف صديقه :

« من تلك ؟ »

« من تعني ؟ »

« إنك تعرف من أعني . حقاً أنها جميلة . »

فعرفه أركادي وهو متلجلج بهوية ثينجكا .

فقال بزاروف ملاحظاً : « آه . حقاً ان أباك حسن الذوق . إني

امتدح فيه حسن الاختيار . والصغير ؟ ياله من جرورٍ جميل . »

« يجب أن أقدمَ لها أنا أيضاً . » قال هذا واتجه ناحية الحُمية .

فصاح أركادي مهتاجاً وهو يلحق برفيقه : « إيفاجني بحق الإله .

كن حذراً في عملك . »

« لا تخف . إني أعرف كيف أسلك ، ولست فظاً . »

ولما اقترب من ثينجكا رفع قبعته وقال وهو ينحني احتراماً :

« إسمحي لي أن أقدم لك نفسي . أنا صديق أركادي ولست مؤذياً على

الاطلاق . »

فنهضت ثينجكا من مجلسها ونظرت اليه دون أن تجيب .

وعاد يقول : « يا للصبي ما أجمله ! لا تزعجي نفسك رجاءً . سوف

لا أرميه بنظرة شؤم . ولكن لماذا أرى وجنتيه محمرتين ؟ أينبت

أسناناً ؟ »

فأجابت ثينجكا : « نعم . لقد أنبت أربعة ، والأنياب متورمة قليلاً . »

« إذن دعيني أراه ولا تخافي فأنا دكتور . »

وتناول الصبي بين ذراعيه ، واستغربت كل من ثينجكا وديناشا من

أن الطفل لم يبد مقاومة ، ولم يظهر خوفاً .

وعاد بزاروف يقول : « أجل . إن كل شيء على ما يرام ، وستكون

له أنياب كثيرة . ومع ذلك فأرجو أن تخبريني اذا تألم . هل أنت

نفسك بصحة جيدة ؟ »

« أجل . والله الحمد . »

« وأحمد الله أنا أيضاً ، لأن صحة الأم شيء مهم . وأنت ؟ » قال ملتفتاً الى دنيasha . وكانت هذه معروفة بسلوكها المؤدب الممتاز في غرفة الاستقبال ، وبعيها الكثير في المطبخ . فأجابته بضحكة عصبية مكتومة .

« حسناً إنك لتبدين حقاً بصحة جيدة . خذي بطلك . »

فقال بصوت خافت : « كم كان هادئاً عندك ! »

فقال ملاحظاً : « إن الاطفال يهدأون عندي دائماً . إني أعرف كيف أحملهم . »

وقالت دنيasha : « إنهم يعرفون من يحبهم من الناس . »

فأكدت ثينجكا بقولها : « حقاً ان ميتيا نادراً ما يرتاح في غير أحضاني . »

فتقدم أركادي وقال مخاطراً ، وكان طيلة هذه المدة في المؤخرة : « أياي إلي ؟ » وعندما حاول أن ينقل ميتيا الى ذراعيه ، أبعد الطفل رأسه وشرع في البكاء ، مما أقلق ثينجكا كثيراً .

وقال أركادي ضاحكاً : « فلندع ذلك الى فرصة أخرى ، حتى يعتاد رؤيتي . » وابتعد الصديقان .

وسأل بزاروف : « ما اسمها ؟ »

فأجاب أركادي : « ثينجكا — ثيودوسيا . »

« وما اسمها العائلي ؟ »

« نيقولايفنا . »

« أجل . إن ما يعجبني منها هو طبيعتها غير الحجولة . إنها صفة قد لا تعجب بعض الناس . إن هؤلاء سخفاء ، فلماذا تخجل ؟ إنها أم جميلة ، فيجب أن يعرف قدرها . »

فقال أركادي : « أوافقك ، ولكن أبي .. »

فأجاب بزاروف باختصار : « يجب أن يقدر أيضاً . »

« لا . أنا لا أوافقك في ذلك . »

« أترك لا ترحب بوارث جديد ؟ »

فصاح أركادي من أعماق قلبه : « اخجل يا ايناجني ، فكيف تطاوعك نفسك أن تنسب لي مثل هذه الدوافع ؟ إن ما أعنيه هو أن بي غير محق في شيء واحد . يجب عليه أن يتزوجها . »

فقال بزاروف بهدوء : « آه . آه . إلى أي حد من السمو والجبروت قد وصلنا . إذن فلا زلت تعطي مراسيم الزواج الشرعية قيمة . ما كنت أنتظر هذا منك . »

وسار الصديقان عدة خطوات صامتين ، ثم عاد بزاروف يقول : « لقد فتشت مقاطعة أليك فوجدت أن القطيع ضعيف ، والحيول نحيلة ، والأبنية تترنح كالسكاري ، والعمال يظهرن ميلاً إلى التخاذل والكسل . ولم أعرف حتى الآن حقيقة الوكيل الجديد ، أمجنون هو أم محتال ؟ »

« إنك للوأم اليوم . »

« إني كذلك . والسبب هو أن هؤلاء الفلاحين الطيبين يخشون أباك ، وعلينا أن نؤمن بالمثل الروسي (إن الفلاح الروسي ليكسر حتى ظهر الله) . »

« يدعوني قولك الى أن أشارك عمي في رأيه عنك ، بأنك لا تقدر روسيا إلا قليلاً . »

« سخافة . إن أحسن صفات الروسي هي عدم إيمانه بقيمته الشخصية إلا قليلاً . إيمان واثقان يساويان أربعة ولا يهم ما عدا ذلك . »
فتساءل أركادي ، وهو يلقي نظرة سرور على الحقول الملونة المنبسطة تحت أشعة شمس الصباح الناعمة الرحيمة تقبّس حرارتها : « وهل الطبيعة ايضاً سخيفة ؟ »

« إن الطبيعة سخيفة إذا نظرت اليها بهذا الشكل على أقل تقدير . إنها ليست كنيسة مقدسة ، بل هي معمل والانسان بعض عماله . »
وفي تلك اللحظة حمل النسم الى سمعيهما أحياناً مديدة تعزف على كان كبير (جلو) تخرجها يد رقيقة ، ولكنها قليلة الخبرة ، والمقطوعة لشوبرت عنوانها (الأمل) . وكانت النغمة عذبة تكسب الجو الذي تنتشر فيه مذاق العسل .

فسأل بزاروف مستغرباً : « من العازف يا ترى ؟ »
« أبي . »

« ماذا ؟ أبوك يعزف على الجلو ؟ »
« إنه ليفعل . »

« وفي مثل سنه ؟ »

« أجل . وهو في الخامسة والأربعين ليس غير . »

وانفجر بزاروف ضاحكاً .

فسأله أركادي : « لم تضحك ؟ »

« ساحني . ولكن مجرد فكرة . إن أباك وهو في سن الخامسة

والأربعين ، وصاحب مقاطعة ، وهو نبيل في عرف الريف ، ورغم كل

ذلك يعزف على الجلو ؟ »

وعاد يضحك من جديد . أما أركادي فرغم كل احترامه وإيمانه

بمعلمه الأمين ، عجز عن أن يشترك معه ، ولو بابتسامة .

للرياضة فحسب (لقد كان يكره كل حركة لا هدف لها) بل لجمع
الحشرات والأعشاب أيضاً . واثميراً ما كان يقنع أركادي وينغريه
بمصاحبتة ، وفي حالات كهذه ، كان الصديقان يشتبكان وهما راجعان ،
في جدل يخرج منه أركادي مدحوراً دائماً رغم فيض منطقته الممتاز .
وفي صباح أحد الأيام تأخر الاثنان طويلاً في الطريق ، وانطلق
نيقولاي بتروفيتش يقطع الحديقة ماشياً لاستقباهما ، ولما وصل الى الحملة
سمع وقع أقدامهما الخفيفة وهما يقتربان ، وكان في موضع مستور عن
الصديقين العائدين .

كان أركادي يقول : « إنك لا تفهم أبي . »

وعندها توقف نيقولاي بتروفيتش وأمسك عن إظهار نفسه .
فأجاب بزاروف : « إنه رجل طيب جداً . ولكنه أيضاً رجل على
الرف . لقد أكمل أنشودته . »
ومع أن نيقولاي بتروفيتش أرهف أذنيه ، فإنه لم يسمع جواب
أركادي .

وهكذا تمهل الرجل على الرف دقيقة او دقيقتين ، ثم رجع بطيئاً
الى البيت .

قال بزاروف : « لقد رأيته يقرأ بشكن طيلة الايام الثلاثة الاخيرة .
عليك أن تفهمه بأن ذلك لا يجدي ، لأنه فات سن الصبا ، ويجب أن
يرمي جانباً قوس المكان نهائياً ، فن الذي يعجبه أن يراه خيالياً الى هذا
الحد . أعطه شيئاً عملياً . »

« مثلاً ؟ »

« دعني أفكر . أعطه كتاب بنجر ^(١) (ستوف أند كرافت) . »
وأجاب أركادي مستحسناً : « هذا حسن جداً ، خصوصاً والكتاب
مكتوب بأسلوب مبسط . »

وفي ذلك اليوم كان نيقولا يبتروفيتش جالساً مع أخيه فقال له بعد
سكوت : « أرى أنني أنا وأنت رجلان على الرف ، وأنا قد اكملنا
أنشودتنا . إيه ، وربما كان بزاروف على حق . ومع ذلك فاني أعترف
بأن شيئاً واحداً يؤلمني ، ذلك أنه رغم ما كنت أومل من أن أزداد
قرباً من أركادي ، فقد بقيت عملياً في المؤخرة ، أما هو فسيسير قدماً
إلى الأمام ، ولم يعد أحداً ينضم إليهم الآخر . »

فسأله بول بترفيتش بوقار : « ولماذا يسير إلى الأمام دائماً ؟ وكيف
حدث أن ابتعد عنا هكذا ؟ إن السبب بسيط ، هو أن آراء ذلك
النهليستي الثمين تعمل عملها في رأسه . أما من جهتي فاني لا أستدوق
هذا الرجل وأظنه محتالاً . وإني على يقين أيضاً بأنه لم يتقدم تقدماً
صحيحاً في الطبيعيات ، رغم كثرة ضفادعه . »

« لا تقل ذلك يا أخي . فأننا من جهتي أنظر إليه نظرتي لرجل ذي
قابليات ممتازة . »

« إذا كان الأمر كذلك فهو مغرور لدرجة غير مرضية . »

(١) بنجر فيلسوف ألماني (١٨٢٤ — ١٨٩٩) ، وهو طبيب
وفيلسوف مادي .

فوافق نيقولاى بتروفيتش بقوله : « ربما كان مغروراً ، ولكن يظهر لي أن المرء لا يمكن أن يتفاهم مع رجل من هذا النوع . فما لا قبل لي بفهمه هو ما يلي : أنت تعلم بأنى قد قُت بكل ما يمكن القيام به لمجاعة روح العصر . فقد نظمت الفلاحين ، ووضعت المزرعة على أسس جعلت كل أرباب الأرض في هذه المنطقة يسموني كيرسانوف الطيب . وأنا أقرأ دائماً ، وأتقف نفسي . لقد حاولت أن أسير قدماً في مجاعة مطالب العصر بصورة عامة . أجل ، لقد قُت بكل ذلك ، ومع هذا فإن عليّ برغمي أن أعتقد بانتهاء أيامي . والواقع يا أخي اني ميال عملياً الى الأخذ بهذا الرأي . »

« وما السبب ؟ »

« لما يأتني : كنت اليوم أقرأ كتاب (النور) لبشكن ، وهو مما يلد لي قراءته . فدخل أركادي الغرفة فجأة ، وسحب الكتاب من يدي بلطف ، فعل ذلك دون كلام ، وبشكل يدل على مزيج من الاحتقار والشفقة ، مع رقة صبيانية . ووضع بين يدي بدله كتاباً آخر من تأليف الألمان في موضوع ما ، ثم رجع مبتسماً بعد أن تأبط كتاب بشكن . »

« يا لله . وما هو الكتاب الذي أعطاه لك ؟ »

« هذا هو . »

وأخرج نيقولاى من جيب سترته الطويلة الخلفي كتاباً من الطبعة التاسعة تأليف بخنر المشهور .

وقلب بول بتروفيتش الكتاب بين يديه .

وقبع يقول : « هم . يظهر أن أركادي مهتم بتثقيفك اهتماماً جدياً .
هل حاولت قراءة الكتاب ؟ »

« نعم . »

« وكيف وجدته ؟ »

« حسناً . إما أن أكون مجنوناً أو أن الكتاب سخيف ، ومن
هذين الأمرين أرى الأول أكثر احتمالاً . »

« ليس ذلك لأنك قد نسيت اللغة الألمانية على ما أظن ؟ »

« لا . فقد فهمت اللغة جيداً . »

وقلب بول بتروفيتش الكتاب بين يديه ثانية ، ثم نظر الى أخيه من
تحت أهدابه كرّة أخرى ، وتلا ذلك فترة من السكون .

وعاد نيقولاى بتروفيتش يقول ، وكانت رغبته واضحة في تغيير
مجرى الحديث : « لقد استلمت رسالة من كولياجن . »

« من ماتفي ايلييج ؟ »

« منه نفسه ، ويظهر أنه قد وصل توأ الى مدينة (س) في مهمة
رسمية ، ورسائله رقيقة جداً ، ويقول فيها بأنه مشتاق الى رؤية أنسبائه ،
أي أنا وأنت وأركادي . »

فسأله بول بتروفيتش : « وهل قبلت دعوته ؟ »

« لا . فهل تقبلها أنت ؟ »

« لا . فنحن في غنى عن السفر خمسين فرسخاً في سبيل أكلة
بسيطة . إن ماتفي الطبيب يريد أن يتباهى قليلاً ، هذا كل ما هناك ،

وانه ليستطيع ذلك بدوننا . ولكن ما أعظم الساعة التي يصبح الانسان فيها في مثل رتبته . لو بقيت في الخدمة ، وتمسكت بتلك الحبال القوية لأصبحت جنرالاً . وهكذا يصبح أمثالي على الرف . »

« أجل يا أخي . لقد حان الوقت لأن نوصي ببناء قبورنا ، ونصلب أيدينا فوق صدورنا . لا ريب في ذلك . »

وختم نيقولايتش بتروفيتش كلامه متنهداً .

فتمتم أخوه : « ولكني لا أريد أن أستسلم بمثل هذه السهولة . يجب أن تكون ثمة مناوشة بيني وبين جراح أركادي . لا مناص من ذلك . » وقد حدثت المناوشة فعلاً في مساء ذلك اليوم . لقد تهيأ بول بتروفيتش للمعركة ، فارتدى لباس المساء ودخل غرفة الاستقبال ، لتناول الشاي ، عابساً ينوي شراً ، وجعل يترقب فرصة للتقدم نحو العدو ، ولكنه رغم ذلك لم يجد سبباً كافياً يسمح له ببدء المعركة . فان بزاروف ما كان يتكلم كثيراً في حضرة كيرسانوف الكبير ، وخصوصاً تلك الليلة ، فقد شعر بشيء من التعب ، فاحتسب شايه بسكون تام . ورغم ذلك فقد بدا على بول بتروفيتش نفاد الصبر ، وهو يترقب أمنيته المحتمة . وصادف أن تحول الكلام الى حديث عن ملاك مجاور ، فبدرت من بزاروف كلمة قاسية حيث قال : « إنه أرسنقراطي حقير . » ويظهر أنه كان تعرف بالرجل في سنت بترسبورج .

فدخل بول بتروفيتش في الحديث وشتاه ترتجنان : « إسمح لي .

هل من رأيك أن الأرسنقراطية والحقاقة سيان في نظرك ؟ »

فأجاب بزاروف وهو يحسو الشاي بكسل : « قلت الأرسقراطى
الحقير . »

« هكذا تماماً . إذن فن حق أن أستنتج بأنك ترى الأرسقراطىين
جميعاً حقراء . هل لي أن أقول بأنى لا أتنق معك فى هذا الرأى ؟
وأضيف على ذلك ، أنى معروف بآرائى الحرة التقدمية ، ولم يتعارض
ذلك مع أرسقراطىى الصميمة . والىك الأرسقراطىة الانكلىزىة مثلاً
ياسىدى العزىز (وحملت عبارته الأخرىة كرهاً شديداً مما جعل بزاروف
يفتح عىنیه مستغرباً) أن هذه الأرسقراطىة لا تتخلى عن أبسط
حقوقها ، ومع ذلك فهى تعرف كيف تحترم حقوق الآخرىن ، فعندما
تطالب هذه الأرسقراطىة بالحقوق التى لها ، تؤدى بنفس الوقت
الواجبات التى عليها ، ولهذا السبب فإن انكثرا بسبب وضعها
الأرسقراطىى ، بقىت كما هى ، ولا غبار على حرىتها . إن المهمة
الأرسقراطىة فىها هى التى تدعم هذه الحرية . »

فقال بزاروف : « حكاية سمعناها مراراً ، ولكن ماذا تريد أن
تبرهن ؟ »

« أرىد أن أقول ، انه بدون شعور الإنسان بالكرامة الشخصىة ،
وبدون احترام النفس - وكلتا الصفتىن تولدان مع الأرسقراطىى
الحقىقى - لا يمكن أن يثبت بناء اجتماعى طىب على قواعد متينة . إن
الشخصىة هى النواة المهمة ياسىدى العزىز . والشخصىة الإنسانية يجب
أن تكون ثابتة كالصخر ، وعليها يرتكز كل بناء المجتمع . ولنضرب

مثلاً : إني أعلم بأنك تسخر من عاداتي ومن لباسي وذوقي الذي لا يسهل ارضاءه . إن هذه الأمور تدل على الشعور بالواجب الذي أشرت إليه الآن . وبكلمة أخرى إن بإمكانني المعيشة في أعماق الريف دون أن أتهاقت . إني أحترم الانسان عندما أحترم نفسي . »

فقال بزاروف : « إسمح لي يا بول بتروفيتش . أنت تقول بأنك تحترم نفسك ، وهذا حسن ، ولكنك تبقى هنا مكتوف اليدين فكيف يستفيد المجتمع الصحيح من ذلك ؟ من المعروف أن البقاء بدون عمل أمر لا يتفق واحترام النفس . »

فابيض وجه بول بتروفيتش وقال : « كل هذا شيء آخر . فلا أشعر أن من حقك أن تطالبني ببيان أسباب قعودي هنا مكتوف اليدين ، كما جاء في تعبيرك المهذب !! ولكن يكفي أن تعلم بأن الأرستقراطية ذات مبادئ ، وأن الذين يعيشون بدون مبادئ ، في هذا العصر ، لا أدب عندهم ، بل هم خالون من كل الآداب الاجتماعية . لقد قلت هذا لأركادي يوم وصوله ، وأقوله لك الآن . إنك توافقني يا نيقولاي أليس كذلك ؟ »

فأشار نيقولاي برأسه مؤكداً ، بينما مضى بزاروف في خطابه : « المبادئ الأرستقراطية ، احترام المرأة ، التحرر ، التقدم ، الأهداف ، لماذا لا تريد أن تؤمن بانقراض هذه التعابير ؟ إن روسيا الحديثة لا تحتاج إليها . »

« إذن فما الذي تحتاج إليه روسيا في رأيك ؟ إن من يصغي اليك يظننا

في معزل عن الإنسانية ، وعن قوانينها واعتباراتها ، بينما - لا تقاطع من فضلك - المنطق التاريخي يتطلب منا ... »

« وما علاقة المنطق بما نحن فيه ؟ إننا نستطيع أن نستمر بجدلنا بدوننا . »

« وكيف نستطيع ذلك ؟ »

« مهما اعترضت ، فهل تحتاج الى المنطق اذا أردت وضع قطعة من الخبز في فمك ؟ ما علاقة هذه الكلمات المجردة بنا ؟ »

فهز بول بتروفيتش يده استهجاناً وقال :

« لا أستطيع أن أفهمك ، يلوح لي أنك تحقر الشعب الروسي ، فكيف تستطيع أنت ، او يستطيع غيرك أن يرفض قبول المبادئ والأهداف ؟ إن هذا يتجاوز حد إدراكى ، فما الذي عندنا غير هذه الأمور لنستخذ منها أسساً في الحياة ؟ »

فسأهم أركادي في الجدل وقال :

« لقد أخبرناك أنا وبزاروف بأننا لا نخضع لسيطرة مهما كان نوعها . »

وصحح بزاروف بقوله : « لا ، ولا نقبل أية قاعدة للعمل سوى تلك القواعد المفيدة . وأحسن قاعدة في الوقت الحاضر هي رفض كل شيء ، ولهذا فنحن نرفض . »

« ترفضون كل شيء . »

« نرفض كل شيء . »

« ماذا ؟ كل ما في الدنيا من شعر وفن ؟ إني أجد من الصعب أن
أذكر أشياء أخرى . »

فقال بزاروف بعدم اهتمام لا يوصف : « أكرر كل شيء . »
فخلق بول بتروفيتش ، إذ لم يكن ينتظر كل هذا . أما أركادي
فقد تورد وجهه سروراً .

وتدخل يقولاي بتروفيتش بقوله : « إسمحوا لي . إنكم تقولون
بأنكم ترفضون كل شيء ، بل وأكثر من هذا إنكم تعرضون كل
شيء للهدم ، ولكن يجب أن تبنوا أيضاً . »

فقال بزاروف : « ليس هذا واجبتنا ، يجب أن تزال الأتقاض أولاً . »
وقال أركادي مؤكداً : « أجل . إن حالة الشعب الحاضرة تتطلب
ذلك ، ونحن مرتبطون بانجاز ما يحتاج اليه الشعب ، فنحن نرى أنه لا يحق
لأحد أن يكرس كل جهوده لارضاء حب التفوق والظهور الشخصي . »
وكان واضحاً أن بزاروف لم يستحسن هذا التعليق الأخير ، ففي
العبارة طعم الفاسفة ، بل الخيال . فبزاروف يسمي الفلسفة خيالاً ،
ولكنه لم يزعج نفسه بدحض تلميذه .

فصاح بول بتروفيتش بجرارة مفاجئة : « لا ، لا . إني لا أصدق
أن شابين مثلكما يعرفان عن الشعب الروسي ما يكفي لأن يؤهلهما أن
يمثلاه في عرض مطالبه . إن الشعب الروسي غير ما تتخيلان ؟ إنه
يتمسك بقدسية التقاليد ، ويخضع للكنيسة ، ولا يحيا بدن إيمان . »
فلاحظ بزاروف بقوله : « لا أجادل في ذلك ، بل أنا على استعداد
لتأييدك . »

« إذا ما سلمتما جدلاً بصحة كلامي فان . . . »

« ان هذا لا يغير شيئاً مما نحن فيه . »

« أجل . إن ذلك ليس حجة . »

ردد أركادي صدى كلام رفيقه ، كلاعب شطرنج رأى حركة خطيرة من خصمه فاستعد للهجوم بهدوء ، شأن الاختصاصي المحترف . فتمتم بول بتروفيتش مبغوتاً « ولكن كيف لا يعتبر ما قلت حجة ؟ أتريدون أن تنكروا بأن معارضتكم وإنكاركم ليسا في صالح الشعب ؟ »
« يا لله . ألا يعتقد الشعب الروسي بأن السماء ترعد حينما يذهب النبي ايليا الى السماء في عربته ؟ إذا رفضنا ذلك لانكون من الشعب الروسي ؟ ويكون رفضنا في غير صالحه ؟ »

« إني أرفض أن أعدك مواطناً حتى بعد أن قلت ما قلت . »
فأجاب بزاروف باستنكار ممزوج بالاحتقار والكبرياء .
« لقد ساق جدي المحراث بيديه ، إذن فاسأل من أحبابك الفلاحين ، من منا الاثنين يعتبر مواطناً صحيحاً ؟ إنك لا تعرف حتى كيف تكلمه . »

« وأنت تحتقره حينما تتكلم معه . »
« أجل اذا كان يستحق الاحتقار . فأرفض وجهة نظري بقدر ما تريد ، فما أدراك أن خصالي هذه غير منبعثة عن الروح القومية التي تثير عليّ الحرب دفاعاً عنها ؟ »

« فوه . إذن فأنت مفيدون جداً أيها النهليست ؟ »

« لسنا نحن الذين نقدر قيمة الحاجة إلينا ، ولكن حتى أمثالك
يعتقدون بأنهم ذوو فائدة . »

فتدخل بول بتروفيتش وهو يثب على قدميه « أيها السادة . أيها
السادة ، أرجو منكم ألا تتطرقوا إلى الأمور الشخصية . »

فابتسم بول بتروفيتش ، ووضع يده على كتف أخيه ، وأجبره على أن
يعود إلى مقعده ، وقال « لا تخف ، فإن ذلك الشعور بالكرامة الذي
اتخذته هذا السيد هدفاً لسخريته القاسية يمنعني من أن أنسى نفسي . »

والتفت إلى بزاروف مرة أخرى وأضاف قائلاً :

« أظن أن تعاليمك تجعلك شخصاً جديداً فريداً ؟ إذا كان الأمر
كذلك فأنت تضيع وقتك عبثاً . إن المادية التي تبشر بها قد نوقشت
مراراً ، وبرهنت كل مرة على إفلاسها . »

فتمتم بزاروف وقد بدأ يخرج عن طوره ، وأصبح وجهه حمراً
قاسياً بلون النحاس وقساوته « تعبير أجنبي آخر . إننا نحن النهليست
لا نبشر بشيء مطلقاً . إن التبشير ليس من ديدتنا . »

« إذن فما هو ديدنكم ؟ »

أن نذكر الحقائق فقط ، كأن نقول مثلاً إن مواطنينا يقبلون الرشوة ،
وأننا بحاجة إلى إنشاء الطرق ، وإلى المشاريع الاقتصادية ، وإلى حكام
عدل ، وأن . . . »

« طبعاً طبعاً ، وبكلمة أخرى فأنتم نقاد . أعتقد أن هذه هي الكلمة
الصحيحة . حسناً . إنني أو من بكثير من إنتقاداتكم . »

« إن من صفاتنا الاخرى المعروفة عنا الثثرة ، لاشيء غير الثثرة .
وأما عن أمراضنا الاجتماعية فان الكلام حولها لا يؤدي الى غير الحذقة
والخياليات . وان قادتنا وتقادنا المصونين لا يستحقون خبرهم ، فهم
يشغلون أنفسهم بالباطل ، ويقضون وقتهم بمناقشة الفنون والحياة
البرلمانية ، والابداع الذاتي الاشعوري ، وغير ذلك ، والى الشيطان ،
بينما نحن في أشد الحاجة الى توفير الحبز للطبقة السفلى المضطهدة . لقد
خفقتنا الحرافات الابتدائية ، وخابت كل مشاريعنا الاقتصادية لحاجتها الى
منفذين مخلصين ، والحرية التي تهذي بها الحكومة لا يمكن أن تتحقق ،
فدام الفلاح الروسي يسكر حتى الموت في الحانات ، فانه مستعد لقبول
كل أنواع السلب . »

« أتم تعترقون بكل هذا ، ومع ذلك فقد عزمت عزمًا أكيداً على
أن لا تعملوا شيئاً . »

وأتى جواب بزاروف الجاف قاطعاً . فقد ضجر فجأة لأنه كشف
عقله بمثل ذلك الوضوح ، لهذا السيد المتعجرف « أجل هو كذلك . »

« وأنكم قد صمتم على رفض كل شيء . »

« لقد صممنا أبداً على رفض كل شيء . »

« وأنكم تسمون نهليستيين . »

« وأنتا نسمى نهليستيين . » وكان ترديد بزاروف لكلام

بول بتروفيتش ، هذه المرة ، قد امتزج بالكبرياء والوقاحة .

فقطب بول بتروفيتش حاجبيه ، وقال بصوت هادئ غريب « هكذا . »

كذا . إن النهلستية تكافح كل أمراضنا ، وأنكم قادتنا وأبطلنا
الوحيدون . حسناً . حسناً . ولكن بم تتفوق أنت ورفاكك النقاد
علينا ؟ أبتثرتكم ؟ ومن لا يستطيع الثثرة ؟ »
فتمتم بزاروف « لا . لا . لا . إننا لا نهم بهذا الشكل ، رغم أن لنا
أغلاطاً أخرى . »

« إذن ماذا ؟ هل أتم تعملون ؟ أم أتم تستعدون للعمل ؟ »
ولم يجب بزاروف ، وتحفز بول بتروفيتش للقيام تحت تأثير إنفعال
خفي ، ولكنه استعاد السيطرة على نفسه بسرعة . وعاد بول بتروفيتش
يتمتم « هم ، إن العمل في نظركم هو الهدم ، ولكن ما فائدة الهدم
ما دمتم تجهلون مؤداه ؟ »

فتدخل أركادي بقوله « إننا نهدم لأننا قوة . »

فخلق بول بتروفيتش ثم ابتسم
وأضاف أركادي موضعاً منتصباً : « إننا قوة تمزق دون أن تؤدي
حساباً لأحد . »

فلهت بول بتروفيتش وقال : « مجانين » وكان واضحاً أنه لم يعد
يستطيع السيطرة على نفسه : « أندرون ما أتم فاعلون بمذهبكم التعس ؟
إن الملاك نفسه ليثور لذلك . قوة مدمرة ! إن الكالموك المتوحشين ،
والمغول البرابرة ، يمثلون قوة أيضاً ، ولكن ما فائدة هذه القوة ؟ ليس
في العالم قيمة لغير المدنية وثمارها . ولا تقل من فضلك أن هذه الثمار
لا تساوي شيئاً . إني أرى بأن أحقر مؤلف ، وأصغر عازف على البيان ،

ذلك الذي يحصل على خمسة كوابكات في الليلة ، أكثر فائدة للمجتمع منك .
لأن رجالاً من هذا الطراز يقفون في صف المدينة ، لا في صف قوة
مغولية مدمرة . أجل إنكم تحسبون أنفسكم جيلاً تقدماً له المستقبل ،
ولكنكم لا تليقون لغير خيمة الكالموك . واعلموا بأن عددكم لا يزيد
عن أربعة وصي ، بينما الآخرون يعدون بالملايين ، وسوف لا يسمحون
لكم أن تطأوا مقدساتهم قبل أن يسحقوكم بأقدامهم . »

فلاحظ أركادي بقوله : « إذا سحقنا فنحن على صواب ، وهذا
أمر يناقش . ولكننا لسنا قلة كما تظن . »
« ماذا ؟ أوتظن أنك تستطيع أن تلقن الأمة وثلقحها جميعاً
بآرائك ؟ »

فأجاب بزاروف : « إن شمعة صغيرة كانت السبب في حريق موسكو . »
« أجل . أجل ، عندكم كبرياء شيطانية أولاً ، ثم إستهانة بالأمور
مضحكة . بهذا تقتحمون قلوب شباننا ، هكذا تكتسبون قلوب السذج
من أبنائنا . إن الجالس بجانبك هو واحد من هؤلاء ، إنه يعبدك عبادة
مطلقة » وعندها قطب أركادي حاجبيه وأدار رأسه قليلاً « أجل إن
الفساد قد عم إنتشاره . لقد انبثت أن فنايننا رفضوا ، عند وجودهم في
روما ، دخول الفاتيكان ، واعتبروا رافائيل مجنوناً ، ذلك لأنه ثقة ، ذلك
رغم أن هؤلاء الفنانين مقفرو الخيال ضعفاء . إن خيالهم لم يتعد صورة
العدراء بجانب النافورة ، وغيرها من الآثار الفنية البسيطة . أظنك تعتبر
أمثال هؤلاء أناساً مفيدين ؟ »

فقال بزاروف : « إني أعتبرهم وأعتبر رافائيل معاً ، اناساً لا يساوون فلساً . »

فصاح بول بتروفيتش : « برافو . برافو . إصغ يا أركادي . إصغ الى الكيفية التي يقوم بها أبناء اليوم شخصيتهم . من المؤكد أن الأغبياء والمتشردين سينضمون اليكم . لقد كان الشبان في أيامنا يذهبون الى المدرسة ، وينكبون على التحصيل ، أرادوا أم لم يريدوا ، لكيلا يتهموا بالكسل والغباء ، أما اليوم فما عليهم إلا أن يقولوا : (كل شيء سخيئ وباطل) وبهذه الحيلة يكفون أنفسهم شر التعب ، ويعتقدون بان عملهم هذا شيء عظيم مفرح وبكلمة اخرى : إن من كانوا يسمون أغبياء فيما مضى قد أصبحوا الآن نهيليست . »

فقال بزاروف ملاحظاً دون اكتراث : « إن الاكتفاء الذاتي ، واحترامك لنفسك يحملانك بعيداً ! لقد أدى جدلنا الى امور لا طائل تحتها . فلننته ، واذا ما استطعت أن تشير الى تقليد واحد من تقاليدنا أو عادة من عاداتنا الاجتماعية أو العائلية لا تستحق النبذ والاحتقار ، حينئذ يسرني أن أقبل آراءك . »

وكان الانفعال قد جعل عيني أركادي تبرقان وجسمه يهتز إنفعالاً . وصاح بول بتروفيتش : « أستطيع أن أعد ملايين من هذه التقاليد ، خذ القرية الاشتراكية مثلاً . »

فلوى بزاروف شففيه بابتسامة إحتقار وقال : « إن القرية الاشتراكية شيء يحسن بك أن تبحيثه مع أخيك ، فقد عرف بالتجربة قيمه هذه

القرية ، ومقدار ما تبشر به من نجاح ، وما أدت اليه من تفسخ ، الى غير ذلك . »

« إذن فخذ العائلة ، إنها ما زالت عند الفلاحين ، على الأقل ، من المؤسسات المقدسة . »

« إني أتصور أيضاً أن هذا الموضوع مما لا يمكن أن يخوض رجل مثلك في تفاصيله . إتبه يا بول بتروفيتش . أترك لك فرصة يومين لأعمال الفكر في هذا الموضوع ، وإنك لفي حاجة الى مثل هذه الفترة على الأقل ، واستعرض بالتتابع كل أوضاعنا الاجتماعية ، واتبه لها أشد الاتباه . أما أنا وأركادي فسندهب و . . . »

« إذهبا واعبثا بكل شيء »

« لا . بل نذهب لتشریح الضفادع . تعال يا أركادي . وداعاً ياسادة . »
وخرج الاثنان تاركين الأخوين وكل منهما ينظر في وجه الآخر .
وأخيراً قال بول بتروفيتش : « هاك شبان المستقبل . هؤلاء هم خلفاؤنا . »

فردد نيقولاي بتروفيتش بقنوط : « أجل خلفاؤنا » وقد كان خلال الجدل كمن يجلس على ابرر ودبايس ، فلم يفعل أكثر من أن ينظر الى ابنه متألماً . « أخي بول لقد تذكرت الآن ذكريات غريبة ، وذلك يوم اختلفت مع امي مرة ، وخلال شجارنا كانت تصرخ بقوة ، وترفض أن تستمع اليّ ، حتى اضطررت أن أقول لها (يستحيل عليك أن تستمعي ، أو تفهمي كلمة مما أقول . إذ أرى أننا من جيلين مختلفين .) فزادها ذلك

غضباً ، فقلتُ بنفسى ماذا باستطاعنى أن أفعل غير ما فعلت . إن برشامة
الدواء هذه مرة جداً ولكن من الضرورى أن تبتلعها . وقد أتى
دورنا الآن ، فنحن من يجب أن يقول لنا ورتنا بأننا وهم من جيلين
مختلفين ، ويجب أن نبتلع هذه البرشامة صابرين . »

فعقب بول بتروفيتش يقول : « إنك لشريف النفس جداً وأنت
تنسحب ، أما من جهتي ، فاني على يقين بأننا على صواب أكثر منهم
رغم أننا نعبر عن آرائنا بطريقة عتيقة وأننا نحتاج الى شعورهم العظيم
بالكفاية الذاتية . الحقيقة إن شباب اليوم مغرورون جداً فإذا سألت
أحدهم : « أتريد خمرة بيضاء أم حمراء ؟ » أجابك متشامخاً ، وقد بدا عليه
أن العالم كله يترقب جوابه : « إن الأحمر هو القاعدة الصحيحة . »

وقطعت عليهما الحوار فينبجكا بأن قالت : « أتريدان مزيداً من
الشاي ؟ » وقد كانت عند احتدام النقاش تنظر من خلال الباب دون
تجراً على الدخول .

فأجابها نيقولا بتروفيتش ، وهو ينهض لملاقاتها : « لا . باستطاعتك
أن تأمرى برفع السموار . »

وذهب بول بتروفيتش الى مكتبه ، بعد أن حيا بكلمة فرنسية
مقتضبة : « طاب مساءكم . »

الفصل الحادي عشر

وبعد نصف ساعة انطلق نيكولاي بتروفيتش ميمماً شطر خيلته المحبوبة . وكانت الأفكار القانطة تجول برأسه ، فقد اتسع الحرق ، بينه وبين ابنه ، على الراقع . وعلم أيضاً بأن هذا الحرق سيزداد اتساعاً يوماً بعد يوم ، فلم تفده شيئاً تلك الليالي الشتوية الطويلة التي قضاها في سنت بترسبورج مكباً على مطالعة المؤلفات الحديثة . ولا فائدة من إصغائه الى الجدل الذي كان يحدث بين الرجال ، ولا قيمة لسروره لما استطاع أن يساهم ، ولو بكلمة واحدة ، في ذلك الجدل العاصف .

وقال لنفسه : « إن أخي يقول بأننا على حق أكثر منهم ، ومن المؤكد أنني أستطيع أن أقول دون مكابرة ، بأن هذين الشابين بعيدان عن الحقيقة أكثر منا . ومع ذلك فإني أعتقد أن عندهم صفات لا توجد فينا ، صفات تعطيهم فرصة في التفوق علينا . فما هي هذه الصفات ؟ أهـي الشباب ؟ كلا ليس الشباب وحده . أهـو أن السيادة التقليدية تحوم حولهم وتقيدهم أقل مما تحوم حولنا وتقيدنا ؟ ربما . »

وأخى رأسه ، ومسح وجهه بيده ثم تمم ؟ « ومع ذلك فكيف

ينكرون قيمة الشعر ، ولا يحسون بجمال الطبيعة ؟ »

وأجل أنظاره حواليه كأنه يحاول أن يفهم كيف يستطيع إنسان ألا يحس بجمال الطبيعة . كان الليل قد بدأ تواء ، والشمس تختفي وراء أجمة الحور التي تبعد عن الحديقة نصف فرسخ ، فكانت تلقى ظلالاً طويلة على الحقول الساكنة . ورأى فلاحاً ينحني فوق مهر أبيض في الطريق المظلم حذاء الأجمة ، ورغم أن المهر وراكبه كانا مظللين بالأشجار ، فقد كان الراكب بين الملاح ، حتى أن بقعة على كتفه كانت ترى بوضوح ، وكذلك ساقيه المدلاتين . كانت أشعة الشمس تخترق الأجمة وتغمر سيقان الأشجار بضوء باهر أحال الجذوع والأغصان إلى كتلة متوهجة ، وكانت الحفافيش تجول في السماء ، والرياح قد استقرت ، وكانت بضغ نحللات غير مبكرة في العودة إلى منازلها ، تدندن بكسل بين أزهار الليلاك ، وعمود من أسراب البعوض يرقص فوق جذع ممدد .

« يا لله ما أجمل ذلك ! » هذا ما قاله نيقولاى لنفسه دون اختياره بينما كانت شفتاه تتمتان مقطعاً شعرياً . وتذكر نجاة أركادي وكتابه . واكتفى بالجلوس حيث هو منقطعاً عن الترنم بالشعر ، ولكنه استسلم استسلاماً مطلقاً لأفكاره المحزنة التي لا يستطيع لها دفعاً . لقد كان كل عمره مغرماً بالأحلام ، وقويت تلك الصفة فيه باعتكافه في الريف . واستعاد أحلامه في الماضي القريب ، يوم كان في انتظار ابنه في شرفة المحطة ، يوم ذهب لاستقباله . لقد شعر آنذاك بشيء يطرأ على العلاقة المهمة بينه وبين ابنه . لقد جدّ وضع خاص سبب ذلك . ثم تخيل زوجته الميتة

أمامه ، لقد تصورهما ، لا كما كانت في الريف في أيامها الأخيرة ، سيدة مدبرة حكيمة ، بل فتاة رشيقة ذات عينيْن بريئتين متسائلتين . أجل لقد طافت بخياله تلك الحاصلات المجدولة فوق عنق صبية لطيف ، وتذكر أول لقاء بينهما ، لقد كان تلميذاً ، وقد قابلها على الدرج المؤدى الى شقته ، وتذكر كيف احتك بها دون قصد فوقف ليعتذر ، ولكنه لم يقل أكثر من عفواً ، فردت عليه بأن انحنت له ، ثم ابتسمت وهربت ، كأن خوفاً فجائياً قد انتابها . وفي منحى السلم وقفت وألقت نظرة ناعمة الى الوراء ، ثم احمر وجهها فجأة ، وبان عليها تردد وحيرة . آه يا لتلك المقابلات الاولى ، يا لتلك الكلمات المندغمة والابتسامات الحمية ، والعواطف السعيدة ، ما بين سرور وقلق ، وذلك التذليل ، وما يعقبه من لذات عظيمة ، لذات تكاد تفقد الانسان وعيه . لقد ذهب كل ذلك . حقاً لقد أصبحت زوجته ، وأسبغت عليه سعادة لا تتاح لكثير من الرجال في الدنيا ولكن ذكرها ما تزال ترود أحلامه وتجعله يتساءل : « لماذا لم تدم أيام تلك السعادة الى الأبد ، فنحيا حياة لا تعرف معنى الموت ؟ »

وشرع يحاول أن ينسق أفكاره . وكان ما سيطر على أفكاره وأسر مشاعره ، هو أنه مستعد أن يهب عوالم بأكملها لمن يصله فعلاً بتلك الأيام المباركة ، بحيث تكون له أكثر من مجرد ذكريات إنه يريد أن يشعر بحبيته ماري الى جانبه مرة اخرى ، أن يشم أنفاسها العزيزة . لقد استولت عليه نوبة قوية غريبة فأحكت قبضتها . وأتاه صوت ثينجكا من محل قريب : « نيقولا يتروفيتش أين أنت ؟ »

وعندما سمع النداء خامره مزيج من الكدر والحجل ، فلا يمكن
المقارنة بين زوجته الميتة وئينجكا . لقد بغت . وشعر برهة بالاشمزاز
من أن تختار ئينجكا تلك اللحظة لتبحث عنه . ولكن صوتها ذكره ،
بطريقة مهمة ، بشعره الذي خالطه المشيب وبشيخوخته ، وبكل ما يمت
الى الحاضر بصلة . وهكذا فان عالمه المسحور الذي كان قد دخله قبل
برهة ، والذي رآه واضحاً خلال أمواج الماضي التي يكتنفها الضباب
قد ارتجفت مشاهدته واختفت حالاً .

وصاح : « إني هنا يا ئينجكا . إذهبي من فضلك ، وسآتي حالاً . »
وقال في نفسه : « هذا شيء آخر يذكرني بأني سيد . »
وعادت ئينجكا ، وأحس فجأة بأن الليل حل أول ما غرق في أحلامه .
كان كل ما حواليه مظلماً ساكناً يتوسطه بقعة شاحبة منيرة ، هي وجه
ئينجكا . فقام واستعد للعودة ، ولكن أعصابه المرتخية لم تمكنه من
إستعادة هدوئه ، فصار ينظر الى الأرض تارة والى السماء اخرى ، حيث
ازدحمت آلاف النجوم المزهرة . وشرع يذرع الحديقة ، وبقي كذلك
حتى تعب . إن تلك الأفكار القانطة المهمة ، والالم الملازم ، قد رفضت
كلها أن تخلي قلبه . فلو عرف بزاروف بما يدور في خلده ، فكم سبضحك
منه ذلك النيهليستي ؟ وحتى لو رآه أركادي للامه أشد اللوم . وانبعثت
من عيني نيقولا بتروفيتش ، عيني رجل في سن الرابعة والأربعين ، رجل
يملك مقاطعة وبيتاً ، دموع لم تستدر ، أخذت تنهمر ببطء . إن هذا
لأسوأ الف مرة من العزف على الكمان الكبير (الجلو) .

واستمر يذرع الحديقة دون أن يفكر في دخول الملجأ الآمن
الذي كان يرحب به ، ذلك الذي كان يغريه بنوافذه المرحية ، بأن يترك
ظلام الحديقة ويتخلص من قرص الهواء البارد يلفح وجهه ، ويطرح
عنه أثقالاً من الحزن والقلق . والتقى بيول بتروفيتش عند منعطف ،
فسأله الأخير : « ماذا دهاك ؟ إنك تبدو شاحباً كشيخ . أنت مريض ؟
ولماذا لم تذهب الى الفراش ؟ »

فأوضح له نيقولاى بكلمات قليلة حالته العقلية ، ثم توجه الى
البيت . ومشى بول بتروفيتش في الجهة المعاكسة من الحديقة ، كان
كلاهما يتأمل السماء ويذرعها بنظراته . أجل ليس في السماء غير انعكاس
ضوء النجوم . عيون جميلة ولا شيء يرى في الظلام . إنه ليس خالياً
بطبيعته ، وان روحه الجافة المتفرنسة ، غير المحبة للبشر ، لا تستطيع
أن تبني العلامي والقصور في الهواء .

وفي نفس تلك الليلة قال بزاروف لأركادي : « سأفاتحك باقتراح
مدهش طرق خاطري . تذكر أن أباك قال اليوم بأن أحد أقاربك
الأشراف قد أرسل دعوة لا تريدون تلبيتها . حسناً . كيف ترى أن
تقبلها أنا وأنت ؟ لقد تحسن الجو ، وهذه فرصة للسفر في العربة ورؤية
المدينة . وبهذا يتاح لنا أن نكتسب بضعة أيام لا يكدرها علينا مكدر ،
ولا يعترض حوارنا خلالها مقاطع . »

« وهل ستعود بعدها إلينا ؟ »

« لا بل سأذهب لرؤية أبي . أنت تعلم أنه يسكن على بعد ثلاثين

فرسحاً ، وقد مر وقت طويل منذ رأيته آخر مرة ، وكذلك أمي .
وعلاوة على ذلك فإن الشيوخ في حاجة الى أن يسروا قليلاً ، فهم قد
أحسنوا معاملتي وخصراً أبي ، وأنا وحيدهم . »

« وهل ستبقى طويلاً ؟ »

« لا . إن البقاء هنالك شيء متعب »

« إذن فزرنا مرة أخرى وأنت في طريق العودة . »

« سأفعل إذا أمكن ذلك . إذن فستذهب ؟ أليس كذلك ؟ »

فأجاب أركادي دون مبالاة : « إذا كان ذلك يسرك . »

والحقيقة أنه سر باقتراح بزاروف ، وكانت رغبته في المحافظة على

نيهليستيته هي التي منعه من إبداء سروره . وهكذا انطلق الاثنان في
الغداة الى المدينة ، مودعين بالأسى من جميع شبان مارينو ، وكادت
دنياشا أن تبكي . أما السيدان فهما وحدهما اللذان تنفسا الصعداء .

الفصل الثاني عشر

تقع المدينة التي توجه نحوها الصديقان تحت حكم أحد أولئك المتقدمين الشبان من حكام الأقاليم المطلقى السلطة ، أولئك الذين سببوا الحن لروسيا مراراً كثيرة . ونجح هذا العاهل في أوائل حكمه بصورة خاصة ، في إثارة الشحنة ، لا مع رئيس الأشراف الاقليمي — الذي كان ضابطاً متقاعداً ومزارعاً مضافاً يربي الخيل — فحسب ، بل مع موظفيه الذين هم تحت إمرته . وكانت النتيجة أن بلغ الاضطراب في أيام قصتنا هذه درجة جعلت السلطة المركزية ترى من الضروري أن ترسل من تثق به من القميسارية لاجراء التفتيش . وقد وقع اختيار الحكومة على ماتفي اليبيتش كولياجن ، فانتدبته لهذه الغاية . وهذا هو ابن كولياجن الذي كان وصياً على الأخوين كيرسانوف . وهو شاب أيضاً ، أي أنه قد تعدى الأربعين قليلاً ، ولكنه في طريقه الى أن يكون رجلاً من رجال الدولة . وكان صدره ممتلئاً بالأوسمة ، بينها واحد على الأقل من حكومة أجنبية غير مهمة . وهو أيضاً ، كالحاكم الذي أتى لتفتيشه ، يعتبر تقديمياً ، ويتباهى كثيراً بنفسه . ومع ذلك فلم يسمح

لكبريائه التي لا تحد ، ان تخرجه من حبه للبساطة المنكفة ، والطبع
المرح ، أو من أن يصغي بسرور الى كل ما يقال له ، أو من إطلاق ضحكة
مرحة ، تجعله يحسب لأول وهلة « رجلاً طيباً لا بأس به » حقاً إنه
ليستطيع في الظروف المهمة أن يثير العثير — إذا سمح لي بهذا التعبير
المبتذل — فن آرائه التي يكررها دائماً : « إن النشاط ضروري جداً
لرجل الدولة » ورغم كل ذلك فكثيرون أولئك الذين يعتبرونه مخبولاً .
أما الموظفون المخسكون فلا يعبأون به ولا بآرائه قط . بل انهم يديرونه
باصبعهم كما يريدون .

وثمة أشياء أخرى يتصف بها ، هو أنه قد اعتاد أن يذكر كيزو (١)
بغاية الاحترام . وبذلك يحاول أن يوحى الى غيره بأنه ليس على شاكلة
سواء من الحكام المستبدين ، من العسكريين المتقاعدين . بل هو رجل
يهتم بكل ما ينتاب المجتمع من أحداث وتطورات . وكانت هذه التعابير في
الحقيقة على رأس لسانه دائماً ، وهو يتتبع الآداب المعاصرة ، ولو أنه
لا يتباهى بذلك . وأخيراً فليس من المستبعد أن تجد هذا الانسان يحذو
حذو أولئك الذين ينضمون الى صف من تلاميذ المدارس ، يسير في
الشارع ، دون أن يراعي كبر سنه وكثرة تجاربه . وبالاختصار فإن
ظروف ماتفي وزمنه هي التي ميزته عن سياسي عهد الملك الاسكندر ،

(١) فرانسوا بيركيلوم كيزو (١٧٨٧—١٨٧٤) السفير والوزير
الفرنسي العظيم وهو أديب مثقف أيضاً .

أولئك الذين كانوا يقرأون بضع صفحات من مؤلفات كوندياك^(١) قبل أن يذهبوا الى صالون مدام سفيدجين^(٢) التي كانت تقيم في سنت بترسبورج . ومع أن ماتفي كان نديماً لبقاً ، فقد كان منافقاً أيضاً ، إذ هو يهتم بمصالحه ، ويفضلها على مصالح الآخرين ، ولا عبرة في أن تكون هذه الصفة من ضرورات النجاح في الحياة . لقد كان بكل أوصافه الرسمية عديم الذوق تماماً .

رحب هذا الرجل بأركادي عندما قدم مع صديقه تلمية للدعوة التي نحن بصدددها . فعل ذلك بكل ماعرف عنه من مسرح ومجاملة ، وسرعان ما اكتأب لما علم أن الأقرباء الآخرين فضلوا البقاء في الريف . فقال ملاحظاً وهو يداعب أزرار سترته القطيفية : « إن أباك إنسان شاذ أبدأ » قال هذا والتفت الى موظف صغير يرتدي سترّة مزررة حتى العنق ، وسأله « بنزق ماذا تريد؟ » واعتدل الموظف المسكين عند تلك الجملة ونظر الى رئيسه خائفاً ، وكانت شفتاه مطبقتين كأنهما قد ختمتا بالصمغ الى الأبد ، بسبب ما اعتاده من عدم الاباحة بمايكمه . وكان ماتفي يحب هذا الخموع في أتباعه ، فهذا الرجل العظيم يحترق أمثال تلك المخلوقات

(١) اتين بونودي مابلي دي كوندياك (١٧١٥—١٧٨٠) فيلسوف

فرنسي يضع المعارف على أساس الحواس الخمس .

(٢) مدام سفيدجين (١٧٨٢—١٨٥٧) زوجة الجزال الروسي

سفيدجين ، وقد ظلت أكثر من أربعين سنة معروفة بصالونها الشهير .

الحقيرة . وبهذه المناسبة أحب أن أذكر أن أمثال هذا الخنوع في الاتباع أمر يرغب فيه كثيراً أمثال هؤلاء الرجال العظام . وأكثرهم يخلقه خلقاً في أتباعه ، فهو في نظرهم شيء محبوب كما يقول الانكليز . إن رجلاً من هؤلاء العظام قد يتوقف ذهنه فجأة عن إدراك أبسط المعاني ، ويكتفي هيئة غباوة عميقة ، فتراه يسأل عن اليوم مثلاً ، فيجاب على ذلك باحترام عظيم ، وبكلام متلجلج بأن اليوم هو الجمعة مثلاً .

فيزجر الرجل العظيم مجيباً كمن أجبر على أن يفتح أذنيه الى أقصى حد
« ماذا ؟ »

« أ .. إنه يوم أجم . جمعة يا صاحب الفخامة . »

« ها . ماذا . جمعة ؟ ماذا تعني بالجمعة ؟ »

« يا صاحب الفخامة . الجمعة هو يوم يوم في الاسبوع . »

« هيا هيا لا حاجة لكل هذه الأثرثرة لتخبرني بذلك . »

إن ماتفي ايلييتش هو واحد من هؤلاء الرجال العظام ، رغم أنه يسمي نفسه حراً تقديمياً .

وعاد يقول لأركادي : « يا صديقي الطبيب أنصحك أن تذهب لزيارة الحاكم ، ومن الطبيعي أن تدرك بأنني لا أنصحك بأن تقوم بمثل هذه الاجراءات لأجند قبول الآراء الضيقة في تملق ذوي السلطان ، بل لأن الحاكم رجل طيب ، وأراك تريد أن ترى شيئاً من المجتمع ، لأنك لست ديباً كما أظن . لا . حسناً . إن الحاكم سيقدم حفلة راقصة بعد غد . »

فسأله أركادي : « وهل أنت من المدعوين ؟ »

فأجاب مصطنعاً هيئة المشفق على جهل مخاطبه : « طبعاً . لقد أقيمت
على شرفي . إنك ترقص كما أظن ؟ »

« أجل . ولو أنني لا أحسن ذلك كثيراً . »

« أمر يؤسف له . يوجد هنا عدد كبير من المجتمعات الراقية . ولا
يليق بمثلك أن يجهد الرقص . واكرر قولي إني لا أقول ذلك إحتراماً
للآراء العتيقة ، ولا لأنني أعتقد بأن مهارة الإنسان في قدميه . ولكن
البايرونين أناس مضحكون . هذا هو وقتكم » قال العبارة الأخيرة
بالفرنسية .

« ولكنني لست من أتباع المذهب البايروني ، ولا ... »

« حسناً حسناً . سأقدمك الى بعض السيدات ، وسأحملك تحت

جناحي . » قال هذا وابتسم ابتسامة الواثق من نفسه .

« حقاً ستعطي وقناً طيباً هنا . »

وعندها دخل خادم فأعلن وصول ممثل الحزينة المحلية . وكان هذا
رجلاً مجرباً لطيف العينين ، تحيط بقمه انتجاعيد ، وهو من عشاق
جمال الطبيعة ، فقد اعتاد ، في أيام الصيف بصورة خاصة ، ملاحظات تشير
لذلك ، كأن يقول : « إن كل نحلة تمتص نصيبها من الرحيق في كل
زهرة . » وبذلك وجد أركادي فرصة للانصراف .

والتقى بزاروف في الاوتيل الذي نزله الاثنان . ووجد صعوبة
عظيمة في إغرائه بزيارة الحاكم ، التي اقترحت عليه .

وقال بزاروف أخيراً : « حسناً . حسناً . أنا الذي وضعت يدي على

جبل الجبر ، إذن فأنا الذي يجب أن أتحمل ثقله ، ومادونا هنا لنرض
فحص أشرف المكان ، إذن فلنذهب ونفحصهم . »

واستقبل الحاكم الشاين استقبالا حسناً ، ولكنه لم يامرهما بالجلوس ،
ولا جلس هو نفسه . وكان رجلاً عجولاً ذا راحة تنة . إعتاد أن
يرتدي لباساً ضيقاً ، وياقة عالية كل صباح ، ثم يعطي لنفسه هيئة الأمر
الناهي ، حتى أن ذلك يشغله عن إتمام أكلة الصباح كل يوم . وهو
معروف في كل الأقليم باسم بوردالو وليس ذلك عن شبه بينه وبين
الواعظ الفرنسي الشهير ^(١) بل نسبة لراحة البوردا ، الكحول الخمر .
وبعد أن دعا أركادي و بزاروف الى الحفل الراقص ، أعاد هذه الدعوة
بعد دقيقتين ، كأنه لم يفعل ذلك قبلاً . وكذلك أخطأ في حسابان الاثنين
أخوين ، فكان يحاط بهما بقوله : أيها السيدان كيساروف .

وبينما كان الصديقان عائدتين الى نزلهما ، قفز رجل صغير يرتدي
لباساً سلافونياً ، من مركبة مارة ، ونادى صائحاً : « ايناجني فاسيلييتش »
وهجم على بزاروف .

فنظر اليه بزاروف وقال دون أن يخفف من سرعة سيره على الرصيف :
« أهذا أنت يا هرسيتنيكوف ؟ أي ربح ساقطت الى هنا ؟ » فأجاب بعد
أن التفت الى العربة وأشار الى السائق أن يتبعه : « صدقة فقط . تراني

(١) لويس بوردالو (١٦٣٢—١٧٠٤) أستاذ في كلية الجزويت

في بودج .

قد أتيت لأن أبي يعمل هنا ، وقد دعاني لزيارته » وقطع عبارته بأن قفز فوق مجرى الماء ، « لما علمت بقدومك أردت أن أزورك حيث نزلت . » وكان صادقاً في قوله إذ أن الصديقين ، لما وصلا الى الفندق بعد ذلك ، وجدا بطاقة سيتنيكوف المقصودة الأركان ، وقد خط اسمه على جانب منها بالاسلوب الفرنسي ، وعلى الجانب الآخر بالاسلوب السلافي .

وعاد الرجل الصغير يقول : « أظنكما عائدتين من زيارة الحاكم ؟ إني أتعشم ألا يكون الأمر كذلك . »

« لقد خاب أملك . نحن عائدان من عنده توأ . »

« إذن فأننا ملزم أن أقوم بواجبي نحوه مع الأسف . ولكن قدمني الى صديقك أولاً . »

فردد بزاروف دون أن يقطع سيره : « سيتنيكوف - كيرسانوف » وأسرع سيتنيكوف يقول : « مسرور برؤياك » وذلك بعد أن خطا الى الوراء واعتدل وأسرع بنزع قفازه الأبيض جداً . « لقد سمعت شيئاً كثيراً عنك يا مسيو كيرسانوف . وأنا أيضاً من أصدقاء ايفاجني القدماء . وأستطيع أن أقول بأني تلميذ قديم من تلاميذه ، فعن طريقه بعثت من جديد . »

ونظر أركادي الى تلميذ بزاروف فوجد مزيجاً من الانفعال والغباوة مدبوعاً على وجهه الصغير اللطيف . وكانت عيناه اللتان تلوحان لصغرهما كأنهما قد عصرتا ، ترسلان نظرات قلقة ، وكذلك ضحكته ، فقد كانت قصيرة جافة تدل على القلق .

وعاد سيتنيكوف يقول : « أتدري أنه لما قال لي ايفاجنى أول مرة
بأننا يجب أن نتجاهل كل القوى والآراء المسلم بها أظهرت سروراً عظيماً ،
وشعرت بأنني قد انضجت فجأة ، وقلت انفسى أخيراً ، أحقاً وجدت الرجل
الذي أأتم به ؟ وبهذه المناسبة عليك أن تأتي يا ايفاجنى فاسليتس لرؤية
سيدة من معارفي ، تفوق كل الاخريات ، وهي التي ستفهمك فهماً
صحيحاً ، وستبر مرآك حظاً سعيداً ، ربما كنت قد سمعت بها قبلاً ؟ »
فقال بزاروف مشمراً : « لا . ومن هي ؟ »

« مادام كوكشين . السيدة . ويجب أن أقول ايفادوكسيا كوفشكين ،
وهي ليست امرأة ممتازة ذات ذكاء ، وثقافة فحسب ، بل هي من أتباع مذهب
تحرير الفلاحين أيضاً ، وهي تقدمية بكل ما في الكلمة من معنى . ماراً يكمن أن
نذهب نحن الثلاثة لرؤيتها ؟ إنها تسكن على بعد خطوتين ، وستدعونا
للغداء . إنكما لم تتناولوا غداء كما حتى الآن كما أظن ؟ »
« لا . لم تفعل بعد . »

« إذن فهذا الاقتراح يوافقكما . وبهذه المناسبة أخبركما بأنها امرأة
مستقلة ، هي متزوجة قد افترقت عن زوجها . »

فتساءل بزاروف : « وهل هي جميلة ؟ »

« لـ لا ليس في استطاعة الانسان أن يسميها كذلك تماماً . »

« إذن فلماذا تريد منا أن نذهب لرؤيتها ؟ »

« آه . إنك تعود الى المزاح . ولكن تذكر أنها ستقدم لنا زجاجة

من الشامبين . »

« آه . إن الانسان ليرى أي رجل عملي أنت . وبهذه المناسبة ألا زالك
أبوك يعمل في تجارة الخمور ؟ »

فتهقه سيتنيكوف وقال . « نعم . ولكن أسنذهب ؟ »

« لا أستطيع أن أقرر ذلك . »

وهنا تدخل أركادي بقوله : « لقد أتينا لدراسة الشعب هنا . إذن

فدعنا ندرسه . »

فتنى سيتنيكوف بقوله : « هذا صحيح . ستأتي طبعاً أيها السيد

كيرسانوف . إنما لا نستطيع أن نمضي بدونك . »

« ماذا . أنزل على رأسها كلنا مرة واحدة . »

« ماذا يهم . إنها نفسها امرأة شاذة ، بل هي حجارة صلبة . »

« وتقول إنها ستقدم لنا زجاجة من الشامبين ؟ »

فأكد سيتنيكوف : « أجل ، وربما زجاجة لكل منا . إنني أضمن

ذلك وأراهن عليه . »

« تراهن عليه بماذا ؟ »

« برأسي . »

« كيف نقودك أحسن ، فسر أماننا . »

الفصل الثالث عشر

كانت الفيلا التي تسكنها أدوشيا ، أو أيدوكسيا نيكيتشنا من النوع الشائع في موسكو ، وتقع في شارع من شوارع المدينة قد احترق حديثاً . فمن المعلوم أنه لا تكاد تنقضي خمس سنين حتى تحترق عاصمة من عواصم أقاليمنا وتأتي النار عليها . كان بجانب الباب مدقة جرس قد علقت فوقها بطاقة زيارة ملتوية ، واستقبلتهم في باحة المنزل سيدة ، هي ليست بخادمة ولا مرافقة لسيدة الدار ، تلبس فوق رأسها طاقية اعتيادية . وليس من الصعب أن نستنتج من هاتين العلامتين ، السيدة المرافقة ، ومدقة الجرس ، دليلاً واضحاً على وجهة نظر صاحبة الدار التقدمية .

وعندما سأل سيتنيكوف عما إذا كانت أدوشيا في المنزل ، أجابه صوت حاد من غرفة قريبة :

« أهو أنت يا فكتور ؟ أدخل من فضلك . »

واخفت السيدة ذات الطاقية حالاً .

وأجاب سيتنيكوف وهو يلقي نظرة تساؤل على بزاروف وأركادي :

« لم آت وحدي » ونزع عنه معطفه ، فكشف عن نوع من السترة

الوطنية تشبه الكيس .

وأجاب الصوت : « لا بأس » ثم بالفرنسية : « ادخلوا من فضلكم »
وصدع الرجال بالأمر ، ووجدوا أنفسهم في غرفة تشبه صالوناً .
فقد تراكت فوق الماضد أوراق ورسائل ومجلات روسية بغير نظام ،
وأغلب المجلات لم تفتح بعد . وانتشرت فوق البساط أعقاب السكاير ،
وفوق أريكة ذات أحشية من الجلد ، سيدة صغيرة ذات شعر جعد ،
ترتدي معطفاً حريراً غير مزخرف ، وقد اتسكت قليلاً في وضع
استراحة . وكان حول معصمها الغليظين زوج من الأساور الواسعة الثقيلة ،
وفوق رأسها كوفية ذات حواشي مزخرفة .

نهضت السيدة بعد أن سحبت فوق كتفها رداءً من القطيفة ذا حواشي
من فرو الأرمن فاتح اللون ، وقالت بكسل : « يوم طيب يا فكتور »
ثم ضغطت على يده .

فقال هذا من بلد ألهمجة بزاروف في التعريف : « بزاروف — كيرسانوف . »
فأجابت بقولها : « كيف جالكما ؟ » ثم أضافت وهي توجه إلى
بزاروف عينيْن كبيرتين ، يتألق بينهما أنف صغير أحمر مرتفع الأرنبة .
« لقد تعرفت بك قبلاً . » ثم ضغطت على يده كما فعلت بسينيتيكوف .

وتجهم بزاروف . فليس في وجه هذه السيدة المتحررة الصريح
ما يصد المرء ، ولكن ثمة شيئاً في هيئتها يجعل الناظر اليها غير مرتاح ،
شيئاً قد يبعثه إلى أن يسألها . « أنت جائعة أم منهوكة ، أم خبلة ؟ وعلى
كل حال ما الذي يقلبك ؟ »

وكانت ، مثل سيتنيكوف ، تضرب الهواء بمخالبها حينما تتكلم ، وكل كلمة من كلماتها ، بل وكل إشارة من إشاراتها تظهر إمارات عدم السيطرة على النفس . بل قد تصل بها في بعض الأحيان الى حد الفهاة . وبالاختصار فقد كانت كصاحبها تنصور نفسها امرأة بسيطة طيبة القلب ، غير أن صفاتها وتصرفاتها كانت تدل على التكلف الصريح . فمن يراها يدرك فوراً بأن أفعالها متعمدة ، وأن كل ما تقوم به تتعمده ، كما يقول الأطفال ، أي أنه لا يدل على البساطة ، وغير طبيعي ، وكررت قولها : « أجل إني أعرفك يا بزاروف . » وكانت ، شأن السيدات العصريات في موسكو والأقاليم ، قد اعتادت أن تنادي الرجال بأسمائهم المجردة عند اللقاء الأول ، وتلك عادة شائعة « هل لك بسيكار ؟ »

فاعترض سيتنيكوف الذي كان قد رمى نفسه بين ذراعي إحدى الكراسي ولف ساقاً بساق : « إني أشكر . إعطنا بعض الغذاء أيضاً . إنا جائعون كالوحوش الكاسرة . وتكرمي علينا بزجاجة من الشامبين أيضاً . »

فصاحت ايفدوكسيا مبتسمة ، وكانت أنيابها العليا تبدو للناظر كلما ابتسمت : « أنت سييري . أليس هو كذلك يا بزاروف ؟ » فاعترض سيتنيكوف بقوله : « لا . ولكني أحب متع الحياة فقط ، ولا ينعني مطلقاً من أن أكون متحرراً . »

فصاحت ايفدوكسيا : « بل يمنعك . » ثم أمرت خادمها بأعداد الغذاء والشامبين ، والتفتت الى بزاروف وقالت : « ما رأيك في هذه

القضية ؟ إني أشعر بأنك تشاركني في رأيي . »

فأجاب : « لا لست معك بل بالعكس ، إني أرى ، حتى من الوجهة الكيميائية ، أن قطعة من اللحم أحسن من قطعة من الخبز . »

فصاحت : « إذن فأنت تدرس الكيمياء ؟ إن الكيمياء هوايتي أيضاً .
لقد اخترعت مركباً . »

« مركباً ؟ أنت ؟ »

« أجل ، وخمن من فضلك منافعه . إنه يفيد في صنع العلب غير القابلة للكسر ، ولصناديق الغلايين . إذن فأنت ترى بأنني مثلك ذات عقلية عملية ، ولكنني لم أكمل دراستي حتى الآن . لقد بقي عليّ أن أقرأ لبيك . وبهذه المناسبة هل قرأت مقالاً عن إنتاج المرأة ، في جريدة موسكو ؟ بقلم الكاتب كزلياكوف ؟ إذا كنت لم تقرأها فاقراها ، لأنني أظنك تهتم بقضية المرأة ، وبقضية التعليم أيضاً . ولكن ما هو عمل صديقك ؟ وبهذه المناسبة ما اسمه ؟ »

وكانت أسئلة مادام كوشكين هذه تلقى واحداً بعد آخر دون انتظار جواب ، بلهجة ودودة بسيطة ، كما يفعل الطفل المدلل حينما يراكم الأسئلة المربكة على مربيته .

فأجاب أركادي عن نفسه : « إسمي أركادي نيقولايفتش كيرسانوف . ولا أعمل شيئاً قط . »

فتلثمت ايندوكسيا وصاحت : « ما أجمل ذلك . إنك لاتعمل شيئاً . ماذا ألا تدخن ! أتعلم يا فيكتور بأنني غاضبة عليك ؟ »

فتساءل سيتنيكوف : « ولماذا ؟ »

« لأنني سمعت بأنك تمتدح جورج صاند مرة أخرى ، هذه المرأة اللعوب . كيف يسوغ لأى إنسان أن يضعها في صف أمرسن مثلاً ، هذه المرأة التي ليس لها أي رأي في التعليم أو الفزجة أو أي شيء آخر . اني أعتقد بأنها لم تسمع قط بعلم الأجنة . وهل باستطاعة الانسان أن يستغني عن ذلك في مثل هذا العصر ؟ » ولوحت المتكلمة بذراعها للتأثير « ولكن أي مقال بديع حبره يراع ايليزافيتش ؟ إنه في الحقيقة سيد موهوب . » وكانت تلك عادة أخرى لايفدوكسيا ، عادة استعمال كلمة السيد بدل الرجل بصورة دائمة « يا بزاروف أرجوك أن تجلس بجاني على الأريكة . قد لا تعلم بأنني خائفة منك ؟ »

« ولماذا أنت خائفة مني إذا سمحت لي بارتضاء فضولي ؟ »

« لأنك سيد خطر . إنك نقاد لاذع . يا لله إنني أتكلم بحضورك كما تتكلم ربة بيت في مجاهل السهوب . ولكني سيدة بيت فعلاً . إذ مع كوني أستخدم وكيلًا وطنياً اسمه ايروفي (وهو شخص ممتاز من نوع أبطال كوبر في قصصه عن الأدلاء ، مع قليل من الثقة بالنفس » فاني قد جمعت في يدي أعنة الإدارة . ولكن كم تثقل عليّ هذه المدينة ! أجل ورغم ذلك قد جعلتها مقري ، إذ لا مناص من ذلك . »

فلاحظ بزاروف دون اهتمام « هذه المدينة كبقية المدن . »

فعادت ايفدوكسيا تقول : « إن ملاحيا حقيرة . وهذا ما يزعجني . لقد كنت أقضي الشتاء في موسكو ، ولكن المسيو كوكشين الطيب يسكن

هناك وحده الآن ، وموسكو نفسها قد تغيرت ، ولهذا فأنا أستعد كل
هذه السنة للتهيؤ لرحلة خارجية . »

« ستذهبن الى باريس على ما أظن . »

« نعم ومنها الى هيدلبرج »

« ولماذا الى هيدلبرج ؟ »

« كيف تسأل ذلك ؟ إن منزل الهر بنزن ^(١) العظيم هناك . »

ولم يستطع بزاروف أن يختار جواباً مناسباً

وعادت تقول : « هل تعرف بير سابوشنيكوف ؟ »

« لا . لا أعرفه . »

« إنك تجده دائماً في صالون ليديا خيستاتوف . »

« ولا أعرف هذا أيضاً . »

« حسناً : إن سابوشنيكوف سيكون حارسي في هذه الرحلة . لأنني

أملك حريقتي على الأقل . وليس لي أطفال ولله الحمد ، ماذا قلت . لله الحمد ؟

لا يهم ذلك . ولست أدري لماذا أقولها . »

وافقت ايندوكسيا سيكارا بين أصابعها المصبوغة بالنيكوتين ، وبللتها

بلسانها لتاصقها ، ثم وضعتها بين شفتيها وأولمت ثقاباً ، ودخل الخادم

يحمل صينية .

(١) روبرت ويليم بنزن (١٨١١ — ١٨٩٩) كيميائي وطبيب

عالم هو مخترع مصباح بنزن والضوء المغناطيسي ومبتكر طريقة التحليل

الطيفي بالاشتراك مع كيرجوف .

« آه . لقد أتى الغداء . هل لكم بيمض الأكل . وأرجوك يا فيكتور
أن تقض ختم الزجاجة فهذا من اختصاصك . »
فهمهم : « إختصاصي ؟ أجل إختصاصي » وأطلق ضحكة
من ضحكاته .

وتساءل بزاروف بعد كأسه الثالثة : « ألا يوجد نساء جميلات في
هذه المدينة ؟ »

فأجابت ايفدوكسيا : « أجل . ولكنهن عديمات النفع ، فارغات
العقول ، وعلى نسق واحد . خذ مثلاً إحدى صديقاتي مدام اودينتسوف .
فهي ليست قبيحة ولا شيء ، تأخذه عليها سوى سمعة مريية ، شيء ، لا أهمية
له بحمد ذاته ، ولكنها مع الأسف غير مستقلة في رأيها ولا ثقافة عميقة لها .
إن الطريقة في تقويم النساء عندنا تحتاج الى تغيير جذري ، وأنا نفسي
قد فكرت بالأمر كثيراً ، وقد توصلت الى نتيجة أن المرأة عندنا تعلم
تعلماً سيئاً . »

فوافق سيتنيكوف : « نعم كل ما يمكن أن تصنع مع المرأة هو أن
تحتقرها . وأنا أحتقر المرأة فعلاً . » وكان يلذه كثيراً أن ينتهز كل فرصة
يظهر بها إحتقاره لشيء ، أو فرجه بشيء ، وهو يختار المرأة دائماً هدفاً
للإجرام ، ولم يخطر بباله بأنه بعد بضعة أشهر سيقدّر له أن يتمرغ
على قدمي واحدة منهن ، وستكون زوجته ، وأنه سيفعل ذلك لسبب
واحد ، هو أن تلك المرأة ولدت واسمها البرنسيصة دوردوليوسف .
وعاد يقول : « لا . لا واحدة منهن تستحق أن تنال حقاً في محادثتنا ولا

واحدة منهم تستحق إتباع الرجل المفكر الجدي . إنها لترى
جانباً باحتقار . »

فقال بزاروف ملاحظاً : « ولكن لا حاجة لنا مطلقاً لأن تهتم
واحدة منهم بحوارنا . »

فاعترضت ايفدوكسيا بقولها : « ماذا تعني ؟ »

« النساء الجميلات الماهرات . »

« ماذا ؟ أرى أنك تتفق مع برودون ^(١) في هذا الأمر . »

فاعتدل بزاروف وقال ملاحظاً : « أنا لا أتفق مع أي رأي . إن
لي آراء خاصة . »

وصاح سيتنيكوف بالفرنسية وقد سرته تلك الفرصة غير المرتقبة ،
ليتظاهر أمام الرجل الذي يعبده : « فليسقط كل الثقة قاطبة »

فبدأت مدام كوكشين تقول : « ولكن حتى ما كولي ... »

فزأر سيتنيكوف مقاطعاً : « فليستط ما كولي أيضاً . كيف تستطيعين
دفاعاً عن هذه الدمي ؟ »

فقات مدام كوكشين : « أنا لا أدافع عنهم مطلقاً . إنني أدافع عن
حقوق المرأة . تلك الحقوق التي خلقت لأدافع عنها حتى آخر قطرة
من دماي . »

(١) بير جوزيف برودون (١٨٠٩ — ١٨٦٥) باحث فرنسي

من تعاليمه أن الفوضوية هي قمة كل تقدم اجتماعي .

فبدأ سيتنيكوف يقول : « فايسقط » ثم توقف وأضاف بصوت
واطيء : « إني لا أشجبهن »

« شجبتن لأنك سلافوفيلي كما أرى ذلك واضحاً . »

« بالعكس . إني لست سلافوفيلياً رغم أنني ... »

« بل أنت سلافوفيلي . أنت تؤمن بمساديء دي مونستروا (١) »

وتريد أن تحمل دائماً سوطاً بيدك تلذع به المرأة . »

فلاحظ بزاروف بقوله : « إن السوط ليس شيئاً قبيحاً إذا كان في

محلّه ولكن كما قد وصلنا إلى آخر قطرة من ... »

فقاطعته ايفدوكسيا : « آخر قطرة من ماذا ؟ »

« آخر قطرة من الشمبانزا أيتها المجلة ايفدوشيا نيكيشتنا »

لا من دمائك .. »

فقلت ايفدوكسيا : « لا أستطيع أن أبقى ساكنة غير مكترثة إذا

ما سمعت شتماً يوجه إلى بنات جنسي . إنه فطيع فطيع جداً فبدلاً من

أن تشتمونا عليكم أن تقرأوا مؤلف ميشيل عن الحب . ما أعظمه من

مؤلف . فلنتحدث عن الحب . »

ووضعت ذراعها برشاقة فوق أحشية الأريكة الساقطة من محلها .

وساد سكون فجائي .

(١) مؤلف غريب يرجع إلى القرن السادس عشر يسند عادة إلى

القسيس سلفستر فخواه كيفية إدارة البيت وهو يعطي صورة فطبعة

لسيطرة الزوج الروسي القديم على زوجته .

وأخيراً قال بزاروف : « ماذا عندنا لنقول عن الحب ؟ لقد ذكرت في السياق سيدة اسمها مدام اودينتسوف ، على ما أظن ، فمن هي ؟ »
 فأجاب سيتنيكوف بصوت موصول : « امرأة ساحرة جداً ، وماهرة أيضاً ، وهي أرملة غنية . ومن المؤسف أنها غير متطورة ، وهي ، إذا ما زادت صلتها بصديقتها ايفدوكسيا ، فستكون لها دنياً من الحيرات . إنني أشرب نخب صحة ايفدوكسيا . دعونا نقرع الكؤوس ونغني :
 اى توك اى تن تن تن . اى توك اى توك اى تن تن تن . »
 « لقد بدأت تهذي يا فكتور . »

استمر الغداء مدة طويلة وتبعته الزجاجة الأولى ثانية وثالثة ورابعة أيضاً . وكانت ايفدوكسيا لا تنقطع عن الثثرة ، فكانت هي الأولى وسيتنيكوف ثانياً . وقد تحدث الاثنان ، بصورة خاصة ، عن الزواج وسميائه نتائج التعصب والريزية ، وعن ولادة الانسان متساوياً مع غيره بالحقوق ، وعن مكونات الشخصية . ثم جلست ايفدوكسيا الى البيان وبدأت تعزف بعد أن احمر وجهها من تأثير الشراب ، فحركت أصابع يدها المنبسطة على المفاتيح ، وأخرجت أنغاماً بحجة . وعزفت أولاً انشودة غجرية ثم قطعة « سيمور سكيف الغنائية » و « نامت غرناطة الحاملة » بينما رمى سيتنيكوف غطاءً فوق رأسه ليمثل الحبيب الميت ورافقها في هذا المقطع من القصيدة « والتصقت شفاهنا الملتهبة في قبلة لذيدة مرتقبة . »
 وأخيراً نفذ صبر أركادي فقال متذمراً : « أيها السادة هذا مستشقى مجازيب ليس غير . »

أما بزاروف فما كان يفعل سوى أن يطلق كلمة سخرية بين حين وآخر ، وكان منصرفاً الى الشمبانزا . وأخيراً نهض مع أركادي وغادرا المنزل دون كلمة ، حتى لوداع المضيفة ، وتبعهما سيتنيكوف .

وقال الأخير وهو يقفز عن يمينهم ويسارهم : « ما رأيكما بها ؟ آه ها . ألم أقل لكما إنها شخصية ممتازة ؟ ليت كل نساءنا مثلها ! إنها ذات أطوار خاصة . فيها لها من ظاهرة أدبية عالية . »

فقال بزاروف ملاحظاً وهو يشير الى حانة مرا بها : « ومؤسسة أجدادك هذه ؟ أهي أيضاً ظاهرة أدبية ؟ »

فأطلق سيتنيكوف قرقرة أخرى من قرقراته الحادة ، ولكنه خجل من وضاعة أصله ، وظل حائراً لا يدري أيعتبر ذلك المزاح ، غير المنتظر ، من بزاروف ، ملاطفة أم تحقيراً .

لويس ميشال (١٨٣٠ — ١٩٠٦) فوضوي فرنسي عاش في لندن مدة طويلة .

الفصل الرابع عشر

بعد بضعة أيام أقيمت الحفلة الراقصة في دار الحاكم ، وكان ماتفي ايلييتش ضيف الشرف فيها . أما تقيب الأشراف الذي كان في حرب مع الحاكم ، فقد صرح علناً ، ولكل فرد من الحاضرين ، بأنه لا يليق بماتفي ايلييتش أن يتكرم بقبول الدعوة . أما الحاكم فقد دأب كعادته ، قاعداً أو واقفاً ، على إعطاء سلسلة من الأوامر . وكان سلوك ماتفي اللطيف مما يتناسب مع عظمته . فقد كان يتسم لكل فرد ، فلبعض بغطرسة وكبرياء ، وللبعض بشيء من الاحترام ، أما للسيدات فقد كان ينحني ويتلوى على طريقة الفارس الفرنسي الحق ، ثم يضحك ضحكة رائعة صافية تليق بالأمراء . وكان يرت على كتف أركادي ويدعوه بصوت عال بـ ابن أخيه ، ويكرم بزاروف الذي حشر نفسه في لباس سهرة ضيق قديم ذي ذيل طويل بصعوبة كلية . وبمزيج من ترفع كثير وتواضع قليل ، كان ينظر الى المدعوين نظرات فاحصة بجاني عينيه . ويشتم عبارات مجاملة مبهمة لا يستبان منها إلا تنف من الألفاظ ، مثل أنا ونعم وجداً . وأخيراً قدم لسيتنيكوف طرف إصبعه ، مصحوباً بابتسامة ،

وأدار وجهه بنفس اللحظة . وأسبغ على مدام كوكشين كلمة فنانة ، وكانت هذه قد ارتدت لباساً خشناً ، وياقة صلبة ، وقفازين قذرين . وشكت في شعرها دبوساً على شكل طير الجنة . كان المدعوون عدداً كبيراً ، ولم يقصر الرجال في تكريم النساء ، حقاً إن أغلب المدعويين قد حثروا حذاء الحائط ، ولكن العسكريين كانوا يرقصون بحماسة ، وخصوصاً ضابطاً قدم حديثاً من سفرة ستة أسابيع قضاها في باريس ، حيث تعلم الكلمات البذيئة المستعملة في أحياء باريس المنحلة ، مثل : زوت ، آه فيشتور ، وبست بست ياطفلي ، وأمثالها ، يستعمل هذه الألفاظ المضحكة في مواضع إبداء العطف ، بلهجة متشرد باريس صميم . وكان يستعمل عدة كلمات فرنسية في غير معناها . وبالاختصار كان هذا الضابط يرطن رطانة روسية فرنسية بشكل يجعل الفرنسي يضحك ويتندر . ولا يتردد ، اذا ما رأى كلامه لا يخرج عن حدود الأدب ، عن مصارحة أصدقائه الروس ، بأن الروسي يتكلم اللغة الفرنسية كما تتكلمها الملائكة .

وقد كان أركادي كما علمنا راقصاً غير ماهر ، وبزاروف لا يرقص أبداً ، ولذلك انفرد الاثنان في زاوية وانضم اليهما سيتنيكوف . ونظر سيتنيكوف حواليه بعد أن استعاد وجهه بسمة الاحتقار المعتادة ، وأطلق ملاحظات انتقادية جارحة ، وكانت ملاحظاته مرحة يستنبط منها مادة للسخرية المضحكة . ولكن سرعان ما تبدلت حاله ، فالتفت الى أركادي وقال وقد جده جده : « هي ذي مدام اودينتسوف . »

وتطلع أركادي فرأى في المدخل امرأة طويلة ملتفة برداء أسود .

فأذهلته فخامة عربتها بصورة خاصة ، والوضع الرشيق لذراعيها العاريتين بجانب قامتها المعتدلة . وتدلّت من شعرها البراق الى كتفيها المستديرين أزهار جميلة ، وأطلت من تحت جبينها المرتفع قليلاً ، عينا براقتان ، تبعث منهما نظرات هادئة غير حاملة بتبسمان ابتسامة محبوبة . لقد كان الوجه على العموم يحوي رقة ورحمة وقوة كامنة .

وسأله أركادي : « أتعرفها ؟ »

فأجاب سيتنيكوف : « معرفة صديق قريب . أأقدمك لها ؟ »

« أجل من فضلك ، ولكن انتظر حتى ختام هذه الرقصة . »

ولفت نظر بزاروف أيضاً منظر هذه السيدة فصاح : « ياله من

وجه ليس في الصالة شبيه له . »

وحالما انتهت الرقصة قاد سيتنيكوف أركادي الى مدام اودينتسوف .

ونظرت الأخيرة الى الأول مستغربة ، فهل يرجع استغرابها الى طريقة

سيتنيكوف الحالية من التكلف عند التعريف ؟ أم لأنه كان يتعثر

بكلماته ؟ وعلى كل حال فما كادت تسمع باسم عائلة أركادي حتى أبرق

وجها ، وتساءلت ما اذا كان هو ابن نيقولايتروفيتش ؟ فأجاب

أركادي : « أجل »

« إذن فقد كان لي شرف الالتقاء بأبيك مرتين ، وقد سمعت عنه

شيئاً كثيراً أيضاً ، واني مسرورة جداً بمعرفتك . »

وفي تلك اللحظة تقدم ضابط وطلب أن تسمح له بالرقصة التالية

فقبلت الطلب .

فصاح أركادي بلهجة احترام عظيم : « إذن فأنت ترقصين ؟ »
« أجل فما الذي يجعلك تعتقد بأنني لا أرقص ؟ أأبدو كبيرة
السن جداً ؟ »

« آه . لا مطلقاً ، ولكن ربما تسمحين لي برقصة مازوركا . »
فابتسمت مسرورة وقالت : « اذا شئت » ثم أخذت تنظر اليه نظرة
ترفع ، ولكنها أشبه بنظرة أخت كبيرة متزوجة الى أخيها الصغير جداً ،
ومع أنها لم تكن أكبر منه كثيراً ، إذ أدركت سن التاسعة والعشرين ،
فقد كان وجودها يشعره بأنه تلميذ مدرسة صغير . ويجعل الفرق في
السن بينهما يبدو أكثر مما هو . وتودد لها ماتفي ايلييتش مرة أخرى
بغطرسة ، مستعيناً بوضع كلمات ذليلة ، فابتعد أركادي قليلاً ، وظل ينظر
اليها ، ولم يرفع عينيه في الحقيقة عن شخص فانتته حتى انتهت الرقصة .
وكانت المحادثة بينها وبين المسكرم بتلك الدعوة مصحوبة بوضع حركات
من الرأس والعينين ، وأطلقت ضحكة خافتة مرتين . كان أنفها يميل الى
الكبر قليلاً كأنوف كل الروسيات ، وما كان في لون جلدها ما يعيبه ،
ومع ذلك فقد أيقن أركادي بأنه لم يصادف في حياته امرأة ذات شخصية
جذابة كهذه . لقد ظل صوتها يرت في اذنيه بصورة مستمرة او حتى
ملابسها كانت تظهر مختلفة عن ملابس غيرها من النساء . لقد كانت
الملابس فوق جسمها المتدل أكثر اتساقاً ، وقد كانت كل حركة من
حركاتها لطيفة غير متكلفة .

ولما عزفت الموسيقى آخر ألحان المازوركا ، وأخذ أركادي محله بجانب

شريكته ، واستعد أن يخوض معها في الحديث ، شعر بشيء من الخوف وبقى لشدة اضطرابه يسمح شعره بيده دون أن يجد كلمة يقولها . ورغم ذلك فلم يستمر هذا الحجل والاضطراب طويلاً . وسرعان ما سرى إليه هدوءها ، وخلال ربع ساعة حدثها عن أبيه وأمه وعمه وعن سنت بترسبورج وعن الريف . وبقيت تصغي له مسرورة ، وهي تفتح مروحتها وتقفلها بلطف . ولم يقطع أركادي ثرثته إلا عندما كان يتقدم منها بعض من يروم الرقص ، وقد فعل سيتنيكوف ذلك مرتين . وكانت كلما عادت الى محلها يجدها هادئة ، حتى أن صدرها لم يزد ولا خفقة واحدة ، فيبحث معها حديثاً جديداً ، وكان يشبع نظره بعينها اللطيفتين ، وجبينها الناصع وقوامها الرقيق ، وشخصيتها المهيبة ، وصفاتها العذبة . أما هي نفسها فقد تحدثت قليلاً . ولكن كل عبارة من عباراتها كانت تظهر علماً بالحياة ، مما يدل على أن هذه المرأة قد فكرت كثيراً وشعرت كثيراً .

وسأله : « من كان معك قبل أن يقدمك لي سيتنيكوف ؟ »
فصاح أركادي : « إذن فقد لحظت صديقي . أليس وجهه رائعاً ؟ ان اسمه بزاروف . »

ولما أتيت له فرصة التحدث عن صديقه أسهب كثيراً ، وتكلم بحمية شديدة دفعت مدام اودينتسوف الى أن تلتفت لتتأمل الى هذا الصديق ممعنة . ولكن سرعان ما اقتربت موسيقى المازوركا من نهايتها ، وشعر أركادي بكرهه لذلك النظام الذي سيحرمه من تلك الرفيقة التي

قضي معها ذلك الوقت الطيب . حقاً لقد شعر بأنه يعامل معاملة الصغير ،
وأن عليه أن يرضى ، ولكن مثل هذه الأمور لا تؤلم ذوي النفوس الفتيّة .
وانتهت الموسيقى بنغمة باّة .

وقالت مدام اودينتسوف : « شكراً » ثم نهضت وقالت : « لقد
وعدتني أن تأتي لزيارتي ، فأنت بصديقك معك . إذ أثرت فضولي
ورغبتني بمشاهدة هذا المتهور الى حد عدم الاعتقاد بشيء »
وتقدم الحاكم منها بهوراً ، وأعلنها بحلول موعد العشاء . فتناولت
ذراعه الممدودة اليها ، ثم التفتت وأومأت الى أركادي مبتسمة فانحنى لها
وظل يتبعها بأنظاره . ما أعدل قوامها تحت طيات رداءها الأسود ! وقال
لنفسه : « ستنساني قريباً » واجتاحت نفسه موجة من الذل ، ثم التحق
ببزاروف في ركنه .

فقال صديقه : « حسناً . هل تمتعت ؟ لقد قال لي رجل وآخر إن
السيدة التي أنت بصدددها — ولكنه أحق ، ما تظنها ؟ »
فأجاب أركادي . « إني لم آخذ عليها شيئاً . »
« هيا هيا أيها الصديق البريء . »
« على كل حال إن ما أخبرك به هذا المخبر لم ألاحظه أنا . إن السيدة
جميلة . ولكنها باردة جامدة . مثل . مثل . »

فقال بزاروف مستدلاً : « مثل بركة ساكنة . أجل كلنا نعرف مثل
هذا الشيء . إنك تقول إنها باردة ، ولكنها قضية ذوق ، فربما كنت
أنت كالثلج . »

فأجاب الآخر : « أجل إنني لكذلك ، ولكنني لا أستطيع أن أحكم على أمثالها . ومهما كان الأمر فقد رغبت أن تتعرف بك أيضاً وقد طلبت مني أن آخذك معي لزيارتها . »

« إنني أعرف جيداً كيف وصفتني لها وصفاً مثيراً ، ولك الحق أن تفعل . وسواء أكانت لبوءة هذا الاقليم ، او سيدة متحررة كالسيدة كوشكين ، فلها على الأقل كتمان لم أر لها مثيلاً منذ عدة أيام . »
فانكمش أركادي لتلك الفظاظه ، وأخذ يؤنب رفيقه ، كما اعتاد أن يفعل في مثل هذه الظروف ، على أمور لا علاقة لها بالموضوع ، لينفَس عن غيظه .

فسأل بصوت خافت : « لماذا تنكر على المرأة أن تكون حرة الفكر ؟ »
« لأنه يا سيدي العزيز ، وحسب اختباراتي في الحياة ، لا امرأة حرة الفكر . ، إلا إذا كانت غريبة عن بنات جنسها . »
وعندها انتهت الحادثة بانتهاء العشاء ، وانصرف الصديقان .

ولما تركا الغرفة تبعتهما مدام كوشكين هائجة الأعصاب ذليلة ، ومع ذلك فقد كانت عيناها تومضان ، وهي تبسم ابتسامة مدرك عارف .
ذلك أنها شعرت بأنها جريحة الشعور ، لأن الشابين لا يلتفتان إليها مطلقاً . ورغم ذلك فقد بقيت في المرقص بعد أن تركه أغلب المدعوين .
ولما دقت الساعة الرابعة صباحاً رقصت البولكا على الطريقة الفرنسية مع سيتنيكوف ، وبهذا المشهد المذهب انتهت الحفلة .

الفصل الخامس عشر

قال بزاروف لأركادي في اليوم التالي ، وهما يصعدان درج الفندق حيث تقيم مدام اودينتسوف : « فلنر الآن الى أية فصيلة تنتمي هذه المخلوقة الصغيرة ؟ إنني لأشم رائحة الفضيحة في الهواء . »

فانفجر أركادي يقول : « إنك تدهشني . هل أنت . أنت بزاروف تحمل هذه العقلية الضيقة عن الفضيلة التي ... »

فصاح بزاروف باحتقار : « مجنون ، ألا تعلم أننا نستعمل في جدلنا وفي تعريف الأشخاص ، عبارة غير لائق محل عبارة لائق ؟ ومهما كانت الحالة فاني لأشم رائحة الدرهم هنا . إنك نفسك قد أخبرتني بأن مدام اودينتسوف قد تزوجت زواجا غريباً . أليس كذلك ؟ أما أنا فأرى كل شيء في زواج رجل عجوز موسر ، إلا أن أراه غريباً ، ولا أرى فيه دليلاً على الحطة . حقاً إنني لأعير بعض الاشاعات الدائرة في المدينة قليلاً من الاهتمام ، ولكنني أفضل في النتيجة أن أعتمد أن لهذه الاشاعات أساساً صحيحاً ، كما يقول حاكنا المثقف . »

ولم يجب أركادي ، ولكنه نقر على باب شقة المدام ، ففتح الباب ،

وتلقاها خادم بيزة رسمية ، ورافقهما الى غرفة واسعة مؤتمنة بأثاث لاذوق فيه ، هو أثاث الفنادق الشائع في روسيا ، وكان الشيء الوحيد الشاذ عن هذا الذوق ، الأزهار التي ازدانت بها الغرفة ، تلك الأزهار التي كانت منتشرة في كل مكان . ودخلت المدام على الفور ، مرتدية رداءً صباحياً بسيطاً ، وكانت تبدو أصغر سناً ، في ضوء صباح الربيع ، مما كانت عليه في المرقص .

وقدم أركادي صديقه بزاروف تقديماً جافاً ، واعتزته دهشة وهو يقوم بذلك ، إذ بدأ على صديقه الارتباك ، بينما كانت المدام هادئة كعادتها ، وقد شعر بهذا النقص بزاروف نفسه ، فأغاضه ذلك وقال لنفسه :
« فوه . يالها فكرة أن أكون خائفاً من امرأة ؟ »

ومع ذلك فقد ألقى نفسه على كرسي ، وانطلق يتكلم بلهجة التأكيد والمبالغة ، كما يفعل سيتنيكوف ، مع المرأة الجالسة قبالة ، والتي سددت لحاظها البراقة بانتباه اليه .

تنحدر اناسيرجيفنا اودينتسوف من صلب أب اسمه سيرجي نيكولايفيتش لوكتيف ، وهو مقامر مشهور ومضارب ظريف ، وبعد خمس عشرة سنة من عمرها ، بددها في سنت بترسبورج وموسكو ، حيث أضع كل ثروته ، وجد نفسه مجبراً على الانعزال في الريف ، حيث مات بعد مدة قصيرة ، خلفاً لابنته أنا وعمرها عشرون ، ولابنته الاخرى كترين وعمرها اثنتا عشرة سنة ، ما يكفيهما لسد الرق . أما أم الفتاة ، وهي منحدره من بيت البرنس (س) المفتقر ، فقد توفيت

في أيام السعد ، يوم كان زوجها في بترسبورج . ولهذا أصبح مركز
 أنا بعد موت أبيها حرجاً جدياً . فان التعليم الراقي الذي نالته في العاصمة
 ما كان يسعفها في إدارة منزل ومقاطعة ، ولا على احتمال الحياة في الريف .
 وفوق ذلك فما كان لها صديق واحد بين جيرانها الريفيين ، تلتجئ إليه
 في طلب النصيحة والارشاد ، لأن أباهما كان قد عمل كل ما في وسعه لتجنب
 جيرانه ، فقد كان يحتقرهم كما يحتقرونه . ورغم كل ذلك فان أنا أرسلت
 وراء خالتها الأميرة أفدوسيا ستيبانوفنا (س) ، تلك المرأة الحقود
 المتكبرة ، التي ما كادت تصل حتى استولت على كل الغرف الحسنة في
 المنزل ، وشرعت تضج وتصخب من الصباح حتى المساء ، وترفض الخروج ،
 حتى الى الحديقة ، دون أن يكون خادمها الخاص وراءها . وهذا الخادم
 وصيف ذو منظر كريه ، يرتدي بزة رسمية خضراء باهتة اللون ، وياقة
 زرقاء ، وقبعة مثلثة الزوايا ، فاحتملت أنا كل ذلك وأكبت على تعليم
 أختها . وقررت أن تعيش في عزلة بقيمة حياتها . ولكن القدر أراد
 غير ذلك . وذلك أن شخصاً ثرياً يدعى اودينتسوف ، منتفخ البطن ضخيم
 الجسم ، عبوساً ، مصاباً بالسويداء ، بل نصف معتوه ، عمره ست
 وأربعون سنة ، وهو رغم صفاته هذه غير سخيف ولا قاسٍ ، صادف
 أن رآها وتدله بحبها ، فعرض عليها الزواج فقبلت . وعاش الزوجان ست
 سنين ، ثم مات الزوج تاركا لها كل ثروته . وبقيت في السنة التالية لوفاته
 في الريف ، ثم رحلت مع أختها الى الخاراج ، لكنها لم تذهب الى غير
 ألمانيا . وضجرت في البلاد الأجنبية ، فتاقت الى الرجوع الى نيكولوسكوي

المحبوبة التي تقع على بعد بضعة فراسخ من المدينة المذكورة .
وكان تحت تصرفها في نيكولوسكوى منزل فخم مؤثث بأثاث أنيق ، ذو
حديقة جميلة وبساتين من أشجار الليمون ، فقد كان اودينتسوف المرحوم
قد وفر فيه كل ما يتوق المرء اليه . ولما كانت أنا لا تظهر في المدينة إلا
نادراً ، ولأمور تتعلق بالعمل فقط ، كوّن المجتمع في المدينة عنها فكرة
سيئة ، وصار يلوك حادثة زواجها باودينتسوف ويروي عنها حكايات
لا يصدقها العقل ، عن قيامها بمساعدة أبيها في فضائحه الشنيعة ، وأن
ذهابها الى الخارج كان لامرماً ، وأن نتائج حادثة سيئة قد حدثت في هذه الرحلة ،
قد أخفيت . وكان راوية هذه الحرافات اللبق يردد : « إنني أقول لك إنها
قد سقطت في الطاحون وبقيت تطحن مدة طويلة » وقد وصلت هذه
الاشاعات اليها صدفة ، ولكنها تجاهلتها باحتقار ، فقد كانت ذات طبيعة
مستقلة جريئة .

وجلس على الكرسي ذي المساند جلسة استرخاء وانبساط ، واطاعة
يداً فوق أخرى ، وأصغت الى خطاب بزاروف ، وقد كان هذا على
خلاف عادته يتكلم وأعصابه متوترة ، وكان واضحاً أنه يريد أن يدخل
السرور الى نفس سامعته . وقد أدهش أركادي هذا الأمر أيضاً ، رغم
أنه عجز أن يستبين مقدار نجاح بزاروف فيما يرمي اليه ، إذ أن وجه أنا
سيرجيفنا لم يبد عليه ما يعينه على إدراك الحقيقة ، فقد احتفظ وجهها
بطابع اللطف والأدب ، وبقيت عيناها ترسلان نظرات ساكنة غير
مضطربة . حقاً لقد أعطتها شدة بزاروف أول الأمر فكرة سيئة عنه ،

فبدأ عليها مظهر من يشم رائحة عفنة ، أو يسمع ملاحظة سخيفة ، ولكنها فهمت بالتدريج أن حالته تلك ناشئة عن اضطرابه ، وقد سرها أن يكون لها مثل هذه القيمة عنده . إن ما تشمئز منه هو الحقارة وحدها ، وليس ثمة من يتهم بزاروف بذلك . وفي الحقيقة أن العجب لم يفارق أركادي لأنه ، رغم اعتقاده بأن بزاروف سيحاول مدام اودينتسوف بوصفها امرأة مثقفة ، فيتكلم عن آرائه وأطواره ، إذ قد أبدت سابقاً رغبتها في أن تستمع إلى رجل مهوور إلى حد عدم الاعتقاد بشيء ؟ فإنه لم يتكلم إلا عن الأدوية والمداواة بالداء وعن علم النبات . إن هذه المدام لم تضع وقتها عبثاً ، فقد قرأت كمية كبيرة من المؤلفات العصرية ، وهي تجيد التعبير عن آرائها بالروسية ، ولقد أدارت الحديث إلى الموسيقى مرة ، ولما رأت أنه لا يريد أن يعترف بقيمة الفنون ، رجعت إلى النبات ، رغم أن أركادي كان يسره أن يستمر البحث عن أهمية الموسيقى الوطنية . وخلال تلك الجلسة ظلت تعامل أركادي بنفس الكيفية السابقة ، وقد كان ما تقدره فيه مرح الشباب وبساطته ، ولا شيء غير ذلك . وهكذا استمرت هذه الجلسة معقودة ثلاث ساعات ، في محاورة غير مطردة ، ولكنها منعشة متناوبة .

وأخيراً نهض الصديقان ليودعها ، فدت أنا سيجيفنا لهما يدها البضة الناعمة ، مع نظرات رقيقة ، وبعد أن فكرت مدة دقيقة قالت بحيرة ولكن بابتسامة لطيفة :

« إذا كان كلاكما لا يخاف من أن يقضي وقتاً كريهاً ، فأرجو منه

أن يأتي لزيارتي في نيكولسكوي . »

فصاح أركادي : « إني أعتبر هذا سروراً عظيماً . »

« وأنت يا ميسو بزاروف ؟ »

فأجاب بزاروف بانحناء ، فأدهش ذلك أركادي مرة أخرى ، وزاد عجبهِ لما رأى وجه صديقه يتضرج بحمرة الخجل . «

وقال الأصغر وهما خارجان الى الطريق : « حسناً . ما زلت تعتقد

أنها ... »

« لا أستطيع أن أحكم . ولكن الى أية بلورة من الجمد قد أحالت نفسها ؟ » ثم سكت وعاد يقول : « وعلى كل ، فهي شخصية بارزة . سيدة عظيمة . لا تحتاج الا الى خدم يرفعون رداءها وراءها ، والى تاج فوق رأسها . »

فقال أركادي ملاحظاً : « ولكن ليس عندنا بين سيداتنا العظيمات من تتكلم الروسية مثلها . »

« لا . ذلك لأنها قد عانت انبعاثاً ، وأكلت مما نأكل . »

« وأي سحر عظيم فيها ؟ »

« أنت تريد أن تقول أي جسد بديع لديها ! وما أليقه لطاولة

التشريح ! »

كفى كفى بالله عليك . إن جسدها يختلف عن أجساد النساء جميعاً . »

« لا حاجة لك أن تخرج عن طورك أيها البريء الصغير . ألم أقل

أنها تحتل الصف الأول بين نساءنا ؟ أجل يجب علينا أن نزورها . »

« متى ؟ »

« بعد غد فليس لدينا ما نعمله هنا ، ولا نريد البقاء لشرب الشمبانيا مع السيدة كوشكين ، السيدة العظيمة المتحررة ! لسنا نحن من يفعل ذلك . إذن فبعد غد يجب علينا أن نترك كل شيء ونذهب إليها ، وبهذه المناسبة إن مسكن أبي قريب من نيكولاسكوي ، لأن نيكولاسكوي تقع على الطريق الفلاني أليس كذلك ؟ »
« أجل . »

« مدهش . إذن فليس ثمة ما يعيقنا ، ولا يتأخر عن تلبية هذه الدعوة إلا المجانين والمغرورون . أكرر أن تركيبها الفزيولوجي بديع . »
وقضى الاثنان ثلاثة أيام مشرقة ولكنها غير حارة ، وهما يقطعان الطريق الى نيكولوسكوي ، وكانت الجياد الشعبية تخب عن رغبة ، وتهز أعطافها وذيلها المعقودة وجلجلها ، وكان أركادي ينظر الى الطريق ويتسم اسبب مجهول .

وقال بزاروف فجأة : « هنئي . إن هذا اليوم هو الثاني والعشرون من حزيران ، وهو عيد القديس الذي أتسب اليه ، وهو لابد سيرعاني . ألا يفعل ؟ » ثم أضاف بصوت خافت : « ولكن هنالك من ينتظرني في البيت هذا اليوم . حسناً . دعهم ينتظرون . »

الفصل السادس عشر

يقع القصر الذي تسكنه أنا سرجيفنا فوق راية ، بالقرب من كنيسة مبنية بالحجر ذات جدران صفراء ، وسقوف خضراء ، وأعمدة بيضاء ، ومدخل باطار مزخرف يمثل بعث السيد المسيح ، منحوت بالاسلوب اللاتيني ، وكان أهم ما يبرز فيه صورة محارب أسمر تملأ الخطوط التي تحتل كل الفراغ في الرسم . وامتدت القرية وراء الكنيسة بشكل جناحين ، باكوأخها القشية السقوف ومدآخنها غير المنتظمة . أما القصر الريفى فبنى بعين التصميم الذي بنيت به الكنيسة ، أي بالطراز المعروف بالاسكندري . وقوام القصر أيضاً جدران صفراء ، وسقوف خضراء ، وأعمدة بيضاء ، وتحمل واجهته شعار النبالة . وكان كلا البنائين من تصميم مهندس واحد ، من سكنة ذلك الاقليم ، صممه لاودينتسوف . وهذا المهندس رجل قليل الصبر ، كما يقول هو عن نفسه ، ذو ابتكارات استبدادية عابثة . وأخيراً بانت الأشجار عن يمين المنزل ويساره ، في تلك الحديقة الأثرية ، وقام أمام المدخل ، صفان من شجر الشربين معقودة الأغصان .

واستقبل الصديقين تابعان ممشوقا القديرتديان بزتين رسميتين ،
وركض أحدهما فوراً لدعوة رئيس الخدم ، وكان رجلاً ضخماً في ستره
رسمية ، تقدم فقاد الضيفين الى سلم مفروش ببساط ، ومنه الى غرفة
بسريرين ومرافق كاملة ، كأدوات الزينة والدواليب وما أشبه ذلك ،
وكانت النظافة هي أوامر الخدم اليومية . كان كل شيء نظيفاً ، خالياً من
البتع ، وتشيع في الغرف روائح لطيفة ، فكانها غرف عمل وزير أو
صالون استتبال أمير .

وقال رئيس الخدم : « ستراكم أنا سرجيفنا بعد مدة نصف ساعة .
فهل من أمر ؟ »

فأجاب بزاروف : « لا أيها المحترم . عداكأساً من الفودكا صغيرة ،
إذا لم يكن في هذا الطاب ما يحط من قدرك . »
فقال رئيس الخدم بشيء من العجلة : « إن أمرك سينفذ فوراً » ثم
ذهب وحذاؤه يصوت .

قال بزاروف شارحاً : « يا للابهة ، كيف يجب أن نتخاطب المضيعة ،
ما رأيك ؟ بأسلوب مخاطبة دوقة أم ماذا ؟ »
فأجاب أركادي : « نعم . كما تتخاطب دوقة عظيمة . خصوصاً وأنها
قد دعتنا نحن الارستقراطيين المتنفذين لزيارتها . »

« أظن أنك تشير اليّ ، أنا خادمك الوضع — دكتور المستقبل ،
وابن دكتور ، وحنيد قدلنت كما كان سميرانسكي ^(١) » ولوى شففيه

(١) رجل دولة من العرب (١٧٧٢ — ١٨٣٩) نظم عدداً كبيراً

بإتسامة واستطرد « هكذا ترى أن السيدة قد أخطأت خطأ مخيفاً ، إذ ليس لدينا مثل ذلك الشيء الذي يسمونه السترة الرسمية ذات الذيل .
أليس كذلك ؟ »

فهرز أركادي كتفيه بشجاعة ، ولكنه شعر بشيء من الخوف أيضاً .
وبعد انقضاء نصف ساعة ، دخل الاثنان غرفة الاستقبال فوجداها واسعة ، مرتفعة السقف ، منظمة بأسلوب فني ، فيه شيء من قلة الذوق . وصفت حذاء الحائظ أرائك من أثاث فخم من النوع الحديث المرغوب فيه ، وعلى الحائط ستائر سمراء ذات حواشٍ ذهبية براقّة . لقد أوصى أودينيتسوف المرحوم بصنع هذه الأشياء عن طريق صديق يدير حانوتاً للخمور في موسكو . وفوق منصة ، تتوسط الغرفة ، تمثال ذو وجه مغضن ، وشعر ترابي ، يبدو وكأنه ينظر الى القادمين بقلة ذوق لا حد لها .

فقال بزاروف : « هو »

ودخلت الكونتيس نفسها تلك اللحظة ، وكانت مرتدية رداءً خفيفاً ، وقد جمعت شعرها وراء أذنيها بشكل جعلها ، بالإضافة الى وجهها الصغير النضر ، تبدو صبية صغيرة لبوباً .

وقالت : « شكراً لكما على محافظتكما على الوعد بزيارتي ، ولما كنتما قد أتيتما ، فلي وطيد الأمل بأنكما ستجدان أغلب الوقت غير ممل ، وأريد أن أقدمكما لأختي لسبب واحد ، ألا وهو أنها عازقة ماهرة على البيان .

= من المشاريع المتعلقة بتحسين حالة الفلاح الروسي .

إنك لا تكترث بمثل هذه الأمور يا مسيو بزاروف ، ولكنك أنت
يا مسيو كيرسانوف تعبد الفن الموسيقي ، وإلى حالة مسنة تسكن معي ، وقد
يزورنا بعض الجيران للعب الورق . هذا فخوى دارنا . والآن فلنجلس .
أقلت المدام هذا الخطاب الصغير كدرس قد حفظته غيباً ، ثم التفتت
تتحدث مع أركادي . ولما علم أركادي بأن أمه كانت تعرف أمها ، وأن
أمها كانت موضع ثقة أمه ، في علاقتها الغرامية مع أبيه ، اندفع كالصبي
يتحدث بحرارة عن أمه الميتة . أما بزاروف فكان يقلب مجموعة من
الصور ، ويقول لنفسه ساخراً : « يا لي من شخصية ظريفة ! »

واقترحت القاعة سلوكية روسية جميلة مطوقة ، يسمع لخالبها ، صوت
عندما تركض . ووراءها فتاة في الثامنة عشرة ، سمراء الحيا ، صغيرة
العينين ، سوداوتهما ، وكانت تحمل سلة من الأزهار .

وقالت مدام أودينيتسوف وهي تشير إلى الفتاة برأسها : « أختي كاتيا .
وجلس كاتيا بجانب المدام ، وانكبت ترتب أزهارها ، بينما كانت
السلوكية ، واسمها فيني ، تتقدم من الصديقين بالتناوب فتضع أنفها البارد
في يد كل منهما ، وتهز ذيلها .

وسألت مدام أودينيتسوف أختها : « أجمعت هذه الأزهار بنفسك ؟ »
فأجابت الفتاة : « أجل . يا أنا سرجيفنا . »

« وهل ستلتحق بنا خالتك ؟ »

« نعم »

وكانت إجابات كاتيا ، مصحوبة بابتسامات رقيقة حية ، ولكنها

صريحة . وكل شيء فيها يدل على الصحة والشباب ، صوتها وتورد خديها ،
ويدها الصغيرتان الورديتان براحتيهما البيضاوين المرصعتين ، وكتفها
المنحنيان قليلاً . وكانت تحمر خجلاً على الدوام ، وتسحب أنفاسها
بطريقة مشوقة .

التفتت مدام اودينتسوف الى بزاروف وقالت :

« من المؤكد أن انشغالك بهذه الصور فيه شيء من قلة الجمالة ،
فليس فيها ما يعجبك ، فتقدم من فضلك منا ، واشترك معنا في الحوار .
فاقترب منها بزاروف وسألها : « عم تريد أن تتجادل ؟ »
« عن أي شيء تريد . ولكن فلا حذرک مقدماً بأني خصم جبار .
« أنت ؟ »

« أجل بكل تأكيد . إنك تلوح مستغرباً فلماذا ؟ »

لأنك ، كما أعلم ذات مزاج نائم بارد ، على حين أن الجدل يحتاج الى
مزاج حرك تحفزه الدوافع .

« كيف استطعت بمثل هذه السرعة أن تحكم على صفاتي ؟ إذن
فلا بد من إخبارك بأن كلتا الصفتين ، عدم الصبر وشدة الاهتمام ، هما من
من صفاتي . إسأل كاتيا إذا لم تصدق . واني أيضاً سريعة البادرة .
فألقي بزاروف نظرة عليها وقال : « ربما . لاشك أنك أدرى
بنفسك . وما دمت تريد أن الجدل فلنبداً بهذا — بينما كنت أتصفح
مجموعة مناظر سويسرا السكسونية مممتك تقولين انها لا تعجبني . لقد
قلت ذلك لأنك تعتقدين بأن الذوق الفني يعوزني . أجل إنني لكذلك ،

ولكن لماذا لا ترين أن الصور تهمني من الناحية الجيولوجية ، وذلك
بصفة كوني أرى أشياء تتعاق بكيفية تكوّن الجبال ؟ »

« اعذرنني ، ولكنك لو كنت جيولوجياً لفضلت تناول بعض المراجع
المتعلقة بهذا الموضوع لا النظر في بعض الصور . »

« آه . ليس هذا أمراً ضرورياً . إن الصورة تشرح لك ما يشرحه
كتاب بمائة صفحة . »

فلم تجب أنا سرجيفنا . ثم عادت فقالت : « حسناً . ما دمت لا تملك
أي ذوق فني فكيف تستطيع أن تحيا ؟ » قالت ذلك وهي تنسج على
المنضدة بوضع جمل وجهها قريباً من وجه بزاروف .

« الأولى أن أسألك أنا ما الذي يقدمه الذوق الفني للإنسان ؟ »
« إن به يستطيع الانسان ، على الأقل ، أن يقدر قيمة الناس . »
فأجاب : « بالدرجة الاولى ، والمطلب الاول لتوفر ما تقولين ، هو
الخبرة في الحياة . وبالدرجة الثانية ، أن دراسة الشخصيات المتصلة بنا
لا تساوي ما يبذل فيها من جهد . ذلك لأننا كلنا متماثلون في الجسم
والروح ، ففي كل منا طحال متشابه ، ودماع متشابه ، وقلب متشابه ،
ورئتان متشابهتان ، ومجموعة متشابهة مما نسميه الصفات الأدبية ،
ولا تدخل في هذا الحساب تلك الصفات المختلفة القليلة الأهمية ، ولهذا
فبواسطة نموذج واحد من البشر نستطيع أن نحكم على الباقين .
وال مخلوقات البشرية في الحقيقة كالأشجار في الغابة ، فلا تجددين علماً
نباتياً يدرسها ساقاً فساقاً . »

ونظرت كاتيا ، وكانت ترتب أزهارها ، الى بزاروف متعجبة ،
وبذلك التقت نظراتها بنظراته المترفعة ، فاحمرت حتى اذنيها .

وهزت أنا سر جيفنا رأسها وصاحت :

« الأشجار في الغابة . إذن فأنت لا ترى فرقاً بين العاقل والمجنون ،

والصالح والطالح ؟ »

فأجاب بزاروف : « لا ليس الأمر كذلك ، بل بالعكس ، أعتقد

بوجود مثل هذا الفرق ، وهو فرق بين الصحيح والمعلول ، مثال ذلك

إن الرئة المصابة ليست كرتتي أورثتك ، ومع ذلك فإن تصميمها وتركيبها

الأصلي متشابه تماماً . وهكذا نعلم الى حدٍ ما متى ينتج المرض . أما

المرض الأدبي فينتج عن فساد التربية والتعليم ، وإن ألوف الحماقات التي

يصاب بها العقل تنشأ عن هذا . وبالأجمال إن كل الأوضاع الاجتماعية

الفاسدة غير الطبيعية ، تنتج عن ذلك أيضاً . إجعلني تركيب المجتمع سليماً

تري جميع الأمراض الأدبية تختفي . »

وكان يتكلم كأنه يقول لها : « صدقيني أو لا تصدقيني فالأمر لدي

سيان » ومسح شاربيه بأصابعه الطويلة ، بينما توجهت عيناه كجمر

الفحم المتقد .

فعمقت أنا سر جيفنا على كلامه : « إذن فأنت تظن بأنه إذا صلح

المجتمع فإن الحق والأشرار سوف لا يكون لهم وجود ؟ »

« على كل حال ، إن المجتمع البشري إذا نظم تنظيماً صحيحاً ، فإن كون

الإنسان عادلاً أو أحمق ، خيراً أو شريعراً ، سوف لا تكون له أهمية تذكر . »

« آه . لقد فهمت . ذلك لأننا كلنا لنا طحال متشابه . »

« تماماً يا مدام . »

فالتفتت الى أركادي وسألته :

« وما هو قولك يا أركادي نيقولايفتش ؟ »

فأجاب : « إني أتفق مع ايفاجني . » وتلقى بدوره نظرة تعجب

من كاتيا .

وقالت المدام : « إني مستغربة يا سادة . وعلى كل فاني أسمع صوت خطوات خالتي . فلنصن أذنيها عن سماع حديثنا ولنتابع جدلنا فيما بعد . » كانت خالة أنا سرجيننا امرأة صغيرة نحيفة ، ذات وجه كالطرقة ، وعينين صغيرتين ضيقتين خبيثتين ، وجهه شهباء مخادعة . ولم تسبغ على الضيوف أكثر من المحنأة بسيطة . وسرعان ما ألقت نفسها في أحضان كرسي كبير مبطن بالقטיפفة خاص بها ، وحتى أن كاتيا لما تقدمت منها ووضعت وسادة تحت قدميها ، لم تنظر اليها ولم تشكرها ، بل أسرعت فوضعت يديها تحت الشال الأصفر الذي كان يغطي كل جسمها ، وكانت طاقتها أيضاً محلاة بشريط من نفس اللون .

وقالت مدام اودينتسوف وهي ترفع صوتها : « هل نمت جيداً

يا خالتي ؟ »

وتتممت العبوز لما رأت فيني تتقدم منها بخطوات مترددة : « الكلب

هنا أيضاً ؟ اطرّدوا هذا الوحش ، أقول أخرجوه . »

فنادت كاتيا الكلبة فيني وهي تفتح لها الباب لتخرج ، وركضت

الكلبة خارجة بسرور ، فقد ظنت أن سيدتها ستصحبها لانزهة ، وما كادت ترى نفسها مهجورة في الخارج ، حتى بدأت تحك الباب بمخالبها وتعوي ، مما جعل الأميرة تقطب ، واضطرت كاتيا الى الخروج مرة أخرى للملافة الأمر .

وعادت مدام اودينتسوف تقول : « إن الشاي جاهز كما أظن . تفضلوا ياسادة . وأنت يا خالتي هل لك بشيء من الشاي . ؟ »
فقامت الأميرة عن كرسيها صامئة ، وسددت خطاها نحو غرفة الأكل ، وهناك سحب خادم قوزاقي كرسيّاً ذا مساند من تحت المنضدة ، وكان كسابقه خاصاً بها . فغاصت فيه . وصبت كاتيا الشاي ، وأعطت خالتها الكأس الأولى ، فتناولتها العجوز وأضافت لها قليلاً من العسل . فقد كانت ترى أن في شرب الشاي محلي بالسكر وذيلة التبذير ، مع أنها لاتصرف فلساً واحداً من جيبتها الخاص ، ثم سألت بصوت أبح « ماذا يقول الأمير ايفان في رسالته ؟ »

فلم يرد عليها أحد ، وعندها أدرك بزاروف وأركادي بأنها ، بالرغم من معاملتها باحترام ، لا يعيرها أحد اهتماماً جدياً .

وقال بزاروف لنفسه : « إنهم يحتفظون بها في سبيل المظاهر . إنها باقية هنا لأنها متحدرة من أصل رفيع . »

وانتهى شرب الشاي ، واقترحت أنا التمشي ، ولكن بضع قطرات من المطر تساقطت ، فرجع الجماعة ، عدا الأميرة ، الى غرفة الاستقبال .
وعندها جاء أحد الجيران المولعين بلعب الورق ، وكان اسمه بورفيري

قد اكتسب صورة العناد لا صورة الغباوة .

وما كانت هذه الفتاة أليفة ، بل كانت هيابة في حضرة أختها التي ربتها .
وما كانت هذه الأخت تلاحظ ذلك عليها مطلقاً . وأخيراً عادت الى
أزهارها ، ووجد أركادي نفسه مضطراً الى استدعاء فيني الى جانبه ،
وشرع يربت على رأسها .

وخسر بزاروف مراراً . إن أنا سرجيفنا كانت ماهرة في اللعب ،
وبورفيري بلاتوفيتش يستطيع أن يبعد عن نفسه الخسارة . وكانت النتيجة
أن قام الضيف الصغير بخسارة ، رغم عدم جسامتها ، إلا أنها خسارة
لايحملها جيبه . وبعد العشاء بدأت أنا سرجيفنا حديثاً عن علم النبات .
فقلت : « أريد أن تأخذني معك في نزهتك الصباحية ، وأرجو أن
تعلمني الأسماء اللاتينية للأزهار الشائعة في حقولنا . وطبيعة هذه الأزهار . »
فسألها : « ولكن أية فائدة لك من الأسماء اللاتينية ؟ »

فأجابت : « إن الدقة ضرورية في كل شيء . »
وقال أركادي لما وجد نفسه في خلوة مع صاحبه تلك الليلة في
غرفة نومهما :

« حقاً ، إنها امرأة عجيبة . »

فأجاب بزاروف : « إن لها لعقلاً وان لها أحلامها أيضاً . »

« في أي اعتبار ؟ »

« في خير الاعتبار يا صديقي ، في أحسن الاعتبار يا أركادي
نيقولايفيتش . واني على كل يقين أيضاً بأنها تدير ثروتها جيداً ، ولكن

الظاهرة المدهشة هي أختها ، لا هي . »

« أتلك ؟ تلك الشموس ؟ »

« أجل تلك الشموس . إن هذه الشموس تحوي عناصر الجدة والشباب والبراءة والرقه والصمت ، وكل شيء فيها يثير الاهتمام . فهي من النوع الذي تستطيع أن تحيله الى ما تريد . أما الأخرى فليست إلا رغيفاً بائساً . »

فلم يجب أركادي ، وسرعان ما نام الاثنان ، وغرق كل منهما في أحلامه . وفي تلك الليلة كرسست أنا سر جيفنا شيئاً كثيراً من أفكارها لضيئها . لقد أحببت بزاروف لحلوه من روح الجمالة المعتادة ، ولمراته في نقده ، فكأنها وجدت فيه شيئاً جديداً غير مألوف ، لم يمر بتجاربها ، كل ما فيه يثير الفضول .

وقد كانت هي أيضاً مخلوقة غريبة ، لا تتعصب لشيء ، بعيدة عن العقائد الشديدة الوطأة ، لا تلتفت لشيء ، وليس لها هدف معين . ومع أنها قد فتحت عينيها على أشياء كثيرة ، وذات مسرات الحياة مراراً ، فإن كل ذلك لم يروها إرواء تاماً ، وما كانت هي تريد أن ترتوي ، فقد كان ذكاؤها من ذلك النوع ، قليل الفضول ، عديم الاكتراث ، ذات شكوك لا تصل بها الى حد غير المعقول ، وإلهامات لا تصل بها الى حد القلق . حقاً إنها لو كانت قد مهتت بأقل من تلك الثروة ، وأعطيت أقل من ذلك الاستقلال ، لربما كانت عرفت مرارة الشحناء ، وتعلمت طبيعة الرغبة . ولكن أحوالها الحسنة جعلتها تنظر الى الحياة بهدوء ، رغم أنها

كانت تجدها كريهة بعض الأحيان ، فتقضي أيامها رزينة هادئة بعيدة عن
المواطف الحادة . أجل قد تبرق في حياتها بوارق بلون قوس قزح ،
ومع ذلك فما أسرع ما تعود الى حالتها الطبيعية عندما تبهر تلك الألوان ،
دون أن يكدرها انقضاء تلك الأحلام . ومع أن خيالها يقودها بعض
الأحيان الى أن تدخل في ما يعتبر محرماً لدى التقاليد . فإن دمها يسير
سيره المعتاد في جسدها البارد ذي التكوين الساحر . وعندما تدخل حمامها
المريح ، عند ذاك فقط ، قد تتوهج في كيانها تلك الرغبة الخفية فتبدأ
تفكر بمسرات الحياة وأحزانها وأكدارها ومتاعها ، وتشعر فجأة بأن
روحها قد وصلت الى حد النزع ، وصارت تغلي بالمشاعر ، وحتى آنذاك
إذا ما هبت نفحة من ريح من نافذة قريبة ، فانها سرعان ما تهز كنيها ،
وترثي لنفسها . فتشعر بالتعب ، وتعود ولا شيء يشغل بالها إلا أن تتخلص
من ذلك التيار الدخيل بكل الوسائل .

وهي أيضاً ، شأن كل امرأة لم تذوق الحب ، تشعر دائماً بالحنين الى شيء
لا تدري كنهه ، فهي لا تحتاج شيئاً ، في الحقيقة ، ولا كنهها تحتاج كل شيء .
وقد احتملت اودينتسوف المرحوم بكل سرور ، فقد كان زوجها به
مقبولاً من جهة واحدة ، وما كانت لتقبل تلك الزيجة لولا أنها عرفت
أن الرجل طيب القلب . وبواسطة زوجها حصل عندها انطباع سيء عن
جنس الذكور ، فكانت تعتبر أفراد هذا الجنس لا يملكون غير البذاءة
والكسل والمتعبات والاضيف الأخلاقي . ولم تلق رجلاً جذبها الا مرة
واحدة حينما كانت خارج روسيا ، وكانت شاباً سويدياً ذا محيا رجولي

نبيل ، وعينين زرقاوين صادقتين ، وجبين وضاح ، وبالرغم مما أحدثته
من التأثير في نفسها ، فان ذلك كله لم يمنعهما من الرجوع الى روسيا فوراً .
وقالت لنفسها وهي تدخل في فراشها الوثير ذي الحواشي الموشاة
والوسائد الحريرية الأوجه : « يا لزاروف هذا من رجل غريب ! »
ويمكن القول أنها ورثت عن أبيها حبه للذوق الرفيع والرغبة في التأنيق .
كانت ذكره ماتزال عزيزة عليها ، فقد كانت تحمل له حباً عظيماً ، وكان
هو أيضاً يعبدها ويعاملها معاملة الد ، ويمنحها ثقته كلها . وقد كان من
عاداته أن ينشد نصيحته دائماً . أما أمها فقد كانت ذكرياتها عنها
ضعيفة جداً .

وعادت تقول : « أجل إن زاروف رجل غريب . » وبعد ذلك
بسطت أعضائها وابتسمت ووضعت يديها وراء رأسها ، وتصفحت مجلتيه
فرسيته برسخيفتين ، سقطت ثانيتهما من يدها ، إذ راح ذلك الجدم الأنيق
الملتف بالأغطية الأنيقة المعطرة ، في سبات عميق .

ولما انتهى الفطور في اليوم الثاني ، انطلقت مع زاروف في رحلته
العلمية ، ورجعت قبيل الغداء . أما أركادي فلم ينادر المنزل ، بل قضى
ساعة مع كاتيا ، ولم يجد الوقت ممللاً لأن كاتيا تبرعت بإعادة عزف السوناتا
بدافع ذاتي . ومع ذلك فان قلبه وثب في صدره لحظة شاهد زاروف
ومدام اودينتسوف يرجمان معاً . وقطعت المرأة الساحرة الحديقة بخطى
تعبية ، وكان خداها بلون الورد ، وعيناها تبرقان ، تحت قبعتها القشبية
المستديرة ، بريقاً غير اعتيادي ، وبين أناملها ضمة من سيقان زهار

غريبة ، وكان رداؤها الخفيف قد انزلق وراء كتفها ، وشرائط قمعتها العريضة مدلاة فوق صدرها .

وكان بزاروف يمشي وراءها بما عرف عنه من أنفة واعتزاز بالنفس ، وعلى وجهه إمارات الجبور والمرح ، ولكن أركادي لم تعجبه تلك الامارات . وتمتم بزاروف : « صباح الخير » ومضى في طريقه الى غرفته . وصاحته المدام مصالحة اعتيادية ثم تابعت طريقها .

وقال أركادي لنفسه : « صباح الخير ! يخيّل للانسان حين يسمعها تقول ذلك أننا لم نتعارف إلا هذا اليوم . »

الفصل السابع عشر

من المفهوم جداً أن الوقت يطير أحياناً كالطير ، ويزحف أحياناً كالودودة . ولكن من المعتاد أن يكون الانسان سعيداً ، حينما يقصر عن إدراك سرعة الوقت أو بطئه ، وبهذه الكيفية الأخيرة قضى الصديقان ، بزاروف وأركادي ، اسبوعين عند مدام اودينتسوف . ويرجع بعض الفضل في ذلك الى الطريقة المحكمة التي كانت تدير بها منزلها وحياتها ، فهي مواظبة على النظام الذي فرضته ، وتجبر غيرها على اتباعه . فكل ما في المنزل يجري في ميقات دقيق . ففي الصباح ، في تمام الثامنة ، يجتمع من في الدار لتناول الشاي ، ومنه الى حين الغداء ، يفعل كل ما يريد . فتعمل ربة المنزل مع وكيلاها (إن مزرعتها تجري على نظام الاجارة) ورئيس خدمها ومديرة البيت ، وبقيل العشاء يجتمعون للقراءة والمحادثة . أما المساء فيكرس للنزهة أو للعب الورق أو للموسيقى . وفي الساعة العاشرة والنصف تأوي أنا سرجيفنا الى مخدعها حيث تعطي أوامر اليوم الثاني ، ثم تنام . وما كان بزاروف يحب ذلك النظام الدقيق ، أو المواظبة المتكررة المملة في الحياة اليومية ، وكما يسميها هو (التحرك على سكة

(حديد) ولكن الخدم ذوي البزز الرسمية ، ورئيسهم ذا الأوشية ، كانوا
 يكرهون ميوله الديموقراطية . وكان بزاروف يصرح بقوله : « إذا
 تمادى الانسان في هذا النظام فانه حتماً سيصل الى النظام الانكليزي
 فيرتدي السترة المذيلة وربطة العنق البيضاء » وقد تحدث في الأمر صراحة
 مع أنا سرجيفنا مرة ، وقد وجد أن مزاجها لا يشجع على التمادي معها
 في مثل هذا الحديث . فاستمعت له ثم قالت شارحة : « أنت مصيب بوجهة
 نظرك ، وبهذا الاعتبار قد أبدو سيدة أرستقراطية ، ولكن لحياتة في
 الريف بغير نظام . إذ بدونه يقتلنا الضجر » وظلت تسير على نهجها الخاص ،
 فتذمر بزاروف ، ولكن الحياة المنطقية نفسها كانت سهلة عليه وعلى
 صديقه عند مدام اودينتسوف ، وذلك لأن كل شيء لديها كان (يسير
 على سكة حديد) ، ولذلك كله طرأ تغيير على الشابين منذ أول يوم قضياه
 في نيكولا سكوي . وقد بدأ بزاروف ، الذي كانت المدام ظاهرة السرور
 به ، رغم عدم اتفاقها معه في أشياء كثيرة ، يظهر إمارات التذمر ، وما
 ذلك من طبعه ، فصار سريع البادرة ، قليل الكلام ، يبدو كالمثألم ، فتراه
 لا يستقر في مكان واحد ، كأن شوقاً خفياً قد تملك زمامه . أما أركادي
 الذي دأب على التفكير بأنه يحب مدام اودينتسوف ، فقد استسلم الى
 حزن هادئ ، ولم يمنعه ذلك من أن ينشد صداقة كاتيا . بل ان ذلك
 دفعه الى أن يوطد هذه الصداقة ويتعمق فيها ، قائلاً لنفسه : « إن تلك
 لاتحبني ، فليكن ذلك ، ولكن هي ذي مخلوقة طيبة لاتصدني » وبذلك
 زاد قلبه جمالاً ونبالة ، وقد شعرت كاتيا شعوراً مهماً ، بأنه ينشد

بصحبته شيئاً من السلوان ، فلم ترده ، ولم تصد عن نفسها صداقته ، التي
كان يمازجها الحجل ، وتخالطها الأسرار . وما كانا يتحدثان بمحضرة
أنا سرجينا ، فقد اعتادت كاتيا أن تنكش أمام نظرات أختها الصارمة ،
أما أركادي فكان ، شأن الحب لا يستطيع أن يلتفت الى غير موضع حبه ،
عندما يكون قريباً منه ، ولكنه كان يسعد بكاتيا وحدها . لقد كانت
كاتيا تشعره بأنه في منزله ، فكان يعاملها معاملة القريب ، ويشجعها على
إيضاح تأثير الموسيقى في نفسها ، أو على قراءة القصص والشعر وغير ذلك
من التوافه ، دون أن يشعر بأن هذه التوافه تجلب السرور لنفسه أيضاً .
وما كانت كاتيا تحاول من طرفها أن تطرد الحزن والضجر عنه . هكذا
كان أركادي يرتاح الى كاتيا ، ومدام اودينيتسوف الى بزاروف ، وهكذا
فان كلاً من هذين الفريقين يسير في طريق خاص به ، بعد الاجتماعات
الضرورية . لقد كانت كاتيا تعبد الطبيعة وكذلك أركادي وكان لافتراق
الصديقين الدائم نتيجة لا بد منها ، فقد بدأت العلاقة بينهما تتغير ، فكف
بزاروف عن تحديث أركادي عن مدام اودينيتسوف ، وكف حتى عن انتقاد
عاداتها الارستقراطية . وكان في الحقيقة يمتدح له كاتيا ، وينصحه أن
يستفيد من ميولها العاطفية ، ولكن مديحه كان خاطفاً ، ونصائحه جافة
وعلى العموم ، لقد قل حديثه مع صديقه ، وبدا عليه كأنه يتجنبه ، وأنه
على غير وئام معه .

ولاحظ أركادي كل ذلك وأخفى في نفسه ما لاحظته .

وكان السبب الحقيقي في كل هذا يرجع الى الشعور الذي أوحته الى

نفسه مدام اودينتسوف ، ذلك الشعور الذي كان يعذبه ويكاد يذهب بلبه ، ذلك الشعور الذي كان ينكر وجود مثله فيما مضى ، ويقابله بضحكة احتقار وانتقاد قاسٍ ، لو أخبره شخص بأنه سيتملكه يوماً . لقد كان بزاروف يحب الجمال والنساء حباً جماً ، أما الحب المجرد المثالي ، أو كما يسميه « المشاعر الخيالية » فقد كان يراه جنوناً ، أو حماقة لا تغتفر ، ويعتبر احترام الرجال للنساء وإكبارهن ، كما يفعل الفرسان ، عملاً ينتج عن طبيعة شاذة أو عن مرض . وقد صرح أكثر من مرة بأنه يعجب كيف أن توكنبرج وأضرابه من شعراء الغزل والفروسية لم يوضعوا في مستشفى مجانين . وقد اعتاد أن يقول : « إذا استبدت بخيالك امرأة فحاول أن تنتهي معها ، وإذا لم تتمكن فوها ظهرك . إن في البحر مقداراً كبيراً من السمك الطيب » لقد استبدت بخياله مدام اودينتسوف ، وقد كانت الاشاعات الدائرة حولها ، وحرية ارادتها واستقلال شخصيتها ، وإعجابها الواضح به ، كل ذلك في صالحه . ولكنه سرعان ما وجد أنه لا يستطيع أن ينتهي معها ، ولا أن يولي لها ظهره ، فخارحة شديدة ، إذ كان الأمر فوق طاقته . لقد كانت دماؤه تغلي بمجرد أن يفكر بها . وكان باستطاعته أن يضبط شعوره ، ولكن شيئاً عميقاً قد تأصل في نفسه ، شيئاً لم يسمح له بالدخول ، شيئاً يسخر منه ويشير كبريائه . لقد أوضح لانا سيرجيفنا في حديث معها ، احتقاره المطلق لكل المثل الخيالية ، ولكنه كان يعلم ، بينه وبين نفسه ، بأن المثالية في نفسه ذاتها فيحتقرها . ويعالج نفسه بالذهاب الى الغابة حيث يذرعها بخطى واسعة ، ويحطم

الأغصان التي تعترض طريقه ، ويلعن أسرته ويلعن نفسه سرّاً . أو يذهب الى تلال الهشيم في بيدر الحصاد ، فيأقي جسمه عليها ، ويحاول أن ينام بأن يغمض عينيه بعناد ، وما كان يفلح طبعاً في أغلب الأحيان . فقد كان خياله يعرض أمامه دائماً يدين رقيقتين ، ويصورهما ملتفتين حول عنقه ، ويصور الشفتين المتكبرتين تستجيبان له ، وتلكما العينين الرحيمتين تفيضان رقة — أجل رقة تسكب في عينيه ، فيدور رأسه ، وينسى نفسه لحظة ، حتى تغلي كرامته في أعماق نفسه وتثور ، وعندها يحاول أن يفرق تلك الأخيلة بأخرى منحطة مخجلة ، كأن شيطاناً يسوقه ويسخر منه . وقد يتصور أحياناً بأن تغييراً قد طرأ على مدام اودينيتسوف ، وأن شيئاً قد ظهر في تعابير وجهها ، شيئاً خاصاً ، وأن ذلك الشيء قد يكون ... ، وعند ذلك يخبط الأرض بيده ، أو يصك أسنانه ، ويعصر بعنف قبضتيه .

ما كان بزاروف مخطئاً ، كل الخطأ ، فقد تملك خيال مدام اودينيتسوف وأعجبها ، فكانت تفكر به كثيراً ، ولكنها ما كانت تحزن عند غيابها ، ولا تنتظره بفارغ الصبر ، بل كانت تفيض حيوية في حضرته ، وتحب الحديث معه حتى حين يؤذيها وينتقد ذوقها . لقد كانت تحب أن تستكشف حقيقته ، وتحلل شخصيته .

كان يوماً يتمشى معها في الحديقة ، فأعلن لها فجأة ، وبلهجة تدل على الإصرار ، بأنه قد عزم على السفر الى أيبسه . فايض وجهها ، كأن نوبة ألم حادة قد انتابتها ، نوبة تركنها تتعجب مدة طويلة وتتساءل عن

معناها . وما تكلم بزاروف عن رحيله ليمتحن حبها ، وليرى ما قد ينتج عن كلامه ، فما كان يحب التصنع . ففي صباح ذلك اليوم قابل وكيل أييه الذي كان يدلله صغيراً ، وهو تيموفيتش . وكان تيموفيتش هذا رجلاً تجاوز الكهولة ، ذا خبرة وفراصة ، شعره أصفر باهت اللون ، وقد غضنت وجهه تقلبات الجو ، وكانت عيناه صغيرتين مجعدتين ، تجول فيهما قطرات صغيرة من الدمع . ظهر فجأة أمام بزاروف بمعطفه القصير ، المصنوع من القماش الأزرق الثقيل ، ومنطقته الجلدية ، وحذائه المطليين بالقار .

فصاح بزاروف : « أهلاً أيها الرجل العجوز . كيف أنت ؟ »
فبدأ الرجل حديثه بقوله : « كيف حالك يا ايفاجني فاسيليفيتش ؟ »
وابتسم مسروراً ابتسامة أشاعت الغضن في كل وجهه .
« لم أتيت ؟ لقد أرسلوك بطلي ، أيه ؟ »

فتمتم تيموفيتش ، متذكراً وصايا سيده الصارمة التي أوصاه بها حينما أرسله : « كيف تفعل ذلك يا سيدي ؟ صدقتي ، بينما نحن ذاهبون الى المدينة في شغل ، إذ سمعنا أخباراً عن جنابك ، فانعطفنا ، ونحن في طريقنا ، لنرى جنابك ، لا لكي نزعجك »

فقاطعه بزاروف بقوله : « هيا لا تكذب . أهذا هو الطريق الى المدينة ؟ ألا تريد أن تصدقني الخبر ؟ » فلهث تيموفيتش ولم يجب . فقال بزاروف : « هل أبي بصحة جيدة ؟ »
« أجل والله الحمد . »

« وأمي ؟ »

« وكذلك أنا فلا سيفنا ، والمجد للرب . »

« إنهم في انتظاري كما أنظن ؟ »

فلوى الرجل العجوز الصغير رقبتيه جانباً وقال : « آه يا أيفاجني

فاسيليفيتش ، حقاً إن الانسان لينفطر قلبه عند رؤيتهما . »

« هيا . حسناً جداً . اسكت . اخبرهم بأني آت عن قريب . »

فأجاب تيموفيتش متنهداً : « أجل يا سيدي . »

ولما خرج من الدار ثبت قبعته فوق رأسه بكلتا يديه ، وتبوأ مقعد

عربة تشبه عربات السباق ، وأطلق لها العنان ، ولكن في غير

اتجاه المدينة .

وفي مساء نفس اليوم ، كانت مدام اودينيتسوف جالسة في غرفتها مع

بزاروف . أما أركادي فكان يذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهاباً ،

وهو يستمع الى عزف كاتيا . وكانت الأميرة قد صعدت الى مخدعها ،

فما كانت تحتمل الزوار ، وخصوصاً هؤلاء الأوباش ، كما كانت تسميهم .

كانت تكتفي في غرفة الاستقبال بأن تعبس في وجوههم ، أما في مخدعها

فقد كانت تنفجر أمام وصيفتها بالسباب ، حتى أن طاقتها تراقص فوق

رأسها ذي الشعر المستعار ، وكانت مدام اودينيتسوف تعرف كل ذلك .

وبدأت تقول : « كيف عزمت على تركنا . وما حل بوعذك ؟ »

فبغت بزاروف ، وقال : « أي وعد ؟ »

« هل نسيت ؟ لقد وعدت أن تعطيني بعض الدروس في الكيمياء . »

« لا أستطيع فإن أبي في انتظاري . ولا أستطيع المكوث أكثر ،
وعلى كل ففي استطاعتك قراءة كتاب (ييلوس وفريمي) وعنوانه :
(معلومات عامة عن الكيمياء) ، فهو كتاب طيب وواضح ، وستجدين
فيه كل ما تحتاجينه . »

« ولكن ألا تذكر بأنك قلت مرة بأن الكتاب لا يغني عن ...
لقد نسيت تعبيرك بنصه ، ولكنك تعرف ما أعني ... أتذكر ؟ »
فكرر بزاروف : « لا مناص . »

فقالت مدام اودينيتسوف وقد خفت صوتها : « لماذا تريد الذهاب ؟ »
فغظرت إليها . وكانت قد ألقت رأسها على مسند الكرسي الخلفي ،
ووضعت ذراعيها المشمرتين حتى المرفق ، فوق صدرها ، ولاحت شاحبة
الوجه ، في ذلك الضوء المنبعث من المصباح الوحيد المظلل بغطاء من
الورق المثقب ، وقد غطى جسمها دثار لفه بين طياته حتى أطراف قدميها .
وأجاب بزاروف : « ولماذا أبقي ؟ »

فأدارت مدام اودينيتسوف وجهها قليلاً وقالت : « تسأل لماذا تبقى ؟
ألم تتمتع بوجودي . أو تظن أننا سوف لا نفتقدك ؟ »
« أنا واثق مما تقولين . »

فسكتت مدام اودينيتسوف برهة ثم قالت : « إنك تخطيء إذا ظننت
أنك ... ولكني لا أصدقك . إنك لا تجد بقولك . » فظل بزاروف
بدون حراك ، فأكملت قولها « أيفاجني فاسيليتش لماذا لا تتكلم ؟ »
« لماذا . وما الذي أقول ؟ حتى النساء قاطبة لا يستأهلن أن يفتقدن ،

« وأنا أقل منهم شأنًا . »

« ولماذا ؟ »

« أنا رجل عملي غير ظريف . ولا أعرف كيف أتحدث . »

« إنك تصطاد في الماء العكر يا ايفاجني فاسيليتش . »

« ليس ذلك ديدني . ألا تعلمين أنت بأنني لا أساهم في الجانب

الراقي من الحياة ، ذلك الجانب الذي تطرينه كثيراً ؟ »

فعضت مدام اودينتسوف على طرف منديلها وقالت : « في وسعك

أن تقرر ما تريد ، ولكني سأسى ، عندما تذهب . »

فلاحظ بزاروف بقوله : « إن أركادي سيبقي . »

فهزت مدام اودينتسوف كتفها هزة خفيفة وأعدت قولها : « سأسى »

« حقاً ؟ وعلى كل حال سوف لا يبقى أساك طويلاً . »

« وما الذي يدفعك الى هذا الاعتقاد ؟ »

« لأنك أنت أخبرتي بأنك لا تحزنين إلا عندما يتغير مجرى حياتك

الرتيب ، فقد نظمت أوقاتك تنظيمًا دقيقاً لا يترك فسحة للحزن

والآسى ، ولا لآية أفكار سوداء . »

« أوتظن بأنه ليس عندي ما ينقصني الى هذا الحد ؟ أعني أنني قد

نظمت حياتي بمثل هذه الدقة ؟ »

« أظن ذلك . واليك مثلاً . فبعد قليل من الدقائق ستدق الساعة

العاشرة ، وعندها ستطرديني . »

« لا . سوف لا أطردك يا ايفاجني فاسيليتش . لك أن تبقى . افتح

تلك النافذة فاني أشعر بأني على وشك الاختناق . »

فنهض بزاروف ودفع النافذة بيده ، فانفتحت بسرعة وبصوت شديد ،
وما كان يظنها سهلة الفتح هكذا ، وفوق ذلك فقد كانت يده ترتجف .
فأطل الليل الناعم المظلم من النافذة الى الغرفة ، بسماؤه السوداء وأصوات
حفيف الأشجار الخفيفة ، وعبير الهواء النقي اللطيف .

قالت مدام اودينيسوف : « إسحب مظلات النافذة وتعال اجلس .
أريد أن أتحدث معك قبل أن تذهب . خبرني شيئاً عن أحوالك . فانك
لا تتكلم عن نفسك . »

« كنت أحاول أن أتكلم معك عن أمور ذات أهمية . »
« إنك متواضع جداً ... ولكني أريد أن أعرف شيئاً عنك وعن
عائلتك ، وعن أهلك ، عن هؤلاء الذين ستركنا إرضاء لهم . »
فقال بزاروف في نفسه : « لماذا تتكلم هكذا ؟ »

ثم رفع صوته : « إن ما لايسر على الأقل ، ولا يسرك أنت بصورة
خاصة ، هو أننا أناس مغمورون . »
« وأنت تعتبرني امرأة ارستقراطية ؟ »

فرفع بزاروف عينيه الى مدام اودينيسوف وقال بحدة زائدة :
« أجل . »

فابتسمت وقالت : « أي أنك لا تعرفني إلا قليلاً ، رغم أنك تدعي
أن الناس سواء ، ولا يستحقون أن ندرسهم أفراداً . سأروي لك
تاريخ حياتي يوماً ، ولكن إرو لي أنت تاريخ حياتك أولاً . »

فأعاد بزاروف : « لا أعرف عنك إلا قليلاً . قد تكونين على صواب ، فلكل شخص لغز ، أنت مثلاً تتجنيين المجتمع ، إذ أنك مضطهدة ، ولقد دعوت تلميذين الى دارك ، فما الذي دفعك ، وأنت على ما عليه من ذكاء وجمال ، الى أن تسكني الريف ؟ »

فاعترضت مدام اودينيتسوف بقولها : « ماذا ؟ ماذا قلت ؟ مع جمالي ؟ » فعبس بزاروف ودمدم : « لا عليك ، أريد أن أقول ، إني لا أعرف تماماً السبب في استقرارك في الريف . »

« ألا تفهم السبب ؟ ولكنك ذكرته بطريقةٍ ما . »
« أجل . إنك باقية في مكان واحد لأنك تنشدين الراحة والدعة فتتمتعين بهما ، ولا تهتمين بما سوى ذلك . »

فابتسمت مدام اودينيتسوف ثانية وقالت : « من الواضح انك ترفض رفضاً باتاً أن تعتقد بأن في الامكان التأثير عليّ بشيء ما . »
فنظر اليها بزاروف من تحت حاجبيه وقال : « ربما تؤثر عليك الغرابة ، ولا شيء سواها . »

« حقاً ؟ حسناً . الآن تدرك سبب صداقتنا . إنك نفسك مثلي كما أرى . »

فقال بزاروف مستفسراً بصوت أبح : « نحن أصدقاء فقط ... »
نهض بزاروف ، وكان المصباح يضيء الغرفة المظلمة الفاخرة المنعزلة ، إضاءة غامضة ، وبين حين وحين تهتز مظلات النوافذ فتفيض في الغرفة نسمات الليل البهيم ، بشكل همسات غامضة . ولم تحرك مدام اودينيتسوف

عضواً من أعضائها ، ولكن نراكها بالتدريج عواطف مكبوتة .
وانتقلت تلك العواطف الى بزاروف ، فأدرك أنه في خلوة مع
امرأة فاتنة جميلة .

وسألته بهدوء : « الى أين تريد الذهاب ؟ »

فلم يجب بشيء ، وغاص في مقعده .

وقالت بنفس النبرة ، دون أن ترفع عينها عن النافذة : « إذن فأنت
تظنني مخلوقة متكبرة بطرة ، قد أفسدها التدليل ، بينما أعرف أنا
الكثير عن نفسي ، وأعلم بأنني غير سعيدة . »

« أنت غير سعيدة ؟ ولماذا ؟ لا شك أنك لا تعيرين الاشاعات
السخيفة اهتماماً . »

فعميت مدام اودينتسوف ، إذ فسر عبارتها هذا التفسير .

« إن أمثال هذه الاشاعات لا تؤثر فيّ يا ايفاجني فاسيليتش ، واني
لأشد كبرياء من أن أجعلها تزعجني ، إنني غير سعيدة لأنني لا أرغب في
شيء ، ولا أهتم بالحياة . إنك تنظر اليّ كمن لا يصدق . إنك تظن

هذا الكلام من ارستقراطية يزين ملبسها الوشي ، تجلس على كرسي
من القטיפه . ولا أحب أن أخفي الحقيقة . اني أحب ما تسميه بالراحة ،
ولكنني في الوقت ذاته لا أحب الحياة إلا قليلاً ، فسر هذا بأحسن
ما تستطيع . ولكن ليس كل ذلك في نظرك إلا أموراً خيالية . »

فهز بزاروف رأسه وقال : « صحتك جيدة ، وأنت غنية مستقلة ،
فما الذي تريدن أكثر من ذلك ؟ ماذا تريدن ؟ »

فتنهت مدام اودينتسوف ورددت : « ماذا أريد ؟ إني تعبئة جداً وكبيرة ، وأشعر كأني عشت دهرأ طويلاً . أجل إني لشيخة » قالت ذلك وسحبت وشي ثوبها فوق ذراعها العارية ، والتقت عيناها بعيني بزاروف واحمر وجهها قليلاً ، واستطردت : « إن ورائي ذكريات كثيرة . حياتي في سنت بترسمبورج ، الغنى ، ثم الفقر ، ثم موت أبي وزواجي ، ثم رحلة محتمة تنفيذاً لوعده . . ذكريات كثيرة ، وطريق طويل جداً دون هدف ، لست راغبة في الاستمرار فيه . »

فتساءل بزاروف : « هل لا خيال لك ولا أحلام ؟ » فأجابت مدام اودينتسوف متوقفة عند كل مقطع : « لا ولكنني غير مكتملة . أريد أن أسر نفسي بشيء ما . »

فقاطعتها بزاروف بقوله : « تريد أن تحبي ، ولكنك لا تستطيعين ، وهنا تكمن تعاستك . »

فأخذت مدام اودينتسوف تفحص كم ردائها ، وقالت : « حقاً إني لا أستطيع أن أحب . »

« ما كان يجب علي أن أقول ذلك . لقد أخطأت في حسابان ذلك شقاء ، بالعكس ، إن الانسان يرثي له لو قدر له مثل ذلك الحظ السيء . »

« حظ سيء في ماذا ؟ »

« في أن يحب . »

« وكيف عرفت ذلك ؟ »

فأجاب بزاروف بغضب : « من القيل والقال »

وقال لنفسه : « إنها تغازلني . إنها امرأة خائبة ، ولذلك تثيرني لأقدم على شيء ما ، بينما أنا ... » وشعر بقلبه يتمزق ، وقال لها وقد مال الى الأمام بكل جسمه ، وهو يعبث بحاشية الكرسي : « ربما كنت على صواب تام . »

« ربما ، وسواء أكانت آرائي مهمة أو غير مهمة . خذ رأيي . الحياة للحياة ، واترك آراءك ، هذا على شريطة أن لا تحتقر نفسك اذا نظرت الى الوراء . والا فليس لك إلا أن تترك كل شيء . » فقال بزاروف ملاحظاً : « حسناً . هذا مبدأ جميل ، وانني لمتعجب أن لا تجدي من تحبين ، وأنت من أنت . »

« وهل تظن من السهل أن يكرس الانسان نفسه لشيء ما ؟ »
« لايسهل ذلك اذا بدأت بالتفكير والانتظار وأعطيت نفسك قيمة كبيرة ، وأشدت بمدحها . أعني أن الانسان اذا أراد أن يهب نفسه فعليه ألا يفكر . »
« كيف يستطيع الانسان أن يقدر نفسه ؟ فأنا لا قيمة لي ، فمن هو الذي يريد أن أكرس نفسي له ؟ »

« ليس هذا من شأني . إن من شأن الآخرين أن يكتشفوا القيمة . إن الشيء المهم هو أن يستطيع الانسان أن يكرس نفسه لغيره . »
فالت مدم اودينتسوف الى الأمام وشرعت تقول : « أنت تتكلم كمن قد اختبر كل ما يقول . »

« لقد حدث ذلك يا أناسير جيفنا ، وليس ذلك في مصلحتي كما تعلمين . »

« وهل تستطيع أن تكسر نفسك لغيرك ؟ »

« لا أعرف . ولا أريد أن أمتدح نفسي . »

ولم تقل مدام اودينتسوف شيئاً ، وصمت بزاروف أيضاً ، وتصاعدت
أنغام البيان اليهما من غرفة الاستقبال .

فلاحظت مدام اودينتسوف : « كيف تعزف كاتيا في مثل هذا
الوقت المتأخر ؟ »

فنهض بزاروف وقال : « حقاً إن الوقت متأخر . وقد حان ميعاد
ذهابك الى الفراش . »

« صبراً . فعلام العجلة ؟ أريد أن أقول كلمة . »

« إصبر قليلاً . » همست بذلك مدام اودينتسوف وقد استقرت
عينها على بزاروف كأنها تتفحصه .

فقطع الغرفة بخطاه ، وتقدم منها بغتة ، ثم أسرع قائلاً : « وداعاً »
فعصرت يديها بشدة كأنها تريد أن تمنع نفسها من الصراخ ، ولكنه
كان قد ذهب . ورفعت إصبعها الموضوعة الى شفتيها ونفخت فيها ،
ووثبت فجأة بحالة لا شعورية عن مقعدها ، وأسرعت بخطى واسعة الى
الباب ، كأنها تريد أن ترجع بزاروف اليها . ودخلت خادم تلك اللحظة ،
تحمل صينية فوقها قنينة ، فسمرت مدام اودينتسوف في مكانها ، وأذنت
للخادم بالذهاب ، وعادت فجاست وغرقت في هواجسها . وانحل شعرها ،
وتدلت برفق خصلة منه على كتفيها ، وبقي المصباح يضيء في غرفتها طويلاً
بعد ذلك ، وظلت مدة طويلة دون حراك ، ولكنها لبثت تفرك يديها

بين الفينة والفينة ، فقد كانت برودة الليل تلذعها .

ورجع بزاروف بعد ساعتين ، وحذاؤه مبلل بالنسدى ، منقوش
الشعر ، معكرو المزاج . ووجد أركادي بجانب منضدة ، ويده كتاب
ومعطفه مزرر حتى العنق .

فقال له بلهجة غير مرضية : « أرى أنك لم تتم ؟ »

فقال أركادي دون أن يجيب على سؤاله : « لقد بقيت مدة طويلة مع

أنا سيرجيفنا هذه الليلة . »

« أجل لقد بقيتُ معها طيلة المدة التي كنت تعزف خلالها على البيان

مع كاتيا . »

فقال أركادي : « إنني لم أعزف . » ثم توقف ، فقد شعر بأن

الدموع قد ملأت عينيه ، ولم يشأ أن يبكي أمام صديقه الساخر .



الفصل الثامن عشر

وفي الغداة ، عندما ظهرت مدام اودينيتسوف صباحاً لتناول الشاي ، ظل بزاروف مدة طويلة مكباً على شايه ، ثم على حين فجأة ، رفع عينيه اليها ... فالتفت نحوه كما لو كان قد لسمها ، وخيل اليها أنها قد ازدادت شحوباً على شحوبها في الامسية . ثم أسرعت فهرعت الى غرفتها ، ولم تظهر حتى وقت الغداء ... وكانت السماء تمطر منذ الصباح ، وعلى ذلك فلا مجال للزهة الصباحية . فاجتمعوا في الثوي . وأخذ أركادي العدد الأخير من مجلة ، وشرع يقرأه بصوت عالٍ . أما الأميرة ، فتنبهاً لعادتها ، حاولت أن تظهر على وجهها إمارات الدهشة ، كما لو كان قد ارتكب عملاً لا يليق بتمدين ، ثم حدجته بعينها الحبيشتين ، ولكنه لم يلتفت اليها .

قالت المدام : « يا ايفاجي فاسيليتش تعال الى غرفتي . أريد أن أسألك . لقد حدثني أمس عن أحد الكتب المدرسية . »

ثم نهضت وتوجهت الى الباب . فتلفت الأميرة حوالها ، ولاحظت كأنها تقول : « انظروا اليه ، كم أنا متعجبة غاضية ؟ » ثم نظرت ثانية الى أركادي . ولكنه رفع صوته ، وتبادل نظرة مع كاتيا الجالسة بقربه ، واستمر في قراءته .

سارت مدام اودينتسوف الى غرفتها بخطى سريعة . وتبعها بزاروف دون أن يرفع عينيه ، مصغياً الى الهمس الذي لا يكاد يدركه السمع ، الى هفيف ثوبها الحريري الذي كان ينساب أمامه . وجلست في كرسيها ، واتخذ بزاروف جلسته في مكان الأمس .

قالت بعد لحظة من الصمت : « ما كان اسم ذلك الكتاب ؟ »
فأجاب بزاروف : « بيلوس وفريمي ، مبادئ عامة . وأستطيع أن أوصيك أيضاً بكتاب جانو ، بحث أولي في الفيزياء العملية ، إن رسومه واضحة ، وفضلاً عن ذلك فان هذا الكتاب ... »

فمدت ذراعها وقالت : « ايناجني فاسيليتش ، اعذرني ، لم أسألك القدوم لأجل أن تتكلم عن الكتب المدرسية . بل بودي أن تتابع حديث الأمس . فقد تركتني بصورة فجائية ... أرجو أن لا يضجرك ذلك . »
« أنا مستعد لخدمتك . ولكن فيم كنا نتكلم أمس ؟ »

فألقت عليه نظرة زائغة وقالت : « أظن أن البحث كان يدور حول السعادة . ولقد حدثتك عن نفسي ، وما دمت قد ذكرت كلمة السعادة هذه ، فينبغي أن أسألك سؤالاً . لماذا يلوح ، حتى عندما تأخذنا نشوة الموسيقى ، أولذة سهرة جميلة ، أو حديث أشخاص خفيفي الروح ، مثلاً ، لماذا يلوح لنا كل ذلك إشارة وإلماعاً الى سعادة لانهائية ، ولكنها بعيدة عنا في جهة ما ، ومعنى ذلك أن السعادة موجودة حقيقة ، ولكننا لا نملكها في الواقع . كيف أوضح هذا ؟ ولكن ربما كنت لا تشعر بمثل هذا الشعور ؟ »

فأجاب بزاروف : « إنك تعلمين ما يقوله المثل : (لا وجود للسعادة إلا حيث لا يوجد أحد) ألم تقولي بالأمس بأنك لم تشيعي رغباتك ؟ ولكن فضلاً عن ذلك فإن الحقيقة كل الحقيقة أن أفكاراً كهذه لا يحتاج بها خاطري . »

« اعلما تبدو لك مضحكة سخيفة . »

« كلا ولكنها لا تدور في رأسي قط . »

« أصبح ذلك ؟ أتدري بأنني كلفة جداً بمعرفة ما تفكر به أنت ؟ »

« ماذا ؟ انني لا أفهمك . »

« إصغ إنني أشتهي ، منذ أمد طويل ، أن أفتاهم معك ، ولست

بحاجة لأن أقول انك رجل تختلف عن سائر الرجال ، أنت تعرف ذلك

تمام المعرفة . إنك شاب . وما تزال الحياة أمامك برمتها ، فعلام عقدت

عزمك ؟ ما سيكون مستقبلك ؟ أريد أن أقول ما هو الهدف الذي تقتفيه ؟

الى أين ستذهب ؟ ، وما عمق روحك ؟ وبكلمة واحدة ، ما أنت ،

ومن أنت ؟ »

« انك تحيريني ، فأنت تعلمين كل العلم بأنني أدرس العلوم الطبيعية ...

من أنا ؟ »

« نعم ، من أنت ؟ »

« سبق أن قلت لك ، طيب المركز في أحد الأقاليم . »

فندت عنها حركة تدل على نفاد الصبر وأجابت : « لماذا تقول ذلك ؟

انك لا تصدقه أنت نفسك . إن أركادي هو من يجب مثل هذا الجواب ،

ولكن أنت ... »

« وما دخل أركادي بما نحن فيه ؟ »

« دعنا من هذا . أمن الممكن أن يرضيك هذا المجال المتواضع جداً من النشاط ؟ ألم تقل لي مراراً بأنك لا تؤمن بالطب ؟ ما هو طبيب الاقليم بالنسبة اليك ، أنت المترع بالنشاط . إنك تجيب هكذا لتتخلص مني ، لأنك لا تثق بي مطلقاً . ورغم ذلك لا أستطيع أن أفهمك يا ايفاجني فاسيليتش ، لقد كنت أنا أيضاً ، فقيرة زاحرة بالطموح مثلك . ولكن لعاني قد اجتزت نفس المحن ... »

« كل هذا غاية في الحسن ، يا انا سيرجيفنا ، ولكن أستميحك العذر ... إني لم أعود أن أعترف ، وعلاوة على ذلك ، والكلام بيني وبينك ، إن البون شاسع جداً بيننا ... »

« البون ؟ أتريد أن تقول لي بأنني أرسقراطية ؟ إني أعتقد بأنني

قد برهنت لك ... »

« وثم ، ما جدوى الكلام ، والحلم بمستقبل أمره ليس بيدنا أغلب الأحيان . اذا واثت الفرصة بعمل شيء فنعما هي ، والا ، فلنكن على أقل تقدير سعداء بأننا لم نثرثر عبثاً . »

« تسمي إذن حديثي الودي ثرثرة ؟ إنك تعتقد بأن المرأة غير أهل

لثقتك ؟ لأنك تحتقرنا جميعاً ، أليس كذلك ؟ »

« إني لا أحتقرك يا انا سيرجيفنا ، وأنت تعلمين ذلك جيداً . »

« كلا ، إني لا أعلمه ، ولكن فلنفرض أنني لا أفهم بأن لا رغبة

لك في التحدث عما ستعمله في المستقبل ، ولكن حدثني بما يعمل في نفسك الآن ... »

« ما يعمل في نفسي ؟ لعله موضوع دولة أو مجتمع ، ومهما يكن الأمر فإن ذلك لا يفيد شيئاً . وعلاوة على ذلك ، هل يستطيع الرجل دائماً أن يصرح بما يعمل في نفسه ؟ »

« إنني لا أدري لماذا لا يستطيع الناس أن يقولوا كل ما في قلوبهم . »
فسألها بزاروف : « أتستطيعين أنت ذلك ؟ »

فأجابت بعد لحظة من التردد « نعم »

فخفض رأسه وقال : « أنت أسعد مني . »

فرفعت إليه نظرة متسائلة وأجابت : « كما تشتهي ، ولكن شيئاً ينبئني بأن اقترابنا من بعضنا ليس جزافاً ، ولا بدون سبب وأنا سنكون صديقين حميمين . إنني متأكدة بأنه بمرور الزمن ... كيف أقول ؟ أقول إن تصلبك وتحفظك سيختفيان . »

« هل وجدت في تحفظاً ، وماذا قلت بعد ؟ تصلب ؟ »

« نعم . »

فنهض واقترب من النافذة وقال : « أفأنت تريدين أن تعلمي سبب

هذه الحيلة ؟ أتريدين أن تعرفي ما يعتلج في نفسي ؟ »

فأجابت بفزع غامض « نعم »

« أفلا تمتعضين ؟ »

« كلا . »

« كلا ؟ . » وأدار لها ظهره : « إعلمي إذن بأنني أحبك حباً
ضارياً ... جنونياً ... هذا ما أردت أن تتمزعيه مني انتزاعاً . »
فدلت ذراعيها الى الأمام . وأسند بزاروف جبينه الى الزجاج . وكان
يختنق ، ويرتعش جسمه . ولم يكن هذا الانفعال انفعال الشاب الحجول ،
ذلك الخوف الذي يبدو على الشاب لأول اعترافه بالحب ، بل كانت تلك
العاطفة ، التي تعتلج في نفسه ، عاطفة قوية مؤلمة ، تشابه الكره والبغضاء ،
وربما كانت قريبة منهما ... وشعرت أنا في الوقت نفسه بالفرع منه
والاشفاق عليه .

فقالت وقد أشرب صوتها بحنان لا إرادي : « ايفاجني فاسيليتش . »
فاستدار بحرارة ، وألقى عليها نظرة نهمة ، وقبض على يديها الاثنتين ،
وجرها بفظاظة الى صدره .

ولم تستطع الافلات من تطويقه في الحال ... ولكنها تمكنت بعد
بضع ثوان ، أن تهرب الى الزاوية المقابلة من الغرفة ، وهي تنظر اليه .
فهجم عليها ...

فهمهمت بسرعة عظيمة وهي مرعوبة : « إنك لم تفهمني » ولو خطا
خطوة أخرى لصرخت ، على وجه التأكيد ...
فعض على شفتيه وخرج .

وبعد نصف ساعة من ذلك ، حمل خادم الى انا سيرجيننا بطاقة من
بزاروف تحتوي على هذا السطر الوحيد : « أينبغي عليّ أن أرتحل
هذا اليوم ؟ أم بوسعي أن أبقى الى الغد ؟ » فأجابته : « لم ترتحل ؟ إنك

لم تفهمني وأنا لم أفهمك . » وقالت لنفسها : إنني لم أفهم نفسي أنا نفسي . »
ولم تظهر حين تناول الغداء ، وكانت تروح وتغدو في غرفتها ،
ويدها خلف ظهرها ، وتقف بين حين وآخر ، سواء أمام المرأة ، أم
أمام النافذة ، وتمسح بتباطؤ رقبتها بمنديلها ، حيث كانت تتصور أنها
تشعر ببقعة محترقة . وسألت نفسها عما حملها على إرغامه على البوح بما في
ضميره ، وأن يفصح عما بنفسه ، وعما اذا كانت هي نفسها لم تشابهه
بحالته . وقالت بصوت مرتفع : « إنها غلطتي ، ولكن لو كنت أعلم الغيب
لاستكثرت من الخير ... » وحاولت أن تسخر وهي تستعيد ذلك التعبير
الحيواني تقریباً ، الذي انطبع على وجه بزاروف عندما هجم عليها .
ثم قالت فجأة : « آه . » وتوقفت وهي تهز جداول شعرها .
ورأت نفسها في المرأة . وكان رأسها مندفعاً الى الخلف . وخيل اليها
أن الابتسامة الغامضة لعينيها المقلتين الى النصف ، ولشفثيها نصف
المفتوحتين ، تمنيهما تلك اللحظة بأشياء غريبة جداً تثير القلق
في نفسها .

ثم قالت أخيراً بعزم واصرار : « كلا ، الله وحده يعلم الى أين
سيجبرني هذا ، إنه رجل لا يمكن اللعب معه ، إن السلام والطمأنينة
خير شيء في العالم . »

إن طمأنينتها لم يعكر صفوها معكر ، ولكن الحزن تملكها ، بل
لقد سفحت بعض الدموع دون أن تدري لذلك سبباً ، وعلى كل حال ،
فإن ذلك لم يكن لمسح إهانة ، إذ لم تشعر بأنها قد أهينت ، ولكنها

شعرت بأنها قد أُجْرمت . إن العواطف المضطربة في نفسها ، ومللها
من مجرى الحياة الرتيب الذي لا دواء له ، ورغبتها في الجدة كل ذلك
جعلها تندفع الى حدٍ ما ، فلما ألقت نظرة الى ما بعد ذلك ، لم تشاهد
هوة ، ولكنها أبصرت الخواء المريع ، بل الثورة الجامحة .

الفصل التاسع عشر

بالرغم من أن مدام ادينيسوف كانت مهيمنة على نفسها ، متغلبة على عواطفها ، إلا أنها شعرت بضيق شديد عندما دخلت غرفة الطعام . ومع ذلك فقد كان كل شيء ، أثناء الطعام ، على ما يرام . وجاء بورفيري بلاتونيتش ، وقص عليهم لطائف ونوادر مسلية ، وكان قادماً من المدينة . ومما رواه أن الحاكم بوردالو قد أزم الموظفين التابعين له ، أن يلبسوا المهامير عساهم أن يمتطوا خيولهم ، للقيام ببعض المهام المستعجلة ، وذلك أدعى للسرعة . وكان أركادي يحادث كاتيا هامساً ، بمنتهى الكياسة والذوق ، ويقدم للأميرة خدمات صغيرة . أما بزاروف العبوس فقد التزم الصمت بعناد واصرار . وحديثه مدام اودينيسوف بنظراتها مرة أو مرتين ، وما فعلت ذلك حذرة ، بل حدقت علناً بوجهه القاسي المر ، ذي العينين المغضبتين ، ذلك الوجه الذي طابعه الصلابة المتعجرفة ، وفكرت : « كلا ، وكلا وكلا » وبعد تناول الغداء خرجت الى الحديقة مع كافة الموجودين ، واذ رأت أن بزاروف يرغب في التحدث اليها ، خطت بضع خطوات الى الأمام ، وتوقفت .

فاقترب منها ، وعيناه ما زالتا مغضبتين ، وقال بصوت لا يكاد يسمع
« أقدم لك اعتذاري يا انا سيرجيفنا . لا بد أن تكوني غضبي مني . »
فأجابته : « كلا ، يا ايفاجني فاسيليتش ، لست غضبي ، بل حزينه . »
« هذا أسوأ وعلى كل حال فقد عوقبت بما فيه الكفاية . إن وضعي
يسير من سيء الى أسوأ ، لقد أطعمتك إذ كتبت لي تقولين : « لماذا تسافر ؟ »
إلا أنني لا أستطيع البقاء ولا أريده . وغداً لن أكون هنا . »
« ايفاجني فاسيليتش ، لماذا ؟ »

« لماذا أسافر ؟ »

« كلا ليس ذلك ما أردت أن أقول . »

« لا مرد لما مضى يا انا سيرجيفنا ... كان لا بد أن يحدث ما حدث
عاجلاً أو آجلاً . وعلى ذلك ، فيجب عليّ أن أرحل ، ولن أستطيع
البقاء إلا على شريطة واحدة . وهذه الشريطة لن تتحقق أبداً . إغفري
جرأتي ، واسكنك لا تحبينني قط ، أليس كذلك ؟ وانك لن تحبينني
أبداً ؟ »

وتأملت عينا بزاروف شرراً تحت حاجبيه الأسودين .

فلم تجب . ولكن راودها هذا الخاطر : « إن هذا الرجل يخيفني . »
وقال بزاروف : « الوداع إذن » وكأنه حزر ما في ضميرها ، وتوجه
صوب المنزل .

فتبعته بخطوات بطيئة ، ونادت كاتيا ، وأمسكت بذراعها ، ولم تفلته
حتى المساء . ولم تلعب الورق ، ولكنها ضحكت كثيراً وما انسجم ذلك

مع وجهها الشاحب القلق . ولم يفقه أركادي من حالتها شيئاً ، وظل ينظر إليها كما ينظر الشبان جميعاً ، ولعله كان يسائل نفسه باستمرار : ما معنى ذلك ؟ » وحبس بزاروف نفسه في غرفته . ولكنه هبط لتناول الشاي . وقد حاولت مدام اودينتسوف جهدها أن توجه إليه كلمة طيبة ، ولكنها لم تدر كيف تستهل حديثها .

وأُنقذها من هذه الحيرة ظرف طاريء ، فقد أعلن الخادم قدوم سيتنيسكوف .

من الصعوبة بمكان أن تتصور قدوماً باعثاً على العجب أكثر من قدوم هذا الشاب التقدمي . لقد عزم بكل بساطة وبرود ، وتلك شنشنة نعرفها عنه ، على زيارة امرأة لا يكاد يعرفها ، والتي لم يسبق لها أن دعت قط . ولكنه كان يدري أن عندها قد اجتمع القوم المثقفون الذين له معرفة بهم . ولم تكن دهشته ولا استحيائه أقل من غرابة زيارته ، وبدلاً من تقديم الاعتذارات والتحيات التي كان قد هيأها ، همهم ببعض السخافات : « إن افدوكسيا كوكشيننا قد توسلت اليّ أن أستقصي أخبار انا سيرجيفنا ... وكذلك عن أركادي نيكولايفيتش » وتكلم عن الأخير بألقاب التفخيم . وزيادة على ذلك فقد وصل اضطرابه وارتباكاه الى حد أن جلس فوق قبعته . ولكنه ما لبث أن استعاد هدوءه . لما وجد أنهم لم يطردوه ، بل احتفوا به ، حتى أن انا سيرجيفنا قد قدمته الى خالتها وأختها ، فلم يدركه الفشل . إن للحماقة في هذا العالم منفعة أغلب الأحيان . إنها ترخي الأعصاب المتوترة توتراً شديداً ، وتعيد العواطف

الجامحة الى توازنها . وذلك لأنها تذكر الانسان بما هو شديد الارتباط
بهذه العواطف . فبعد مجيء سيتنيكوف بدا كل شيء ، وكأنه قد خمد
وأصبح أكثر تفاهة ، وأشد بساطة ، فتناولوا عشاءهم بأحسن شهية ،
وآووا في المساء الى مضاجعهم ، مبكرين نصف ساعة قبل المعتاد .

قال أركادي وهو في سريرته مخاطباً بزاروف الذي كان قد تخفف
من ثيابه : « الآن قد جاء دوري لأعيد عليك ما قلته لي يوماً :
لم أنت حزين هكذا ؟ إنك تلوح كمن قد أخذ على نفسه أن يقوم بأداء
واجب خطير مقدس ؟ »

كان هذان الصديقان قد شرعا منذ مدة في ممارسة المباحة بحرارة
ونشاط زائفين ، وتلك علامة أكيدة على عدم الوفاق ، أو على وجود
شكوك بينهما ، لم يتعاونوا فيزيلاها بالافصاح عنها .

قال بزاروف : « سأذهب الى بيت أبي غداً . »

فاستند أركادي الى وسادته ، وكان قد اعتدل ، وقد أدهشه هذا
الخبير ، كما أبهجه في آن واحد .

فأجاب : « آه . إذن فهذا ما يجعلك حزينا ؟ »

فقال بزاروف وهو يتأهب : « ما أشد حب الاستطلاع عندك !

سوف تشيخ قبل الأوان . »

فأجاب أركادي . « وانا سيرجيفنا ؟ »

« ما خطبها ؟ »

« هل تدعك تسافر ؟ »

« لست طوع أمرها . »

فشرع أركادي يفكر ، واستدار بزاروف الى الحائط .

ومرت دقائق من الصمت ، وصرخ أركادي بغتة : « ايفاعني ؟ »

« ماذا ؟ »

« سأسافر معك . »

فلم ينبس بزاروف ببنت شفة . وأردف أركادي : « أما أنا فسأعود

الى المنزل . وسوف تقطع الطريق سووية حتى نبلغ خوخلوفو ، ومن هناك

سنأخذ جياداً من عند فيدوت . وبودي أن أتعرف الى أهلك . ولكنني

أخشى أن أزعجهم وأزعجك ، وبعد ذلك هل سترجع لرؤيتنا ؟ »

فأجاب بزاروف دون أن يلتفت : « لقد تركت كل حوائجي

في بيتك . »

وفكر أركادي : « لماذا لم يسألني عن علة سفري ، سفري بهذه

السرعة كسفره ؟ والواقع ، لماذا أسافر أنا ، ولماذا يرحل هو ؟ »

ولم يستطع أن يجد لسؤاله جواباً شافياً ، وامتلاً قلبه غماً . وشعر بأنه

يصعب عليه أن ينتزع نفسه من هذه الحياة التي اعتادها جداً ، ولكن

كيف يبقى وحيداً ؟ وفكر : « لابد أن تكون قد حدثت بينهما أشياء »

واذا سافر صديقه ، أفيامكانه أن يبقى وحده ، إنها لا تريده وسيؤدي

ذلك الى القطيعة ، وسأكون قد أضعت كل ماتبقى لدي . » واستحضر

في ذهنه صورة انا سيرجيفنا ، ولكن ملامح أخرى ، كسفت ، في الحال ،

وجه الأرملة الجميلة ... وهمهم أركادي ورأسه على الوسادة ، وقد سالت

دمعته : « واأسفاه على كاتيا » ولكنه دفع رأسه الى الوراء بشدة ،
وقال بصوت مرتفع :

« أي شيطان دفع بهذا المعتوه سيتنيكوف ؟ »

وتحرك بزاروف في سريره وقال أخيراً : « أرى ، يا شيخي ،
بأنك ما زلت حيواناً . إن أمثال سيتنيكوف لا غنى لنا عنهم . إذن فاعلم
أنني بحاجة الى معاتيه من أشباهه (ليس على الآلهة أن تفخر الطين) ^(١) »
فقال أركادي لنفسه : « يا للعجائب يا للعجائب » واستطاع في تلك اللحظة
أن يتبين مدى أنانية صديقه وحبه العظيم لذاته .

« إذن فنحن إلهان ؟ أو بالأحرى ، أنت إله . وأرجو ألا أكون
المعتوه الذي تعنيه ؟ »

فأجاب بزاروف عابساً : « نعم أنت ما زلت معتوهاً . »

لم تظهر مدام اودينتسوف دهشة قط عندما أفضى اليها أركادي صباحاً
بأنه سيرحل مع بزاروف ولاح عليها كأنها متعبة ذاهلة . ونظرت اليه
كاتيا بذهول وامعان ، في سكون ، ورسمت الأميرة علامة الصليب تحت
شالها بصورة خاصة ، أما سيتنيكوف فقد أهاجه الخبر تماماً . وكان قد
نزل لتناول الطعام بثوب غاية في الأناقة ، لا يحوي هذه المرة شيئاً من
الطراز السلافوفيلي ، وكان قد أدهش الخادم ، الذي ألحق بخدمته في
الليلة المنصرمة ، بكمية الملابس التي جلبها معه . وها هم أولاء أصدقاؤه

يتركونه . فأخذ يضرب الأرض بقدمه وهو في مكانه ، متردداً كأنه
أرنب يطارده الصياد ، ثم أعلن فجأة ، وعليه علائم الارتباك والقلق ،
وصوته يكاد يكون صراخاً ، بأنه قد صمم على السفر هو أيضاً . فلم
تعترض مدام اودينيتسوف .

وقال الفتي التمس لأركادي : « إن مركبتى فارهة جداً وباسيطاعتي
أن أحملك الى أهلك . أما ايفاجني فاسيليتش فسيأخذ مركبتك ، وهذا
ملائم مناسب . »

« أترى ذلك ؟ إن هذا الطريق ليس طريقك البتة ، وهو بعيد
جداً عن بيتك . »

« وما في ذلك ؟ إن الوقت كله لي . وفضلاً عن ذلك ، فإن أعمالي
تدعوني الى أن أسلك هذه الناحية . »

فسأله أركادي وهو لا يخفي احتقاره : « أعمال تجارة الحمرة ؟ »
ولكن سيتنيكوف كان قد أسقط في يده ، فلم ينفجر ضاحكاً ،
خلافاً لعادته .

ودمدم : « أوكد لك ان مركبتى هي الراحة بعينها ، وفيها
متسع للجميع . »

قالت انا سيرجيفنا : « لا ترفضوا عرض مسيو سيتنيكوف ولا
تجرحوا شعوره . »

فخدجها أركادي بنظرة وخفض رأسه علامة الموافقة .
وكان السفر بعد تناول الطعام . وبعد أن قالت مدام اودينيتسوف

وداعاً ، مدت يدها لزاروف قائلة : « الأيام بيننا ، أليس كذلك ؟ »
فأجابها : « الأمر يتعلق بك . »

« إذن الأيام بيننا . »

كان أركادي أول من بلغ الباب وصعد الى مركبة سيتنيكوف .
وأعانه رئيس الخدم على الصعود ، وكان يعتمل في نفسه شيئان متناقضان ،
سرور قوي ، ورغبة في بكاء مر ، وتبوءاً لزاروف مقعده في المركبة .
وعندما وصلوا الى خوخلوفسكي ، انتظر حتى استبدل فيدوت ، مدير
المحطة ، الجياد ثم اقترب من المركبة بابتسامته المعهودة قائلاً : « خذني
يا ايفاجني ، فبودي أن أذهب معك الى دارك . »

قدم لزاروف : « إصعد . »

أما سيتنيكوف الذي كان يطوف حول مركبته صافراً بمرح
واغتباط ، فقد فغر فاه لدى سماعه تلك الكلمات . ولكن أركادي كان
قد سحب أمتعته من المركبة ، وذهب فجاس بجانب لزاروف ، ثم حيا
بلطف وبشاشة ، صاحبه السابق في السفر ، وصاح : « الى الأمام »
فاهتزت المركبة وغابت عن النظر في الحال .

فالتقى سيتنيكوف نظرة على حوزيه وقد بلغ به الأسى مبلغه ، ولكن
الحوزي كان مشغولاً عنه في قرعة سوطه على ذيل الحصان ، وعندها قفز الى
مركبته وصرخ بفلاحين عابرين : « أعيد اقبعتي كما الى رأسيكما أيها الأحمقان »
ووصل الى المدينة متأخراً جداً ، وغداة ذلك اليوم زار افدوكسيا
كوفشكينا ، وحمل حملة شعواء على « الشيخين المتعجرفين الكريهين . »

وبعد أن جلس أركادي بجانب بزاروف ، شد على يده بقوة ، وبقي مدة لا يفوه بكلمة ، فأدرك بزاروف مغزى هذا السكوت والشد على المعصم ، دون شك ، وتأثر بذلك . ولم يكن في الليلة الماضية قد نام أو دخن ، وما كان قد تناول طعاماً كافياً منذ عدة أيام تقريباً . وكان منظر وجهه الجاني المظلم الناحل ، يظهر وحشياً من تحت قبعته التي غطس فيها رأسه الى أذنيه . وقال أخيراً : « اعطني سيكارة يا شيشي ، وانظر . لا بد أن يكون لساني أصفر . »

فأجاب أركادي : « الواقع انه أصفر . »

« طيب وللسيجار طعم كريه . لقد تلفت الماكنة . »

فقال أركادي : « نعم . لشد ما تغيرت في هذه الأيام الأخيرة . »

« لا خير . وسأعود كما كنت . لا يقلقني إلا شيء واحد ، حاجة

الوالدة ، إذ تقوم قيامتها اذا لم تجدني مبطناً ، واذا لم آكل عشرمرات في اليوم . أما أبي فلا بأس به ، لقد جاب العالم ، ورأى فيه من الألوان ما رأى » ثم أضاف مؤكداً : « محال أن أدخن . » وقذف بسيجاره الى التراب .

وسأل أركادي : « أتسكن على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من هنا ؟ »

« نعم . والأولى أن تسأل هذا الحكيم » وأشار الى الموجيك

الجالس فوق المقعد .

ولكن الحكيم اكتفى بأن قال : « يا صريم العذراء لا أعلم . إن

الفراسخ هنا ليست معينة . » ثم أخذ يدمدم بصوت خافت مع السائق

الذي كان مواظباً على إلهاب أعطاف الحيل بالسياط .

وأضاف بزاروف : « نعم . نعم . فليكن هذا درساً ومثالاً ،
يا صديقي اليافع . والى الشيطان بهذه البلاهات . إن الانسان مربوط
بخيطة ، ومن المتوقع في كل لحظة أن تفتح تحت قدميه هوة ، ومع ذلك
فهو يفكر بألف حماقة لتسميم الوجود . »

فسأل أركادي : « الى مَ تشير ؟ »

« الى لا شيء . أقول بلا مواربة بأنني أنا وأنت مقودان كما يقاد
المغفلون والبله . هذا هو الواقع ، ولكنني لاحظت في المستشفى أن
المريض الذي يتمتع من مرضه ، ينتهي دائماً بالانتصار على المرض . »
فقال أركادي : « لا أفهمك جيداً . يخيل اليّ أنه لم يكن لديك شيء
تشكو منه . »

« ألا تفهمني جيداً ؟ سأقول لك إذن رأيي . خير لك أن تكسر
الحجارة في الطريق العام ، من أن تسمح لامرأة أن تستحوذ ولو على
اصبعك الصغرى . وكل هذا كما ترى ، هو » وكان على وشك أن يقول ،
أمر خيالية ، كلمته المحببة ، ولكنه استدرك وأضاف : « حماقات . لن
تصدقني الآن ، ومع ذلك فأقول لك ، لقد وجدنا أنا وأنت في مجتمع
النساء . ذلك وحقق حلوليد ولكن اذا انتزعت نفسك منه ، فكأنك
تأخذ حماماً بارداً في نهار ملتهب . على الرجل أن يشغل نفسه بغير هذه
الحماقات . على الرجل أن يكون ضارياً كما يقول المثل الأسباني الرائع »
وأضاف مخاطباً الحوزي : « أنت مثلاً . عندك امرأة أليس كذلك ؟ »

فأدار هذا وجهاً مفلطحاً وعينين كعيني الخلد وقال : « امرأة ،
لا شك أن عندي امرأة ، امرأة واحدة . »

« أتضربها ؟ »

« امرأتي ؟ يحدث أحياناً . ولكني لا أضربها دون سبب . »

« طيب . وهل تضربك هي ؟ »

فشده الفلاح ، وقرقع السوط على أعطاف الحيل مستنكراً : « إنك
تتهكم يا مولاي . يلوح لي أنك تريد أن تضحك » قال هذا وقد بان
على وجهه الامتعاض .

« أسمع يا أركادي نيقولا يافيتش . لقد ضربنا نحن الاثنين ... وهذا

هو مصير المثقفين المستنيرين . »

ضحك أركادي ضحكة مغتصبة ، أما بزاروف فقد أشاح بوجهه ،
ولم يفتح فاه بقية الرحلة .

طالت هذه الخمسة والعشرون فرسخاً على أركادي حتى خلاها خمسين
فرسخاً . ولكن على حين غرة لاحت القرية الصغيرة ذات السفح الرائع
المنحدر من ربوة ، حيث يسكن أهل بزاروف ، وسط أجمة من أشجار
السدر الفتية ، هنالك يرتفع بيت السيادة ذو السقف القشي ، وكان أمام
العزبة اثنتان من الموجيك ، وفوق رأس كل منهما طاقية ، وهما يتشاثمان .
قال الأول : « لست إلا خنزيراً ضخماً . وإنك أشد حيوانية من

خنوص . » فرد عليه الثاني : « ما زوجتك إلا ساحرة . »

فقال بزاروف لأركادي : « هذا السلوك غير المتكلف ، وما في هذا

الشجار من مضحكات ، دليل كاف على أن الفلاحين عند والدي لا يظلمون .
ولكن ها هو ذا نفسه يخرج الى مدرج الباب . لابد أنه قد سمع
الأجراس . إته هو ، انني أعرفه ، ولكن شد ما ابيض شعر هذا
الشيخ المسكين ! »

الفصل العشرون

مال بزاروف خارج المركبة ، ومد أركادي عنقه من فوق كتف صديقه ، فرأى رجلاً كبيراً ضعيفاً على عتبة باب بيت ريفي ، أشعث الشعر أقي الأنف ، في معطف عسكري عتيق مفكك الأزرار ، منتصباً باعتدال على ساقين منفرجتين ، وكان يدخن غليوناً طويلاً ، ويغمز بعينه ليتقي وهج الشمس .

وقفت الجياد . وقال والد بزاروف وهو مستمر على التدخين : « أهذا أنت أخيراً ؟ » وكان غليونه يتراقص بين أصابعه : « هيا انزل ودعني أعانقك » وسمع صوت يهتز انفعالاً : « انيوشا . انيوشا . » وانفتح الباب ، وظهرت على الوصيد عجوز قصيرة ، ضخمة بدنية ، معتمة بطاقةية بيضاء ، مرتدية صدرية ذات ألوان صارخة . وأطلقت صيحة وترنحت ، وكادت أن تسقط لولا أن أسندها بزاروف . وانعقد ساعداها في الحال حول عنق ولدها ، وضمت وجهه الى صدرها ، وكان صمت طويل ، لا تسمع خلاله إلا جهشات الأم العجوز المتقطعة .

وتنفس الأب بصعوبة ، ورفرت عيناه كثيراً ، ثم تبادل نظرة مع

أركادي وقال : « هيا . هيا يا اريشا . حسبك . » وكان أركادي واقفاً قرب المركبة ، على حين أن الفلاح المتبويء مقعد السائق ، أدار وجهه متأثراً ، وأردف الأب : « ماذا تصنعين ؟ كفي أرجوك . »

فهمهمت : « آه يا فاسيلي ايفانوفيتش . لم أره منذ دهور ، وا حر قلباه ... انيوشكا المحبوب ، ولدي العزيز . »

وأبعدت وجهها المغضن المسكين عن ولدها دون أن تحمل عنه ذراعها ، وجهها المبلل بالدموع ، الطافح حناناً ، وأجالت فيه نظراتها بعينين مترعتين بالأشواق ، فيهما شيء يضحك ، ثم ضمت نفسها اليه من جديد . فقال فاسيلي ايفانوفيتش : « انني أعلم جيداً أن هذا من طبيعة الأشياء ، ولكن فلنعد الى أنفسنا ، إن ايفاجني قد أتى معه بصديق . » ثم أضاف وهو يحيي أركادي ويقول : « إنك تفهم ضعف النساء قلب الأمهات ... »

ولكن شفتيه وحاجبيه تحركت منفعة دون إرادته ، وارتعشت لحيته ... وبذل مجهوداً ظاهراً لكي يسيطر على نفسه ، ويلعب دور عدم الاكتراث .

فانحنى أركادي بدوره .

قال بزاروف : « هيا يا أماء ، ألق مع والدي . » وأسند العجوز الطيبة التي حطمها الانفعال . وبعد أن أجلسها جلسة مريحة ، عانق أباه مرة أخرى ، بصورة مستعجلة ، وقدم له أركادي .

قال فاسيلي ايفانوفيتش : « يسرنا جداً أن نتعرف عليك ، وكل

ما أرجوه هو أن تعذرنا . سوف لا تجد عندنا أشياء عظيمة ، إنما نعيش ببساطة ، كما في الجيش تقريباً . ولكن هدي روعك يا رينا فلا سيفنا ...
أهكذا تهازين ؟ لابد أن ينتقدنا المسيو على هذا الضعف .
فقالت العجور وهي غرقى بدموعها : « سيدي العزيز لم أنل شرف معرفة اسمك ولقبك ... »

فهمس فاسيلي ايفانوفيتش باحترام عميق : « أركادي نيتولا يافيتش .
« معذرة ليس الذنب ذنبى ... » وتمخطت ثم مالت يمنة ويسرة ،
ونشفت بعناية عينها ، الواحدة بعد الأخرى « اعذرني كنت خائفة جداً
أن أموت قبل رؤيته ثانية ... و... و... ولدي العزيز .
فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش بحرارة : « ولكنك رأيته ثانية
ياسيدي . » وأضاف موجهاً كلامه الى فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ،
حافية القدمين ، في ثوب أحمر صارخ ، وكانت واقفة على العتبة تنظر الى
المشهد بعين وجلة : « هاتي كأساً من الماء لسيدتك ، على صينية ، هل
سمعت ؟ » وأردف يخاطب الصديقين بعبارة التفخيم المعتادة : « وأنتما
أيها السيدان ، اسمحالي أن أدعوكما الى دخول مكتب عجوز متقاعد .
وقالت أرينا فلا سيفنا بصوت مكتئب : « دعني أقبلك مرة أخرى
يا اينوتشكا » فاتجه بزاروف نحوها فقالت : « لشد ما أصبحت
جميلاً . »

فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش : « اذا كان جميلاً أو غير جميل ، فهو
رجل ، رجل كامل الرجولة . والآن يا أرينا فلا سيفنا ، الآن وقدارتوى

فؤادك الأموي ، أؤمل أن تذهبي لتشتغلي باطعام ضيفينا ، لأنك تعلمين جيداً : أن القول الجميل لا يشبع حتى البلبل . »

فنهضت العجوز الصالحة وقالت : « ستكون المائدة معدة في الحال يا فاسيلي ايفانوفيتش ، سأهرع بنفسي الى المطبخ لأشير بأعداد السماور . وسيكون كل شيء جاهزاً . لم أره منذ ثلاث سنوات ، ولم أقدم له مشروباً ولا مأكولاً ، ثلاث سنوات ، يالها من سنوات .

» هيا اعلمي ما بوسعك ، ولا تخجلينا معهم ، وأتما أيها السيدان ، هلمنا . هو ذا تيموفيتش آت ليحييك ، يا ايفاجني ، لابد أن يكون هو أيضاً مغتبطاً ، أفهل أنت مبتهج ؟ هيا اعترف . هيا تعالا . »

وقادها فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يجر حذاءه البتي القديم وراءه ، على خشب البلاط بقرقة .

كان البيت بأجمعه يتكون من ست غرف صغيرة . وتسمى الغرفة ، التي قاد فاسيلي ايفانوفيتش اليها صديقنا الشابين ، المكتب . وتحوي منضدة ذات قوائم غليظة ، محملة بكمية من الأوراق يحسبها الراي داخنة بسبب الطبقة الكثيفة من الغبار التي تغطيها . وكانت هذه المنضدة تشغل المسافة بين الشباكين كلها ، وعلقت على الحائط بندقيتان تركيتان ، وسيوف ، وخريطتان كبيرتان ، ورسوم للتشريح ، وصورة لهافلند^(١)

(١) هافاندكريستوف (١٧٦٢ — ١٨٣٦) طبيب وعالم الماني

طبقت شهرته الآفاق .

وقطعة مكتوبة حياكة من شعر ، في اطار أسود ، ودبلوم مغطى بالزجاج .
وفي الغرفة أيضاً أريكة من الجلد ، قد نصل لونها وتمزقت في عدة أماكن ،
موضوعة بين خزانتيين واسعتين من خشب السدر من كاريليا . وكتب
وصناديق ، وطيور محشوة مخنطة ، ومقامم وقناني مبعثرة على الرفوف ،
وتلوح كذلك في احدى الزوايا بطارية كلفن الكهربائية ، مكسورة
غير صالحة للاستعمال .

شرع فاسيلي ايفانوفيتش يقول : « أحذرك يا زائري العزيز ، إننا
هنا كما لو كنا جنوداً في حملة تستريح في العراء ... »

فقاطعه بزاروف : « كفاك اعتذاراً . إن كيرسانوف يعلم جيداً بأننا
لسنا من آل قارون ، وأن بيتنا ليس قصرآ . وأنتك لست رئيس خدم ،
ولكن أين سنسكنه ؟ تلك هي المشكلة . »

« كن مطمئناً يا ايفاجني . يوجد في الجناح غرفة فاخرة سيراتح فيها . »
« ألك الآن جناح إذن ؟ »

فتدخل تيموفيتش قائلاً : « نعم هناك حيث يوجد الحمام . »
فأسرع فاسيلي ايفانوفيتش فصادق على قوله : « بل هي بجانبه .
إننا الآن في فصل الصيف . سأجري الى هناك . وسأذهب ، وسأسعى
في تهيئته ، وأنت يا تيموفيتش ، هات الأمتعة . وسأترك لك مكتبي ،
يا ايفاجني ، هذا أمر لا شك فيه . »

وقال بزاروف لما ابتعد أبوه : « أرايت ؟ إنه عجوز صغير يحمل
السلوى الى القلب ، وله قلب من ذهب . إنه غريب كأبيك ولكنه من

نوع آخر . وهو يفرط كثيراً في الكلام . »

فقال أركادي : « ويخيل اليّ أن أمك أيضاً ممتازة . »

« نعم إنها بسيطة طيبة . سوف ترى الغداء الذي ستصنعه لنا . »

وقال تيموفيتش ليزاروف وقد عاد بحقيقته يجرها جرّاً : « ما كنا

بانتظاركم اليوم ، ولذا فليس في الدار لحم بقر . »

« حسناً . سنستغني عن لحم البقر ، إذ لا التزام بمستحيل . وكما يقال

الفقر ليس برذيلة . »

فسأله أركادي بغتة : « كم يملك أبوك من الألقان ؟ »

« الملك ليس له ، بل لأمي . خمسة عشر قنّاً لا أكثر ، كما أظن »

فقال تيموفيتش : « إثنان وعشرون من فضلك . »

وسمع صوت خفق النعال ، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد ، فقال

بوقار : « بعد بضعة لحظات ستكون غرفتك جاهزة ، يا أركادي .

يقولوا يافيتش . أهكذا تسمى ؟ » ثم أضاف مشيراً الى صبي قد أتى معه ،

ذي شعر مقصوص قصير . يلبس قفطاناً أزرق ممزقاً من مرفقيه ، وحذاء

كبيراً : « هذا فيدكا لخدمتك . وأقول ثانية ، رغم أن ابني منعني

من ذلك ، أرجوك أن تكون حليماً متسامحاً . إن الخادم يستطيع حشو

الغلايين ... إنك تدخن أليس كذلك ؟ »

فأجاب أركادي : « أدخن السيكار على وجه التخصيص . »

« الحق كل الحق معك ، إني أنا أيضاً أفضل السيكار ، ولكن

الحصول عليه في غاية الصعوبة في زاويتنا هذه ... »

فقال بزاروف : « كفاك شكوى من الفقر والبؤس . تعال واجلس
على هذا الديوان . ودعني أتملى برؤيتك . »
فامتثل فاسيلي ايفانوفيتش الأمر ضاحكاً . وكان وجهه يشابه وجه
ابنه كثيراً ، ولكنه يختلف عنه بانخفاض جبهته وضيقها وبسعة في فمه .
وكان يحرك كتفيه دائماً ، كما لو كان رداؤه يضايقه من تحت الأبط ،
وكان يجول بعينه ، ويسعل ويحرك أصابعه ، على حين أن ابنه كان يتميز
بجمود وتعال .

وأعاد فاسيلي ايفانوفيتش : « أشكو البؤس ؟ لا تتصور يا ايفاجني
بأنني أريد أن أثير شفقة ضيفنا ، وأنني أريد أن أفهمه بأننا فقراء ، على
العكس ، إنني أرى أن وجود الفكر عند الانسان لا يجعله فقيراً ، وعلى
كل حال ، فاني أبذل كل ما في وسعي لكيلا أصدأ كما يقال ، أي أن
لا أتخلف عن ركب الزمن . »

وسحب من جيبه منديلاً حريراً أصفر جديداً كل الجدة . كان قد
أخذه وهو في طريقه عندما كان ذاهباً الى غرفة أركادي . وحركه في
الهواء واستمر قائلاً : « هكذا لقد أخذت الفلاحين بنظام الاستئجار ،
ووزعت عليهم الأرض ليشغلوا فيها بنصف الربيع . ولو كان ذلك قد
جر عليهم خسائر محسوسة . وأحسب أنني لم أفعل سوى الواجب . وأن
الذوق السليم البسيط يأمر بأن أعمل هكذا . ولو كان الملاكون
الآخرون لا يحملون بذلك . إنني أتبع الطرق العلمية ، وما تتطلبه
الثقافة . »

فقال بزاروف ملاحظاً : فعلاً إنني أرى لديك كتاب (صديق الصحة)

لسنة ١٨٥٥ . »

فأسرع فاسيلي ايفانوفيتش يقول : « لقد أرسله اليّ صديق قديم . »
وأضاف وقد توجه بصورة خاصة الى أركادي : « إننا نعلم ما هو علم
وظائف الدماغ وتأثيرها على قوى النفس ، فعلى سبيل المثال » وأشار
الى رأس من المرمر فوق خزانة ، قد قسمت حجمته الى مربعات صغيرة
مرققة . « نحن نعرف أيضاً شونلاين ورادماخر ^(١) »

فسأل بزاروف : « ألم يزل أهل الريف يؤمنون حتى الآن برادماخر ؟ »
فتضح فاسيلي ايفانوفيتش : « في الريف ... ؟ على وجه التأكيـد
أيها السادة . إنكم تعلمون أكثر مما نعلم ، وليس باستطاعتنا أن نفتفي
أثركم لأنكم أولئك الذين سيخلفوننا . وأتذكر في زماني ، بأن العالمين
هوفمان وبراون ^(٢) صاحبي نظرية الحيوية ، كنا نعدّها من المضحكين ،
ومع ذلك فإن زمنهما كان يلهج بذكرهما ، وقد جاء باحث جديد أنزل

(١) شونلاين يوهان لوكاس (١٧٩٣ — ١٨٤٤) ورادماخر
(١٧٧٢ — ١٨٤٩) طبيبان ألمانيان .

(٢) هوفمان طبيب ألماني شهير ، مكتشف داء النقرس الذي يحمل
اسمه (١٦٦٠ — ١٧٤٢) وبراون جون (١٧٣٥ — ١٧٨٨) طبيب
إيقوسي ، صاحب نظرية طبيعة (الحوية) مؤداها أن الحياة هي نتيجة
قوة مستقلة عن المادة .

رادماخر عن عرشه ، فأتم تمنحون لهذا احتراماً . ولكن سيأتي دور
 هذا أيضاً بعد عشرين عاماً ، ويأتي من يسخر منه . »
 فقال بزاروف : « اذا كان ذلك يسليك ، فسأقول لك بأننا نسخر
 الآن من الطب بأجمعه ، وأننا لا ننحني أمام أحد . »
 « كيف ؟ ومع ذلك تريد أن تكون طبيباً . »
 « ثم ماذا ؟ هذا لا يمنع ذلك . »

فأدخل فاسيلي ايفانوفيتش احدى أصابعه في غليونه وراء بقايا الرماد
 الساخن وقال : « ربما ، ربما ، لا أريد أن أناقش . من أكون ؟ جراح
 عسكري متقاعد ، وقد جعلني الحظ الآن مزارعاً . » وأضاف متوجهاً
 مرة أخرى الى أركادي : « لقد اشتغلت في فرقة جدك ، آه كم رأيت من
 العجائب في حياتي ؟ هل بقيت مجتمعات لم أغشها ، أو لم أخض غمارها ؟
 وها أنذا كما تراني . لقد جسست نبض الأمير ويتجنشتاين (١)
 وجوكوفسكي (٢) وفي الجنوب أبطال الاربعة عشر . لقد فهمت ما أعني (٣)
 أليس كذلك (وحين نطق بهذه الكلمات نطق بها بالهجة ذات معنى)
 لقد عرفتهم جميعاً بأن جسستهم بأطراف أنا ملي . وأنت تعلم بأن ذلك

(١) الأمير ويتجنشتاين (١٧٨٣ — ١٨٤٢) فيلد مارشال روسي ،
 كان يتألق نجمه خلال الحروب ضد نابليون .

(٢) جوكوفسكي (١٧٨٣ — ١٨٤٠) شاعر روسي رومانتسيكي شهير .

(٣) اشارة الى منظمي انقلاب ١٤ ديسمبر ١٨٢٥

لا يعني ، لا يعني سوى شيء واحد أدّ واجبك وليسبق من يشق .
لقد كان جدك رجلاً كريماً فاضلاً وعسكرياً بحق .
فقال بزاروف بعدم اكتراث : « عليك أن تعترف بأنه كان رجلاً
فارغ الرأس . »

« أوه يا ايفاجني كيف تجرأ على هذا القول ؟ .. ناشدتك الله ...
لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد هؤلاء ، بالتأكيد ... »

فقاطعه بزاروف : « هيا . دعه في سلام . عند مجيئي كنت في منتهى
الشوق لرؤية أجمة الحور التي عندك . لقد نمت نمواً مرضياً . »
فتحمس فاسيلي ايفانوفيتش فجأة وقال : « ليس هذا شيئاً يذكر ،
عليك أن ترى الحديقة ، لقد زرعتها بنفسني . وهي تعطي كل أنواع
الثمرات والأعشاب الطبية ، وعبثاً تحاولون أن تحطوا أيها السادة الشبان ،
من قيمة الأعشاب ... لقد ذكر عنها باراسيلوس حقائق مقدسة ، وأعطاهها
حقها . لقد انصرفت نهائياً عن ممارسة المهنة ، ولكن لا يسعني إلا أن
أمارسها مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع . إن الناس يأتون لاستشارتي ،
ولا أستطيع أن أدفع القوم وأطردهم . وبين الفينة والفينة يزورني أحد
الشياطين من الفقراء . إذ لا يوجد هنا طبيب . وعندنا جار هو ماجور
قديم ، وتصور أنه يعالج الناس أيضاً . وفي أحد الأيام حاولت أن أعرف
ما اذا كان قد درس الطب ، فأجابوني : كلا ، إنه يعالج الناس لأنه من
محيي البشر . ها ها ها من محيي الإنسانية . ها ها . ما قولكم في ذلك ؟
ها ها ها . »

وصرخ بزاروف بصوت غليظ : « فيدكا . احش لي غليوناً . »
وتابع فاسيلي ايفانوفيتش كلامه بحرارة : « في أحد المرات وصل
طبيب الى أحد المرضى ، فوجد أن المريض قد قضى نحبه ، ولما أراد أن
يتكلم منعه الخادم قائلاً : (لاجابة اليك الآن) فتماسكه الاضطراب ،
ونهمض متسائلاً : (لا بد أن أسأل هل فهق قبل أن يموت ؟) ... (نعم .
فهقة قوية جداً) ... (نعم . إذن فكل شيء على مايرام) وانصرف .
ها ها ها . »

وكان الشيخ يضحك وحده ، أما أركادي فقد ابتسم بتكلف على
سبيل المجاملة ، واكتفى بزاروف بأن سحب نفساً من غليونه . وطال
الحديث ، ووجد أركادي فرصة للذهاب الى الغرفة المجاورة للحمام ،
فوجدها نظيفة مريحة جداً . وأخيراً جاءت تانيوشا معلنة أن الطعام
قد هبى .

فنهض فاسيلي ايفانوفيتش أول من نهض وقال : « هيا أيها السادة
كونوا كرماء ، واعذروني اذا كنت قد أضجرتكم ، وأعتقد أن زوجتي
الطيبة سترضيكم . »

كان الطعام فاخراً ، رغم أنه قد أعد على عجل ، وكان كثيراً ، أما الخمر
فلم تكن على أحسن ما يرام ، فقد كانت من نوع الشيري الأسود على
وجه التقريب ، قد اشتراها تيموفيتش من المدينة من حانوت خمر
معروف ، وكان ما يعيها طعم كطعم النحاس العفن . وكان الذباب
يضايقهم . وقد جرت العادة أن يطرده غلام بغصن أخضر كبير . ولكن

فاسيلي ايفانوفيتش أبعد له لئلا يستوجب انتقاد شبان الجيل الجديد .
 وكانت أرينا فلاسيفنا قد وجدت مجالاً واسعاً للترين ، فلبست طاقة
 ضخمة ذات شرائط حريرية ، وشالاً أزرق يليق بالصغار ، وطفقت
 تبكي منذ أن رأت عزيزها انيوشا ، ولم يتدخل زوجها لأجل أن
 يهدئها ، فقد أسرع هي بتنشيف دموعها لكيلا يتبقع شالها الجميل .
 وكان يقوم بالخدمة فيدكا ، والظاهر أنه كان غير مرتاح بحذائه الذي
 لم يكن معتاداً عليه ، والذي لبسه لأول مرة على ما يظهر ، وكانت تساعد
 امرأة عوراء ذات ملامح رجولية ، تسمى انفيسوشكا ، تقوم بوظيفة
 مدبرة البيت ، ومديرة أقنان الدجاج ، وغسالة للملابس . وكان فاسيلي
 ايفانوفيتش يروح ويغدو في الغرفة ، وعليه امارات السعادة ، الى حد
 أن أصبح وجهه جذاباً . وكان يعرض مخاوفه القاسية التي سببتها سياسة
 نابليون ، واضطراب المسألة الايطالية . ولم تكن أرينا تنظر الى
 أركادي ، فلم يحظ بشرف اهتمامها ولم تكن عيناها تنظران إلا الى ولدها ،
 وهي تتهد بدون انقطاع ، وقد أسندت وجهها المستدير ذا الشفتين
 الممتلئتين الحمراوتين كحمرة الكريز . وعلى خديها رصع جميلة ، وفوق
 ذلك حاجبان يخلعان عليها معنى الطيبة ولين العريكة . وكانت تقتلها الرغبة
 الى معرفة عدد الأيام التي سيقضيها ولدها عندهم . ولكنها لا تجرأ على
 سؤاله ، وكانت تقول لنفسها : « لو قال لي ، حتى ولو كانت المدة يومين »
 وكان قلبها ينقبض .

واختفى فاسيلي ايفانوفيتش بعد انتهاء وجبة الشواء ، وعاد في الحال

تقريباً ، يحمل قنينة صغيرة من الشمبانيا مفضوذة الحتم وصاح :
« ها أتم ترون ، أننا ولو كنا نعيش في القفر ، إلا أن لدينا ، مع ذلك ،
ما يساعدنا على الاحتفال في المناسبات العظيمة . »

وملاً ثلاث كؤوس وأخرى صغيرة ، وشرب نخب صحة « ضيفه
العزیز المحترم » بجرعة واحدة ، على الطريقة العسكرية ، واضطرت
أرينا فلاسيفنا الى أن تفرغ كأسها الى القطرة الأخيرة . وعندما
أحضرت الحلوى ، اضطرت أركادي الى أن يذوق أربعة أنواع مختلفة ،
قد صنعت حديثاً ، وما كان يهوى الأطعمة الحلوة . وقد رفض بزاروف
أن يمسيها بكل اصرار ، وأشعل سيكاراً . وبعد الحلوى احضر الشاي مع
القشطة والرقاق مع الزبدة . ثم صحب فاسيلي ايفانوفيتش ، بعد ذلك ،
ضيفه ، الى الحديقة ليستمتعوا بجمال المساء . وعندما مروا بأحد المقاعد ،
همس في أذن أركادي :

« أحب أن أتفلسف هنا ، وأنا أتأمل غروب الشمس ، وهذا يلائم
معتزلاً مثلي . على بعد من هنا غرست أشجاراً عزيزة على هوراس . »
فسأله بزاروف : « أي أشجار ؟ »
« اوه . انها الاكاسيا . »

فتشاءب بزاروف . وقال فاسيلي ايفانوفيتش : « لقد حان الوقت لأن
يستسلم المسافرون الى ذراعي مورفي (١) »

(١) إله الاحلام ، ابن الليل والنوم .

فأكد بزاروف : « أو بعبارة أخرى . لقد حان الوقت للذهاب الى

النوم . صحيح انه وقت النوم . »

ثم قبل جبين أمه واستأذنها في الانصراف ، فاحتضنته ورست عليه
إشارة الصليب ثلاث مرات خفية . وقاد فاسيلي ايفانوفيتش أركادي الى
غرفة نومه ، وتمنى له الراحة الحلوة التي كان يتذوقها هو نفسه في مثل
هذه السن السعيدة . « وفي الواقع نام أركادي نوماً لذيذاً في غرفته ،
وكانت تفوح بشذى النعناع ، وكان اثنان من الصراصر قد أخذها شوق
الى الغزل ، خلف المدفأة . ولكن صراخهما كان مع ذلك منسجماً
كترنيمه للنعاس ، ومن غرفة أركادي عبر فاسيلي ايفانوفيتش الى مكتبه .
وبعد أن جلس على الديوان عند قدمي ابنه ، تهيأ ليثرثر قليلاً ، ولكن
بزاروف طرده قائلاً له انه في بجران من النعاس وبالرغم من ذلك
لم تغمض له عين في الليل . وكانت نظرات عينيه الواسعتين المفتحتين
تحدق في الظلام باصرار ، ولم يكن لذكريات الطفولة أي سلطان عليه ؛
ولكنه لم يفلح في انتزاع نفسه من مشاعره الهائجة التي أصابته في الليلة
المعلومة . أما أرينا فلا سيفنا فقد أخذت تدعو وتصلي بكل قواها ، ثم
ظلت مدة طويلة تتحدث مع انفيسوشكا التي كانت مسمرة كتمثال أمام
سيدتها ، ترمقها بعينها الوحيدة . ثم توشوش في اذنها بصوت خافت جميع
ملاحظاتها وأفكارها الخاصة فيما يتعلق بإيفاجني فاسيليتش ، وكان
الفرح والخمرة والدخان قد أحدث دواراً في رأس الام الصالحة العجوز ،
وحاول زوجها أن يتحدث معها ، ولكنه كف عن ذلك بحركة من

يده تدل على الخيبة .

كانت ارينا فلا سيفنا امرأة من تلكم النسوة من طبقة النبلاء الروس الصغار . كانت متمسكة بالأساليب القديمة . فكان يليق بها أن تولد قبل مائتي سنة من ذلك التاريخ ، في موسكو القديمة . ولشدة ورعها وفراط استجابتها للمؤثرات ، كانت تؤمن بالعرافة والتكهنات ، والتمائم والسحر والأحلام ، وكانت تعتقد بتنبؤات المشعوذين والدجالين والمجانين ، وبالأرواح التي تحتل المنازل والغابات ، وبالمصادفات السيئة ، وبالتعاويد وعقاير المرأة الصالحة ، وبتناول الملح الذي يوضع على الهيكل في الخميس المقدس ، وبنهاية العالم القريبة . وكانت تعتقد بأن محصول الحنطة السوداء يكون طيباً اذا لم تطفأ الأنوار ليلة عيد الفصح بعد قداس منتصف الليل ، وبأن الفطر لا ينمو اذا وقعت عليه عين رجل ، وبأن الشيطان يحب الأمكنة التي يوجد فيها الماء ، وبأن اليهود جميعاً يحملون بقعة من الدم فوق صدورهم . وكانت تخاف الفيران ، والأفاعي ، والضفادع ، والطيور ، والعلق ، والرجال الصهب ، والرعد ، والماء البارد ، وتيارات الهواء ، والحيل ، والتيوس ، والقنطريون . وتعتبر الصراير والكلاب حيوانات نجسة ، ولا تأكل لحم العجل ، ولا الحمام ، ولا السرطان ، ولا الجبن ، ولا الهليون ، ولا القلقاس ، ولا الأرنب ، ولا الرقي (لأن الرقية المقطوعة تذكرها برأس يوحنا المعمدان المقطوع) ولا تتحدث عن المحار والأصداف إلا وتأخذها الرعدة ، وتحب الأكل كثيراً ، ولكنها تأخذ نفسها بالصرامة أثناء الصيام ، وتنام عشر ساعات في اليوم .

ولكنها لا تهجع اذا كان فاسيلي ايفانوفيتش مصاباً بصداغ . ولم تكن قد قرأت من الكتب إلا الكسيس أو الكوخ في الغابة ^(١) وكانت تكتب رسالة أورسالتين على أكبر تقدير في السنة ، وهي ربة بيت ممتازة ، ولها منتهى الامام بشؤون الطبخ ، ولو أنها لا تمد يدها الى شيء ، ولا تنقل من محلها .

وهي امرأة صالحة كل الصلاح ، بعيدة عن الحماقة ، وكانت تؤمن أن العالم طبقتان ، أسياد يأمررون ، وصعاليك يأتمرون . ولذلك فهي لا ترى بأساً ، لا في الذلة الى حد تغفير الجباه ، ولا في التحيات التي تؤدي بالركوع حتى الأرض ، ولكنها كانت مع أتباعها ، مفعمة وداعة فياضة بالبشاشة واللفظ ، فلا تدع مستجدياً يعبرقظ دون أن تنفحه بصدقة ، ولا تغتاب أحداً ، ولكنها كانت تحب أن تثرثر بالشائعات . وقد كانت حسناء في شبابها ، كانت تعزف على السنطور ، ولها إلمام باللغة الفرنسية . ولكنها خلال أيام اغترابها الطويلة صحبة زوجها ، الذي تزوجته ضد هواها ، سمت وترهلت ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية . كانت تحب ولدها وتخشاه بصورة تفوق الوصف .

وكان فاسيلي ايفانوفيتش يدير ثروتها ، وقد تركت له في ذلك منتهى الحرية في العمل ، وكانت تنهد وتئن ، وتهز منديلها وترفع حاجبيها شيئاً فشيئاً ، وينتابها الخوف ، عندما يشرع زوجها في التحدث عن

(١) قصة لذكر اي دومينيل (١٧٦١ — ١٨١٩)

الاصلاحات الحكومية المقبلة ، وعن تصاميحه هو . وكانت متشامة
جداً ، تتوقع بدون انقطاع ، حلول كارثة عظيمة ، وتستخرط في البكاء
عندما تتذكر شيئاً محزوناً ... إن النساء شبيهاً آخذة بالندرة شيئاً
فشيئاً . والله وحده يعلم هل يجب أن نفرح بذلك ؟

الفصل الحادي والعشرون

كان أول ما فعله أركادي ، حين استيقظ في اليوم الثاني ، أن فتح النافذة ، وكان أول ما لاح لعينه فاسيلي ايفانوفيتش . كان الشيخ العجوز منهمكاً في بستانه ، وهو في رداء نوم شرقي ، وقد لف حول وسطه منديلاً كبيراً عوضاً عن الحزام . ولما شاهد ضيفه الشاب ، صاح ، بعد أن استند على منكاشه :

« صباح الخير ، صباح الخير ، كيف قضيت ليلتك ؟ »

فأجاب أركادي : « على أحسن ما يرام . »

« أما أنا ، فكما تراني ، مثل سنستاتوس ، أهبي ، مشتلاً للفت

الخريف المتأخر . إننا والله الحمد ، نعيش في زمن ينبغي فيه على كل أحد

أن يحصل على قوته بيديه ، دون اعتماد على الآخرين ، يجب أن نستغل

بأنفسنا . لقد كان كل الحق مع جان جاك روسو . لو رأيتني ، يا سيدي

العزيز ، قبل نصف ساعة ، لوجدتني مشغولاً بشيء آخر . لقد جاءني

فلاحة تشكو لي من المغص ، اذ هكذا يسمون الزحار ، فأعطيتها ...

كيف أعبر عن هذا ... أعطيتها حقنة من الأفيون . وقلعت سناً لأخرى ،

وقد اقترحت عليها أن أخدرها بالآثير ، فلم توافق . فعلت كل ذلك مجاناً دون مقابل ، بوصفي هاوياً . وبعد ، فلا عجب من ذلك ، فاني من العامة والسوقة ، لست من عائلة شريفة الارومة كعجوزتي الصالحة ... ولكن هلا تفضلت الى الظل ، لاستنشاق نسيم الصباح البليل ، قبل تناول الطعام ؟ »

فخرج اليه أركادي واقتفاه .

قال فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يرفع يده بتحية عسكرية ، الى قبعته المدهنة التي تغطي رأسه : « على الربح والسعة ، مرة أخرى ، انكم معتادون على الترف كما أعلم ، ولكن حتى العظماء في العالم ، لا يأنفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ . »

فصاح أركادي : « عجيب ، أنا من عظماء العالم ؟ وعلاوة على ذلك فلست معتاداً على الترف أصلاً . »

فأجابه فاسيلي ايفانوفيتش بتقطعية محببة : « انني وان كنت الآن من المهملين ، فقد تمرست بالناس يوماً ، وعرفت الطير من طيرانه ، ولولم أملك هذه الموهبة ، وأنا التافه الضئيل ، لسحقت سحقا من زمن مديد . أقول لك ذلك بمنتهى الصراحة ... ان الصداقة التي ألحظها بينك وبين ولدي لتماماً لي بهجة وحبوراً . انه يستيقظ مبكراً جداً ، كعادته ، وذلك ما لا بد أن عرفته ، ثم يجري يمنة ويسرة . اسمح لي بسؤال . هل معرفتك بايفاجني ترجع الى زمن طويل ؟ »

« لقد تعارفنا هذا الشتاء . »

« صحيح ؟ ساحني اذا سألتك سؤالاً آخر... ولكن لنجاس ...

قل لي ، ولكن مهلاً ، قل لي بملء الاخلاص ، ما رأيك فيه ؟ »
فأجاب أركادي بحرارة : « ان ولدك من ألمع الرجال الذين صادفتهم

على الإطلاق . »

فحفظت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجأة ، وغمرت وجهه حمرة خفيفة
لونت خديه وأفلت المعزق من بين يديه ، وأجاب :

« اذن فأنت تنتظر له ... »

فواصل أركادي : « انني متأكد بأن مستقبلاً عظيماً ينتظره ،
وأنه سوف يخلد اسمك . انني مقتنع بذلك منذ لقائنا الأول »

فقال فاسيلي ايفانوفيتش بصعوبة ، كن يعاني ألماً ، وقد استقرت على
فمه الواسع ابتسامة انتصار : « كيف ؟ ... قص علي . »

« أتريد أن تعلم كيف تقابلنا ؟ »

« نعم ... وكل شيء ... »

وشرع أركادي يتحدث عن بزاروف بحماسة بالغة متزايدة ،
وبحرارة أشد من حرارة حديثه ذلك المساء ، حين رقص المازوركا مع
مدام اودينيتسوف .

وكان فاسيلي ايفانوفيتش يصغي اليه دون أن يعتريه الملل ، فيتمخض
ويلف منديله على يديه ، ويسعل ، وينكش شعره ، وأخيراً لم يتمالك
نفسه ، فقال على أركادي وقبل كتفه ، دون أن يكف عن الابتسام وقال :
« لقد جعلتني أسعد الرجال . ويجب أن أقول لك بأنني أعبد ولدي



عبادة الأصنام ، انني لا أتكلم عن عجوزتي الصالحة ، انها أم ، وهذا يعني كل شيء ، اني لا أجراً على التعبير عن مشاعري أمامها ، إنه لا يحب ذلك ، انه عدو كل إعلان عن العواطف ، وكثيرون ينعون عليه هذه الصرامة في الخلق ، ويرون فيها عجرفة وبلادة في الاحساس ، ولكن يجب أن لا نطبق عليه المقاييس التي تنطبق على الرجال الآخرين ، أليس ذلك صحيحاً ؟ ان أقرانه يفرقون ذويهم بكثرة مصاريقهم ومطالبتهم المستمرة ، أما هو ، هل تصدق أنه لم يسألني كوبكاً واحداً أكثر من حاجته ؟ اني أقسم لك على ذلك . »
 فقال أركادي : « انه رجل أمين نزيه . »

« نزيه ، هذه هي الكلمة . اني ، يا أركادي نيقولايفيتش ، لا أعبده فحسب ، ولكني فخور به أيضاً ، وكل طموحي أن يقرأ الناس في ترجمة حياته في المستقبل : ابن جراح عسكري بسيط ، استطاع أبوه ، بالرغم من ذلك أن يفهمه مبكراً ، ولم يدرجهداً في سبيل تعليمه ... »
 واختنق صوت الشيخ العجوز في حنجرتة . فشد أركادي على يده .

قال فاسيلي ايفانوفيتش بعد لحظة من الصمت : « ما رأيك في الأمر ؟ لن يحوز مطلقاً على الشهرة في المسلك الطبي ، كما تنبأت »

« كلا ولاشك ، ولو أنه سيكون بين الأطباء ممن يشار إليهم بالبنان . »

« اذن ما العمل يا أركادي نيقولايفيتش ، كيف اذن ... »

« من الصعوبة أن تشكهن بذلك الآن ، ولكنه سوف يصبح

مشهوراً . »

فردد الشيخ ، وقد استغرقتة أفكاره : « مشهور . »
وقالت انا فيسوشكا ، التي خطرت بطبقها الكبير ، المترع بالعليق
الأحمر : « ان أرينا فلا سيفنا تدعوكم لتناول الشاي . »
فارتجف فاسيلي ايفانوفيتش وقال : « هل هنالك قشدة طرية
لهذا العليق ؟ »

« نعم . »

« انه بارد يا أركادي نيقولايفيتش ، تمنع به ، خذ كمية أخرى ،
بدون مراسيم من فضلك ، ولكن لماذا لم يعد ايفاجني ؟ »
فهتف بزاروف من غرفة أركادي : « انني هنا . »

فالتقت فاسيلي ايفانوفيتش ، وقال بحرارة ولهفة : « آه آه ، لقد
أردت أن تفاجأ رفيقك ، ولكنك متأخر يا ولدي ، لقد كنا نحوض
في الحديث منذ مدة ، والآن هيا الى شرب الشاي ، فان أمك تنتظرنا ،
وبهذه المناسبة ، فان لدي ما استشيرك به . »
« وما ذلك ؟ »

« هنا فلاح مصاب باليرقان . »

« تعني أنه مصاب بالصفرة ؟ »

« نعم صفرة مزمنة وعنيدة . لقد وصفت له حشيشة القنطاريون ،
وحشيشة القديس جون ، وأوصيته بأكل الجزر ، واستعمال بيكاربونات
الصودا . ولكن هذه ليست سوى مسكنات وقتية ، والمطلوب شيء
آخر . انك عبثاً تسخر من الطب . انني متأكد أن باستطاعتك أن

تتحفني بمشورة جيدة . ولكننا سنتكلم عن هذا فيما بعد . هيا
لشرب الشاي .

ونهمض فاسيلي ايفانوفيتش ، بعد ذلك عن مقعده فوراً ، وشرع
ينشد لحن رويير الشيطان :

غرامي بالقمار وبالنساء يعادله غرامي بالطلاء

فغادر بزاروف النافذة وهو يهمهم : « يا لها من حيوية فريدة ! »
حلت الظهيرة وكانت الشمس ملتزمة وراء ستار رقيق من السحب
الضاربة الى البياض . كان كل شيء في القرية ساكناً ، الا الديوك التي
كانت تتناجى مرحة في القرية ، فتبعث في كل من يسمعها شعوراً عجبياً
بالنعاس والسأم . وفي جهة مرتفعة جداً ، في قمة شجرة ، كان يرن
صراخ باز يافع . متواصل كأنه صياح شكوى . وكان أركادي وبزاروف
مضطجعين في ظل كومة صغيرة من القش ، على حضينة منه ، ذي خشخشه
عند اللمس ، ولو انه لم يبرح أخضر عاطراً .

قال بزاروف : « ان شجرة الحور هذه تذكرني بطفواني ، كانت
تنمو على حافة حفرة يستخرج منها الطين ، فيما مضى ، لصنع القرميد .
وكنت مؤمناً في ذلك الحين بأن الحفرة والشجرة طلسماً ، وأن الضجر
لن يجد طريقاً الى نفسي حين اكون قريبهما . ولم أدرك آنذاك أن
الطفولة هي سبب تلك الغباوة لأنني كنت طفلاً . أما الآن ، وقد كبرت ،
فقد عدم الطلسم سحره . »

فسأله أركادي : « كم من السنين قضيت هنا ؟ »

« سنتين متتابعتين ، وعلاوة على ذلك ، فقد كنا نجبي ، الى هنا بين
حين وآخر . وكنا نحيا حياة أفاقين ، فكنا ننقل بين بلدة واخرى . »
« وهل هذا المنزل قديم ؟ »

« نعم . لقد شيده جدي والد أُمي . »

« وما كان جدك ؟ »

« يلعني الشيطان ان كنت أعرف ، وفي ظني أنه كان مساعد ميجر .
لقد خدم تحت امره سوفوروف ، وما كان يمل قط من رواية قصص
عن عبور الألب ، ربما كانت كلها مختلقة . »

« اذن لهذا السبب قد علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال ؟
انني ، أنا أيضاً ، أحب الدويرات الصغيرة أمثال دويرتكم ، عتيقة شيئاً ،
جميلة بالذكريات ، وذات نكهة خاصة . »

فقال بزاروف متثائباً : « نعم ، فان روائح الزيت والحمدقوق تنأثر
منها ، وبعد فما أكثر البعوض والذباب في هذه الدويرات الساحرة ...
أف . ؟ »

وقال أركادي بعد سكوت قصير : « هل كانت تربيتك قاسية
في صغرك ؟ »

« انك تعرف أهلي . انهم ليسوا صارمين ، بل هم بعيدون عن
الصرامة جداً . »

« وهل تحبهم . »

« نعم يا أركادي . »

« ليتك تعرف كم يحبونك ؟ »

فلم يجب بزاروف بشيء . ولكنه قال أخيراً ، ويداه تحت ذقنه :
« أتدري فيم أفكر ؟ »

« كلا فيم تفكر ؟ »

« أرى أنهم يحبون حياة سعيدة . فان والدي مشغول دائماً ، رغم
سنه الستين ، فهو يتكلم عن المسكنات ، ويعالج المرضى ، ويسخو على
الفلاحين ، وهو ، على الاجمال ، قرير العين ، طرب الفؤاد . أما والدتي
فسعيدة ، هي أيضاً . ان نهارها مشحون بالمشاغل الكثيرة من « أوه ،
وآه » حتى أنها لا تجد وقتاً كافياً للخلو بنفسها . على حين أنني ...

« على حين أنك ؟ »

« على حين أنني أفكر ، أنني متمدن هنا ، بجانب كومة من القش ...
هذا الموضع الحقير غاية الحقارة اذا قيس ببقية العالم ، حيث لا أعد أنا
إلا ذرة متناهية في الصغر ، وما تبقى من حياتي تافه كل التفاهة بجانب
الخلود الذي لم أنله ولن أناله ... ومع ذلك ، في هذه الذرة ، في هذه
النقطة الرياضية ، دم يدور ودماع يعمل ، ويريد أشياء ... يا للهوس ،
يا للحماقة ... »

« اسمح لي أن الفت نظرك الى أن ماقلته ينطبق على كل الرجال ... »
فأجاب بزاروف : « ألق معك ، أردت أن أقول أن أهلي مشغولون
بهذا وذاك ، وأنهم لا يأبهون للعدم ، ولا يثير اشمزازهم شيء ... أما
أنا ... فاني لا أستشعر إلا الضجر والهياج . »

« الهياج ، ولماذا ؟ »

« لماذا ؟ أتسألني لماذا ؟ هل نسيت اذن ؟ »

« لم أنس شيئاً ، ولكني لا أعرف بأن لك الحق بأن تغضب وتهتاج .

انك شقي ، أوافقك على ذلك ، ولكن ... »

« عجب ، عجب ، يا أركادي نيقولا يافيتش ، أرى أنك تفهم الحب

كما يفهمه كل شبان اليوم . انهم ينادون الدجاجة ، كلك . كلك . كلك ،

فاذا ما اقتربت الدجاجة منهم هربوا منها . لست على هذه الشاكلة ،

ولكن فلندع هذا . فعندما لا يستطيع الانسان أن يداوي شيئاً ، فعليه

أن ينجل من الكلام فيه . » ثم انقلب على جانبه وعاد يقول : « آه ،

هذه نملة صغيرة غاية في الجرأة تسحب ذبابة نصف ميتة . على رسلك ،

على رسلك يا شيختي ، لاترتبكي من مقاومتها ، فأنت حيوانة لك الحق في

التخلص من كل شعور بالرحمة . انتفعي من ذلك . لاتتصرفي كما نتصرف

نحن حين نحطم أنفسنا بأنفسنا . »

« أمثلك يقول ذلك يا ايفاجني ؟ اخبرني اذن متى حطمت نفسك

بنفسك ؟ »

فرفع بزاروف رأسه وقال : « اذا كان هنالك ما أفتخر به فهو

أني لم أحطم نفسي بنفسي ، ولن تصل امرأة الى ذلك أبداً . آمين .

اتمهي كل ذلك ولن تسمع مني كلمة أخرى في هذا الموضوع بعد اليوم . »

وبقي الصديقان ساكتين بضع لحظات ، ثم قال بزاروف : « نعم .

ان الانسان كائن غريب ، فعندما نلقي نظرة من بعيد على الحياة الغابرة

« المندثرة التي كان يحياها (آباؤنا) فانتا تتفكر وتقول ، هل ثمة ما هو
أحسن من ذلك ؟ كل واشرب ، واعلم بأنك تسلك سلوكاً غاية في النظام ،
ومثلاً أعلى في الانطباق على العقل ، فان خرجت عن ذلك قتلك السأم .
يريد الناس أن يتدخلوا في شؤون غيرهم ، ولو أدى ذلك الى إهاتهم . »
فأجاب أركادي مفكراً : « يجب علينا أن ننظم الحياة تنظيماً يجعل
كل لحظة من لحظاتها مفعمة بالمعاني والمغازي .

« لمن تقول هذا ؟ ان الناس يحبون ما هو مثقل بالمعاني والمغازي ،
ولو كان ذلك اكذوبة من الأكاذيب . ولكن الحقائق ، تلك الحقائق
التافهة الصغيرة هي المصيبة كل المصيبة . »

« ان الحقائق لا توجد بالنسبة لمن يرفض الاعتراف بها . »

« همم . ان ما تقول معنى مقلوب رأساً على عقب . »

« كيف ؟ ماذا تعني بقولك ؟ »

« أعني هذا . اذا تأكدت مثلاً بأن التعليم مفيد ، فهذا معنى عام ،
ولكن اذا صرحت بأنه يؤدي ويؤلم ، أصبح معنى (١) عاماً مقلوباً .
ويخيل اليك أن الأمرين مختلفان ، ولكنهما في الحقيقة شيء واحد
ذو وجهين . »

« ولكن الحقيقة ؟ أين الحقيقة ؟ في أي جانب تكون ؟ »

(١) يقول المتنبي في هذا المعنى :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخوال الجهالة في الشقاوة ينعم

« أين ؟ سأجيبك كما يجيب الصدى ، أين ؟ »

« انك ذو مزاج كئيب هذا اليوم . »

« حقيقة ؟ لابد أن الشمس قد ألانت مخي ، وكان عليّ أن لا آكل

كثيراً من العليق الأحمر . »

فقال أركادي : « اذن فلنجمع قليلاً . »

« فليكن ، ولكن أرجو منك ألا تراقبني ، فان الانسان يكتسب

سحنة حيوانية أثناء نومه . »

« إذن فأنت تكثر بأراء الناس فيك ؟ »

« لا أستطيع أن أوضح ذلك لك . ان الرجل الجدير بهذا الاسم

حقيقة ، ينبغي عليه ألا يكثر بذلك ويشغل نفسه به ، والرجل الجدير

بهذا الاسم ، هو ذلك الرجل الذي لا يحكم الناس عليه ، وهو ذلك الذي

يجب أن يطاع أو يكره . »

« هذا مضحك ، إنني لا أكره أحداً . »

« أما أنا فأكره كثيراً من الناس . انك ذو روح لطيفة وديعة ،

روح مهذبة تهذيباً راقياً ، فكيف تستطيع أن تذكره ؟ انك حي

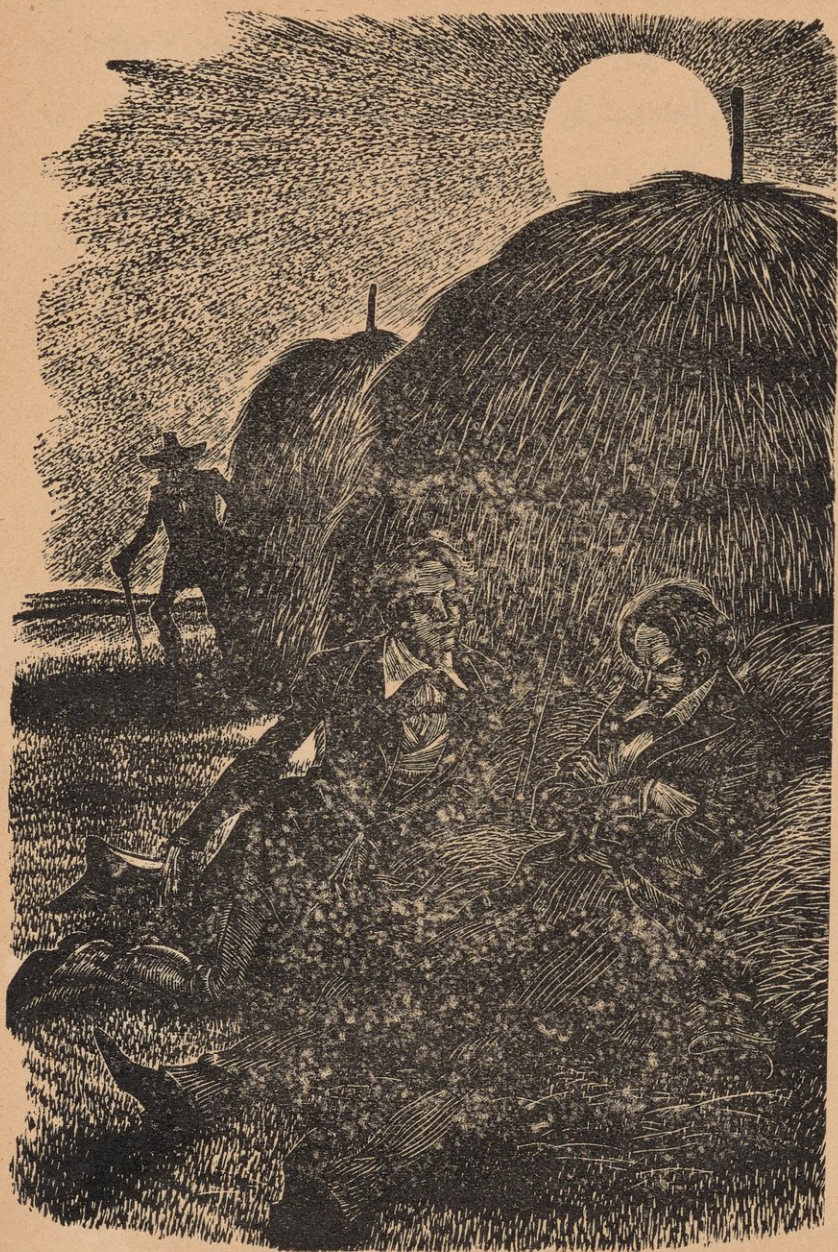
خجول ، ولا ثقة لك بنفسك ... »

« وأنت ؟ ألك ثقة بنفسك ؟ ألك آراء محترمة عن نفسك ؟ »

ظل بزاروف ساكناً لحظة ثم أجاب ببطء ، وهو يؤكد على كل مقطع

من كلامه : « عندما أصادف نداءً ، فحينئذ سوف أغير من رأيي بنفسي ،

ولنرجع للكره ، فعلى سبيل المثال ، لقد قلت أنت منذ مدة وجيزة ،



ونحن نمر بكوخ شيخ القرية فيليب ، الأنيق الجميل ، ان روسيا ان تبلغ
درجة الكمال ، حتى يملك أحقر فلاح روسي مسكناً كهذا ، ويجب أن
يساهم كل واحد منا في تحقيق ذلك ... حسناً لقد شعرت بالكراهة على
الفور ، نحو الفلاح الروسي الحقير ، ونحو فيليب وغيره ، وكل أولئك
الذين سأنزل ما في وسعي من جهود في سبيل اسعادهم ، أولئك الذين
لن ينفعني أحدهم حتى بكلمة شكر ، وعلاوة على ذلك فما حاجتي الى
شكرهم ، فسأكون حين يقطن هؤلاء أكوأخاً جميلة ، تحت الثرى
أمد حشيشة القراص وماذا بعد ذلك ؟ »

« حسبك يا ايفاجني ... ان من يسمعك تتكلم هكذا ، سيكون في
صف أولئك الذين يلوموننا حين يتهمونا بالمروق من المبادئ . »
« انك تتكلم كما يتكلم عمك . ليس ثمة مبادئ . وانك لما تزل
تشك في ذلك . ليس هنالك غير الأحاسيس والأمر كله متعلق بها . »
« كيف ذلك ؟ »

« في غاية البساطة . فأنا مثلاً اذا كنت أحب الكفر والانكار ،
فصدر ذلك الاحساس ، انه يلزمني الانكار والجحود ، هكذا يسير
عقلي ، وهذا كل ما في الأمر ، لماذا تستهويني الكيمياء ؟ ومن أين جاء
حبك للتفاح ؟ القضية دائماً قضية احساس ولا شيء أعمق من ذلك أبداً .
وقليل هم أولئك الذين يصارحونك بذلك ، وأنا نفسي لم أكن
لأحدثك عن هذا في غير هذه اللحظة . »
« اذن فالأمانة أيضاً قضية احساس ؟ »

« بدون شك . »

فقال أركادي محزوناً كل الحزن : « يا ايفاجني ؟ »

فأجاب بزاروف : « آه آه ، أهذا الأمر لا يسرك ؟ برحى لك ، اذا كنت يا أخي ترثي لكل شيء فلا تستثن سايك . ولكن كفانا خوضاً في فلسفة ما وراء الطبيعة . لقد قال بشكن : (ان الطبيعة تدعونا الى النوم) . »

فاعترض أركادي قائلاً : « ان بشكن لم يقل أبداً شيئاً من هذا القبيل . »

« اذا لم يكن قد قال ذلك ، فقد كان باستطاعته أن يقول ذلك ، وكان يجب عليه أن يقول ، بوصفه شاعراً ، وعلى ذكره لقد كان عسكرياً ؟ »

« لم يكن بشكن عسكرياً . »

« عجيب ، لا تخلو صفحة من صفحاته دون أن يصرخ فيها : (الى المعركة ، الى الامام ، في سبيل شرف روسيا) . »

« أين وجدت هذه الجنونيات ؟ ان هذا افتراء محض . »

« افتراء ؟ يا للعجب العجيب ! أعتقد بأنك تفزعني بهذه الكلمة ؟ . »
« هما كانت الافتراءات التي تعلق بهذا الشخص فانه يستحق أكثر منها عشرين مرة . »

فقال أركادي مقهوراً : « دعنا نحاول أن ننام . »

فأجاب بزاروف : « بكل طيبة خاطر . »

ولكنهما لم يفلحا ، فقد انساب في قلب كل منهما شعور عداوي
تقريباً . وبعد خمس دقائق فتح كل منهما عينيه ، ونظر الى صاحبه
في سكون .

وقال أركادي على حين غرة : « انظر الى هذه الورقة المصوحة التي
انفصلت عن شجرة الاسفندان والتي تسقط على الأرض ، انها تحوم كما
تحوم الفراشة تماماً . أليس ذلك غريباً ؟ ان ما هو محزن كل الحزن ،
وما هو ميت غاية الموت ، شبيه بما هو مرح كل المرح . »

فصرخ بزاروف : « ياغريزي أركادي نيقولايفيتش ، انني لا أسألك
إلا شيئاً واحداً ، تكلم دون أن تتكلف الجمل المصطنعة . »
« انني أتكلم بقدر ما أستطيع ... ولكن هذا استبداد منك .
اذا طرقنتني خاطرة فلم لا أقولها ؟ »

« حسن جداً . ولكن لماذا لا أقول أنا ما أفكر به ؟ أرى أن
تكلف الجمل المصطنعة مناف للآداب . »

« اذن فأنت ترى أن الأفضل استعمال الحشونة والفظاظة ؟ »
« مهلاً مهلاً ، أرى أنك قد عقدت العزم على اقتفاء خطى عمك ،
لشد ما يكون هذا المعتوه سعيداً لو استطاع أن يسمعك . »
« كيف أميت بول بتروفيتش ؟ »

« كما يستحق ، معتوهاً . »
فصرخ أركادي : « لقد أصبح الأمر لا يطاق . »
فأجاب بزاروف : « ان الشعور برابطة الاسرة يتكلم فيك . لقد

لاحظت أنه راسخ كل الرسوخ في كل فرد ... ان الانسان مستعد للتنازل عن كل شيء ، وأن يتجرد من الاعتبارات كافة ، ولكن لاتسأله أن يعترف ، مثلاً بأن أخاه ، يسرق المناديل ، سارق ، فان ذلك فوق طاقته ، كيف ؟ أخي ، أخي أنا ؟ كيف لا يكون عبقرياً ؟ »

فأجاب أركادي بجدة : « ان الشعور بالعدالة هو الذي تكلم على لساني ، وليس الشعور بالرابطة العائلية . ولكن بما أنك لا تفهم ذلك الشعور ، وبما أن هذا الاحساس ينقصك ، فالأفضل لك أن تسكت . »
« معنى ذلك أن أركادي كيرسانوف متفوق علي كل التفوق بحيث لا أستطيع أن أفهمه ، انني أنحني وأسكت . »

« حسبك ، يا ايفاجني ، حسبك ذلك ، والا فسينتهي أمرنا الى الخصام والمشاجرة . »

« نعم نعم يا أركادي ، فلنتشاجر جيداً ، وليضرب بعضنا بعضاً حتى نخر منهوكين ، فلنتعارك حتى الموت . »
« ولكن قد ينتهي بنا الأمر الى الـ ... »

فأجاب بزاروف : « الملائكة ؟ وماذا بعد ؟ هنا ، على القش ، في هذا النطاق الضيق الساذج ، بعيداً عن العالم وعن أنظار البشر . ولن يكون لذلك عواقب . ولكن ليس لديك قوة تقابل بها قوتي ... سوف آخذ بعنقك ... »

وفتح بزاروف أصابعه الطويلة القاسية ... والتفت أركادي ، كمن يريد أن يمزح ، للدفاع عن نفسه ... ولكن وجه صديقه بدا له فظيلاً

خيفاً ، وكان في ملامحه تهديد صريح ، في الابتسامة التي زمت شفثيه ،
وفي عينيه اللتين التهبتا فجأة ، الى حد أخافه على الرغم منه ...

ورن صوت فاسيلي ايفانوفيتش في هذه اللحظة الحرجة قائلاً :
« آه لقد وجدتكَ أخيراً » وظهر الجراح العسكري العجوز في سترته
البيئية ، وفي قبعته القشبية المصنوعة في البيت أيضاً .

« لقد قتشت عنكما ، نقت عنكما في كل مكان ... ولكنكما قد اخترتما
مكاناً رائعاً ، إنه لعمل غاية في الحلاوة أن يبقى الانسان متمدداً هكذا
على الأرض ينظر الى السماء ... أتدركان أن هذا مترع بمغزى عميق ؟ »
فقال بزاروف بفظاظة : « انني لا أنظر الى السماء إلا حين أريد
أن أعطس . » ثم اقترب من أركادي وأضاف بصوت خفيض : « يا لسوء
المصادفة بمداهمته ايانا في هذا الوقت ! »

فهمس أركادي وهو يعصر خلسة يد صديقه : « هيا ، في هذا كفاية .
ان الصداقة مهما كانت وطيدة ، لا تستطيع أن تقاوم محناً كهذه
مدة أطول . »

فأردف فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يهز رأسه ، مسنداً أصابعه
المشتبكة ، على عكازته التي صنعها بنفسه بمحذق وبراعة ، وكانت على شكل
حلزوني ، ورأسها بشكل التفاحة ، مركب على الطراز التركي : « انني
أتفحصكما يا صديقي اليافعين . انني أجلو ناظري بمرآ كما ، وانه منظر
لا أمله . يا للقوة التي فيكما ، ويا للفتوة المزهرة ، ويا للمواهب .
ويا للقرائح ... حقاً انكما ... حقاً انكما كاستور وبولكس . »

فصرخ بزاروف : « حسناً ، هو ذا ينساب في الأساطير ، آه لقد عرفنا الآن أنه كان بارعاً في اللغة اللاتينية أيام شبابه . ألم تحصل على وسام من الفضة مكافأة لك على حسن أداء واجباتك المدرسية ؟ »

فردد فاسيلي : « أجل أجل »

« حسبك يا والدي كفاك حنيئاً . »

فتمتم العجوز : « المرة الواحدة ليست عادة . على كل حال ، انني أيها السيدان ، لم آت لاحتياكما فقط ، فقبل كل شيء أريد أن أقول لكما بأننا سنتناول الطعام ، ومن ثم لاجل أن أخبرك ، يا ايفاجني ... انك ولد طيب ذكي ، وأنت تعرف قلوب الامهات ، انك ستفهم ... ان أمك قد نذرت أن تقيم لك قداساً حين عودتك ، ولا تتصور بأنني قد جئت لأحملك على حضوره ، لقد انتهى القداس ، ولكن الأب الكسيس ... »

« الكاهن ؟ »

« نعم القسيس . سوف يبقى معنا لتناول الطعام ... ولم أكن أنتظر ذلك ... لو أن الأمر بيدي لكان خلاف ذلك ... لقد أساء فهمي ... ومن الطبيعي أن أرينا فلاسيفينا ... بالاختصار ، انه رجل طيب ، وهو من أصحاب الذوق . وسوف ترى . »

فسأل بزاروف : « المفروض أنه لن يأكل وجبتي . »

فانفجر فاسيلي ايفانوفيتش ضاحكاً وقال : « كلا ، ولا شك . »

هذا كل ما أطلبه . اني مستعد لتناول الطعام من أي كان . »

فنصب فاسيلي ايفانوفيتش قبعته وأجاب : « لقد كنت أعرف جيداً

أنك فوق الطقوس ، وأنا الشيخ العجوز الذي دخل في الثالثة والستين من عمره ، لا أحبها (ولم يجراً على الاقرار بأنه هو أيضاً كان يشتهي هذا القداس ، لأنه لم يكن أقل تديناً من زوجته) ان للأب الكسيس رغبة عظيمة بالتعرف عليك . سوف يسرك ويرضيك ، وأنا بذلك زعيم . انه مستعد في كل وقت للعب الورق ، بل انه ... والكلام بيننا ، أليس كذلك ؟ انه يدخن الغليون . »

« حسناً ، بعد الغداء ، سنقوم بلعبة ورق أكون أنا راجحها . »

« عجيب ، عجيب هذه مسألة فيها نظر . »

وقال بزاروف بلهجة ذات معنى : « أهى صدفة كالسابق أن ... »

فتوردت وجنتا فاسيلي ايفانوفيتش بحمرة خفيفة : « ألا تخجل

يا ايفاجني . ان ما فات مات . نعم اني أعترف أمام هذا السيد ، بأني

كنت ذا نزوات كهذه ، يوم كنت شاباً ، ولكني دفعت ثمن ذلك غالياً .

أف ما أشد الحر . دعاني أجلس بجانبكما . هل أثقل عليكم بذلك ؟ »

فأجاب أركادي : « كلا ، كلا ، أبدأ . »

فجلس الشيخ على القش وهو يتنهد ويقول : « ان هذا يذكرني

أيها السيدان بحياتي في الجندية ، وباستراحات الجنود في العراء ، لقد

كان يحدث ذلك كما هو الحال الآن ، قرب حزمة من القش ، ان وجدت

(وتنهد) آه لشد ما عانيت في حياتي من أمور . مهلاً ، اسمح لي أن

أقص عليكم فضلاً غريباً عن الطاعون في بسرايبا . »

فقال بزاروف : « الحادثة التي قلدتك صليب سان فلاديمير ؟ هذا

معروف معروف ... وبهذه المناسبة ، لماذا لم تحمل الوسام ؟ »

فهمهم فاسيلي ايفانوفيتش : « لقد قلت لك بأنني لا أهتم بالشكليات »
(ولكنه كان قد فتق الشريط الأحمر من عروة سترته في الليلة المنصرمة) ثم شرع يروي قصة الطاعون .

وهمس على حين غرة في اذن أركادي ، مشيراً الى بزاروف : « أنظر ،
انه نائم . »

ثم صرخ : « انهض يا ايفاجني ، وهيا الى الغداء . »

كان الأب الكسيس رجلاً ضخماً ، حسن السميت ، ذا شعر غزير
كثيف ، مسرح بعناية ، وحزام مطرز يشد ثوبه الكهنوتي الحريري ،
الليلاكي اللون ، وكل ذلك يعرب عن اناقة ودقة ومهارة ، وسرعان
ما مديده الى الشابين الصديقين : فقد كان يعلم أنهما لا يكثران بركاته ..
وظل طوال الوقت محتفظاً ببشاشته وانبساط أساريه ، ولم يخرج عن
وقاره ، ولا حاول أن يهاجم أو يلوم ، وكان يتندر ، ببراعة ، باللاتينية
التي تعلمها في مدارس القسس ، ويدافع عن اسقفه ، وقد شرب كأسين
من الخمر ، ورفض الثالثة ، وقبل السيكار الذي قدمه له أركادي ، ولكنه
صرح بانه سيدخله في بيته . وكانت له عادة بغیضة الى حد ما ، تلك
أنه يذني من وجهه ، كل لحظة ، يداً حذرة بطيئة ، لاقتناص الذباب
الذي يحط على وجهه ، وقد يفلح في سحقه . وأخذ محله الى مائدة القمار
دون أن يبالغ في اظهار السرور ، وانتهى بأن ربح من بزاروف روبلين
وخمسين كوبكاً ، عملة ورقية ، وما كان القوم يعرفون شيئاً عن العملة

الفضية في بيت ارينا فلا سيفينا ... وكانت هذه قرب ولدها دائماً ، ولم
تلعب الورق ، بل جلست واضعة يدها تحت خدها كعادتها ، وكانت
لا تهض إلا لاصدار أمر يجلب أطعمة جديدة ، وكانت تخشى أن تبدي
حنانها لبراروف ، وكان هو من جانبه لا يشجعها على ذلك . وكان
فاسيلي ايفانوفيتش قد حذرهما كذلك وأوصاهما بعدم ازعاج ايفاجني ،
فقال لها ملحاً : « ان الشباب لا يحبون ذلك . » (ومن فضول القول
أن نذكر بأنها بذلت كل ما في طاقتها لاجادة تحضير الطعام ، فقد خف
تيموفيتش بنفسه فجراً الى المدينة لشراء لحم البقر ، وقد ذهب الوكيل
للبحث عن السمك النهري بأنواعه ، وعن السرطان البحري . وقد
أعطت الى فلاحه اثنين وأربعين كوبكاً لشراء السمكة) وظلت عينا
ارينا تمجدقان بامعان في وجه ابنها ، لا تعبران عن الشفقة والاخلاص
فحسب ، بل أن الناظر ليقراً فيهما أيضاً حزناً ممزوجاً بالفضول والخوف ،
وكذلك بالتأنيب المتواضع الخاشع . وعلى كل حال فان براروف كان
قليل الاهتمام بما تعبر عنه عينا أمه ، وقليل ما كان يحدثها ، واذا فعل
أوجز . ومع ذلك فقد سألهما أن تعطيه يدها : « لتجلب له حظاً
حسناً . »

وسأله بعد لحظات : « حسناً ، هل حملت يدي لك الحظ ؟ »
فأجابها ضاحكاً دون اكتراث : « الامر يسير من سيء الى أسوأ . »
فقال الأب الكسيس باهجة تشف عن الحنو والشفقة ، وهو يداعب
لحيته الجميلة : « انك تجازف كثيراً . »

فاجاب فاسيلي ايفانوفيتش وهو يرمي ورقة آس: « مناورة نابليونية
يا أبي ، نعم مناورة نابليونية . »

فقال الأب الكسيس وهو يقطع الآس بورقة رابحة : « ولكن
لا تنس أن المجازفة أدت به الى سنت هيلانة . »
فسألت أرينا فلا سيفنا : « اينوشكا ، هل تريد كأساً من ماء
عنب الثعلب ؟ »

فاكتفى بزاروف برفع كتفيه .

وقال بزاروف لأركادي في اليوم التالي : « نعم ، اني أسافر غداة
الغد . انني سئم ، بودي أن أشتغل ، ولكن يستحيل عليّ هنا أن أعمل
شيئاً . انني أريد العودة الى بيتك ، لقد تركت هناك كافة لوازمي . هناك
يستطيع الانسان أن يخلو بنفسه ، على الأقل ، ومع أن أبي يكرر عليّ
قوله : « ان مكتبي تحت تصرفك ، ولن يجيء أحد لزعاجك ، فهو
نفسه لا يتركني أبداً ، ذلك لأنني لا أستطيع أن أؤصد بابي دونه .
وكذلك الأمر بالنسبة الى أمي ، انني أسمعها تنهد في الغرفة المجاورة ،
وحينما أذهب اليها لا أدري ماذا أقول لها . »

فأجاب أركادي : « انك ستحزنها كثيراً ، وكذلك ستحزن أباك . »
« ولكنني سأعود . »

« متى . ؟ »

« قبل العودة الى سنت بترسبورج . »

« إنني أرثي لحال امك على الأخص . »

« لماذا ؟ هل وجدت طريقاً الى قلبك باكثرها من الفواكه ؟ »
فغض أركادي بصره وقال : « انك لاتعرف أمك جيداً ، يا ايفاجني .
انها ليست عظيمة الطيبة فحسب ، بل انها ذكية جداً أيضاً ، أوكد لك
ذلك . لقد تحدثنا أكثر من نصف ساعة في الصباح ، وكان حديثها مفعماً
بالذوق السليم والذلاقة . »

« أتعشم أنها حدثتك عني طول الوقت ؟ »

« ليس هذا فقط . »

« أياً كان الأمر ، فربما كانت الحق معك . انك في وضع تصالح
أن تكون حكماً خيراً مني ، فعندما تأخذ امرأة بأطراف الحديث
مدة نصف ساعة يكون ذلك دلالة طيبة ، ولكني سأسافر بالرغم
من ذلك . »

« ليس من السهولة اخبارهم بذلك . انهم الآن يفكرون فيما سيعمله
منذ اليوم حتى نهاية الاسبوعين القادمين . »

« كلا ليس ذلك سهلاً ، لا أدري أي شيطان ساقني اليوم الى رؤية
والدي وهو يجلد أحد القلاحين ، وكان الحق معه . نعم ، نعم لا تؤاخذ
على هذه الفعلة ، لقد أحسن في ذلك كل الاحسان ، لأن ذلك الفلاح
سارق وسكير لا يرجى إصلاحه ، وما كان والدي يدرك أنني أعلم حقيقة
الأمر . لقد ظل مضطرباً ، سأسبب له كثيراً من الازحان ، يالسوء
الطالع ، ولكن ذلك لن يدوم . »

ومع ذلك فقد انقضى النهار بأكمله دون أن يجد الشجاعة اللازمة

لإعلام والده بما اعتزمه . وفي ختام اليوم ، لحظة حياة تحية المساء ، قال له ، وهو يتظاهر بالتشاوب :

« يا أبي كدت أنسى ... أحضر الخيل غداً في بيت فيدوت لأجل

الرحلة . »

فظل فاسيلي ايفانوفيتش مبهوتاً ، فاعرباً فاه ، ثم سأل أخيراً :

« أريد السيد كيرسانوف أن يرحل عنا ؟ »

« نعم وسأرحل معه . »

فذهل الشيخ الطيب وتساءل : « كيف ؟ أتسافر أنت ؟ »

« نعم ... ينبغي أن أرحل . تكرم بارسال الخيل الى فيدوت . »

فهمهم الشيخ : « مفهوم ... لأجل الرحلة ... مفهوم ... فقط ...

فقط ... رباه ، هل هذا ممكن ؟ »

« يجب أن أذهب معه ولن يطول غيابي . بل سوف أعود . »

« آه ولكن ليس لمدة طويلة ... طيب » وتناول منديله وتمخط ،

وقد حناه الحزن حتى كاد أن يبلغ الأرض : « حسناً ... قضي الأمر .

ظننتك ستبقى هنا مدة أطول ... ثلاثة أيام بعد ثلاث سنوات ؟ هذا

قليلاً قليلاً جداً يا ايفاجني . »

« قلت لك سأذهب معه لقضاء فترة من الزمن وسأعود بعد حين

قريب ... هذا ضروري لي . »

« آه اضرورة ... هذا أكيد ، ألوجب قبل كل شيء ... اذن هل

أرسل الخيول ؟ مفهوم . لقد كنا بعيدين عن انتظار هذا الأمر ، لقد

أوصت والدتك توأ إحدى جاراتها بجلب الأزهار لتزين غرفتك (ولم ينوه فاسيلي ايفانوفيتش بأنه كان يجتمع كل يوم بتيموفيتش ، عند الفجر ، عاري القدمين ، في مداسه الخلق ، يعد الروبل بعد الروبل ، بيده المرتجفة ، وهو يسرد له ما يجب أن يشتريه ، مؤكداً بصورة خاصة ، على وجوب اختيار الحبوب الجيدة الحمراء ، والماء كل الطيبة ، وكل ما يحبه الشبان .) انك نعرف مبدأى ، الحرية قبل كل شيء ... دون إزعاج أحد ... ولا ... » وندت من الشيخ حركة تدل على الأسى والاستسلام ، وخرج دون أن يلتفت الى ابنه ، ووجد زوجته قد نامت ، فشرع يصلي بصوت منخفض لكيلا يعكر صفو نومها . ومع ذلك فقد سمعته ، فسألته : « أهذا أنت يا فاسيلي ايفانوفيتش ؟ »

« نعم يا عزيزتي . »

« هل جئت من عند انيوشا ؟ أخشى ألا يكون مرتاحاً في نومه . لقد قلت لانفيسوشكا أن تحمل اليه منامك العسكري ، والوسائد الجديدة . لقد كان بودي أن نعطيه اللحاف المحشو بالريش ، ولكنني تذكرت أنه لا يجب أن ينام نومة ناعمة . »

فقال الأب وهو يتمم صلاته : « اطمأني يا عزيزتي ، إنه في حالة جيدة ... إرحمنا يا إلهي ، نحن المساكين الخاطئين . »

لقد كان يخاف على عجوزه المسكينة . ولذلك فقد أجل إعلان هذا الخبر المفجع لها .

وفي الغداة سافر بزاروف وأركادي ، وبدا كل شيء في الدار حزينا

كثيلاً عند الصباح . فقد سقطت الآنية من يد انفيسوشكا ، وكان فيدكا نائراً ، وقد انتهى به الأمر أن ترك لبس الحذاء ، وبدأ فاسيلي ايفانوفيتش منهمكاً في العمل ، لقد كان يحاول عبثاً إخفاء حزنه ، كان يتكلم بصوت عال ، ويصفق بجذائه ، ولكن وجهه كان باسراً ، وكان يتحاشى النظر الى ولده . وكانت ارينا فلاسيفنا تبكي بهدوء ، ولو لم يعظها زوجها طوال ساعتين متواليتين ، لاختل عقلها ، وبعد أن وعد بزاروف عدة مرات بأنه سيعود قبل انقضاء شهر ، انتزع نفسه من بين الأذرع التي كانت تحتجزه ، وركب المركبة . وعندما تحركت الحيل ورنّت الأجراس ودارت العجلات ، وابتعد الركب عن مدى النظر ، وهبط وراءه ستار من الغبار ، رجع تيموفيتش مترنحاً الى غرفته الصغيرة وقد قصم الحزن ظهره . وعندما وجد العجوزان نفسيهما داخل البيت الذي بدا في أعينهما غاية في الضيق والصغر ، جلس فاسيلي ايفانوفيتش على كرسي ، وترك رأسه يتدلى فوق صدره ، وكان قد أظهر جلدأ وصبراً عندما لوح بمنديله أمام المدرج .

وشرع يهمهم : « لقد تركنا ، هجرنا ، لقد تملكه الضجر بين ظهرائنا . انني الآن وحيد ، وحيد كل الوحدة . »

وكان يكرر هذا عدة مرات ، وذراعه ممدودة أمامه وسبابته مرفوعة . فاقتربت منه ارينا وأسندت رأسها الأبيض الى رأسه المشتعل شيباً ، وقالت له : « ماذا تنتظر يا فاسيا ، الولد فلذة الوالد الذاهبة ، انه كالعصفور ، يطير جيئة وذهاباً كما يشتهي . أما نحن ، فانا ، فطرتان

داخل شجرة ، تكون أحدها قرب الأخرى دوماً . أنا الوحيدة التي
ستكون بقربك الى أبد الآبدين ، دون تغيير ، وكذلك أنت
بالنسبة لي . »

فأزاح فاسيلي ايفانوفيتش يديها اللتين تغطيان وجهها ، وعانق
شريكة حياته بلهفة من لم يفعل ذلك قبلاً ، حتى في شبابه ، لقد عرفت
كيف تأسو جراحه .

الفصل الثاني والعشرون

ظل صديقانا صامتين ، ولم يتبادلا إلا بعض كلمات لا معنى لها ، حتى اللحظة التي وصلا فيها الى فيدوت ، ولم يكن بزاروف راضياً عن نفسه كل الرضا ، وكان أركادي غير راض عنه أيضاً ، وكان علاوة على ذلك حزيناً بدون سبب ، ذلك الحزن الذي يعرفه الشبان اليافعون وحدهم . وبعد أن أبدل الحوذني الخيول ، صعد ثانية الى مقعده وسأل : « أئمنة أم يسرة ؟ »

فاختلج أركادي ، فالطريق الأيمن يؤدي الى المدينة ، ومن هناك الى بيت أبيه ، والطريق الأيسر يقود الى مدام اودينتسوف ، فألقى نظرة خاطفة على بزاروف وقال له : « ألى اليسار يا ايفاجني ؟ » فالتفت الثاني ودمدم : « يا للحماقة »

فأجابه أركادي : « أعلم أنها حماقة ... ولكن ما أهمية ذلك ؟ ليست هذه هي الاولى . »

فقال بزاروف أخيراً : « كما تشتهي . » فصاح أركادي : « الى اليسار . » وتحركت المركبة في اتجاه نيكولوسكوي .



ولكن بعد أن صمم الصديقان على ارتكاب هذه الحماقة حبس كل منهما نفسه في صمت لا يأتيه النطق من بين يديه ولا من خلفه فكأنهما في خصام مخدوم . ولم يدركا أنهما قد ركبا متن الطيش والتهور وراء أهوائهما إلا عندما استقبلهما الخادم . لم يكن أحد يتوقع مجيئهما ، وهذا واضح ، فظلا فترة طويلة في الثوي ، في حالة يرثى لها .

ثم ظهرت مدام اودينتسوف أخيراً ، واستقبلتهما بما عهد فيها من لطف ، ولكنها بدت مشدوهة من عودتهما السريعة ، التي لم تكن لتسرهما قط ، هذا ما كان يستخلص من حديثها وحركاتها .

وأسرعا فأعلننا إليها بأنهما لم يأتيا إلا عابري سبيل . وأنهما سيرحلان الى المدينة بعد أربع ساعات ، فاكثفت باظهار التعجب ورجت من أركادي أن يذكرها عند أيه نيقولايتروفيتش ، وأرسلت من يخبر عمتها . فنزلت الأميرة ، وهي نعسى جداً ، فأضفى ذلك على وجهها المغضن ما زاده خبشاً . أما كاتيا فقد لزمت غرفتها لوعكة في صحتها ، فأدرك أركادي في الحال بأنه يشتهي أن يراها بقدر ما يشتهي أن يرى انا سيرجيفنا . ومضت أربع ساعات في أحاديث لا معنى لها ، في الكلام عن الآخرين . كانت مدام اودينتسوف تتكلم وتصغي دون أن تبسم ، ولم تستيقظ بشاشتها القديمة إلا لحظة السفر .

قالت لهما : « انني ضجرة متبرمة ، ولكن لاتهما بذلك ، وعودا لرؤيتي بعد زمن قصير . هل تفهما في أتما الاثنين ؟ »

فلم يجيبا بغير الانحناء ، وصعدا الى المركبة ، وفي هذه المرة لم يتوقفا

في أي مكان ، بل واصلا سفرهما الى مارينو ، حيث وصلا في مساء اليوم التالي ، دون حادث ، وفي خلال الطريق كله لم يلفظ أحدهما اسم مدام اودينتسوف . بل لم يفتح بزاروف فاه على وجه التقريب ، بل كان يسرح نظره بعناد واصرار في نقطة بعيدة في الأفق .

واحتفل بهما في مارينو . فقد كان نيقولا يبتروفيتش قد شرع يقلق لغياب ابنه الطويل ، وحينما هرعت ثينجكا راكضة لتعلن قدوم « السيدين الشابين » وعيناها تلتمعان فرحاً ، صرخ جبوراً ، وحرك ساقيه وتمايل طرباً فوق الأريكة . وحتى بول بتروفيتش نفسه قد شعر بانفعال عذب ، وابتسم بتلطف ، وتنازل فمز ، بقوة وعنف ، يدي القادمين .

وأكثروا التثرة والكلام ، وكان أركادي أكثرهم كلاماً ، خصوصاً عند العشاء ، الذي امتد الى ما بعد منتصف الليل . وقدم نيقولا يبتروفيتش بعض القناني من خمرة بورتر المجلوبة من موسكو ، وانغمس هو نفسه أيضاً في الفرح والمرح ، حتى احمر خداه ، وكان يطلق ضحكات صبيانية نوعاً ما ، لا تخلو من حكمة ، وسرى الابتهاج حتى شمل الخدم ، فكانت دنيا شاتروح وتغدو كالجنونة ، وهي تصفق الأبواب ، وما برح يتر ، حتى الساعة الثانية صباحاً ، يعزف على القيثارة ، محاولاً اخراج لحن فالس قوزاقي ، فرنت الاوتار رسالة في الفضاء الساكن لحناً شاكياً لطيفاً ، ولكنها كانت محاولة من خادم مدرب ليس غير ، فلم تتجاوز حداً معيناً . ان الطبيعة قد رفضت أن تمنحه الموهبة الموسيقية ، كما رفضت منحها

الكثيرين غيره في العالم .

ومع ذلك فلم يكن كل شيء على ما يرام في مارينو . فقد كان في
مزرعة نيقولايتش بتروفيتش المسكين اضطراب وارتباك . ففي كل يوم
مصاعب جديدة . فالعمال المأجورون قد أصبحوا لا يطاقون . فبعضهم
يطلب بالزيادة أو بالحساب ، وبعضهم يهرب بعد استلام السلفة ، وكانت
الخيول تتساقط مريضة ، وبعضها يغدو غير صالح للاستعمال لحظة
استخدامه ، والأشغال لا تنفذ كما يجب ، وظهر أن النورج الذي أرسل له
من موسكو ثقيل جداً الى درجة تعذرت الاستفادة منه . وتلف النورج
الآخر بمجرد البدء في استعماله ، وقد احترق نصف الاصطبل لأن خادمة
عجوزاً عمياء ، ذهبت اليه في يوم عاصف أهوج لترقى بقرتها بجرازة
ملتهبة (وقد كانت ترى ، في الحقيقة ، أن السيد هو الذي جر الكوارث ،
بشروعه في صنع الجبن والمنتجات الحليبية الأخرى على طريقته) وانتاب
رئيس الخدم الكسل فجأة ، فشرع في البدانة والاكتناز ، شأن أي
روسي يأكل دون أن يقوم بعمل . أما نيقولايتش بتروفيتش فكان يرمي
خزيراً عابراً بحجر ، أو يهدد صديقاً نصف عارٍ ، ليدل على نشاطه وغيرته ،
وفيما عدا ذلك كان يقضي الوقت في النوم . وما كان الفلاحون يؤدون
الديون في مواعيدها ، وكانوا يسرقون الخشب من الغاب ، وفي كل يوم
تقريباً ، كان الحراس يلقون القبض على خيول الفلاحين وهي ترعى في
مروج المزرعة ، فلا يستطيعون طردها إلا بعد معارك . وقد فرض
نيقولايتش بتروفيتش غرامة نقدية على كل ضرر يحدث من جراء ذلك ،

ولكنه كان ، في أغلب الأحيان ، يعيد الحيوانات الى مالكيها بعد أن تقضي بضعة أيام في اسطبلاته . ويتوج كل ذلك أن الفلاحين غالباً ما كانوا يشرعون في المنازعات والقتال ، فهؤلاء اخوة يطلبون القسمة ، لأن زوجاتهم لا يستطعن العيش تحت سقف واحد ، ثم ينشب القتال على حين غرة ، كأنه حدث بإشارة متفق عليها ، وسرعان ما تقوم القرية على قدم وساق ، فيجتمع الفلاحون أمام مكتب السيد ، ممزي الوجوه ، يترنحون سكرأ ، وصراخهم قد بلغ عنان السماء ، يطلبون العدالة والقصاص ، وفي هذه الجلبة والصخب والضجيج ، تختلط شكاوى النساء الحادة ، بشتائم الرجال ولعناتهم . فكان ينبغي لحسم النزاع الصراخ الى أن يبع الصوت ، مع العلم مقدماً ، بأنه يستحيل الوصول الى حل عادل منصف تماماً . وكان هنالك نقص في الأيدي الحاصدة ، وتعهد مالك صغير مجاور ، يوحى وجهه بالثقة ، بتجهيز الشغيلة ، على أن يتقاضى روبلين عن كل كيلة روسية ، ولكنه نكث عهده دون حياء أو خجل ، وطلبت الفلاحات اللواتي أرسلهن ثمناً فاحشاً . ولطول بقاء الحنطة في سنا بلها بدأت تنفرط حبوبها ، فلم يبق إلا الهشيم . وعندها يطالب ، وكلاء العملاء ، برد الثمن المدفوع قسم منه مقدماً ، مع الفوائد المستحقة .

وقد صرح نيقولاى عدة مرات جازعاً : « لم تعد بي طاقة ، بل لن أتنازع مع هؤلاء الناس . ان مبادئى تمنعني من الاستعانة بالشرطة . ومع ذلك فلا شيء يمكن عمله بدون الخوف من العقاب . »

فأجابه بول بتروفيتش وهو يترنم مقطباً حاجبيه فاتلاً شارييه :

« هدىء روعك ، هدىء روعك . »

وانتحي بزاروف ناحية ، بعيداً عن هذه « التعاسات » وفضلاً عن ذلك فبوصفه ضيفاً في البيت ، لم يكن له أن يدس أنفه في أمور لا تخصه . وفي غداة عودته الى مارينو ، انهمك في ضفادعه ونقايعاته وتفاعلاته الكيمائية التي استغرقتة بكامله . أما أركادي ، فكان على النقيض شاعراً بواجبه ، فان لم يساعد أباه فعلاً ، فلا أقل من أن يظهر نفسه مستعداً لمساعدته ، وكان يصغي اليه في صبر ، وجازف مرة بأن قدم له نصيحة ، لا على أمل اتباعها ، بل لأجل أن يظهر نياته الطيبة . ولم يستنكف من العمل في الامور المنزلية . وكان يعلم أيضاً ، دون أن يسره ذلك ، بأنه سيقف نفسه يوماً على الامور الزراعية ، أما في الوقت الحاضر فتعمر رأسه أفكار أخرى . كان يفكر دائماً في نيكولسكوي ، وما اذا كان سينال إعجاب سيدتها ، وكان في الأيام الخوالي ، يرفع كتفيه سخرية ، لو أن أحداً قال له بأنه سيضجر يوماً ، وهو مع بزاروف تحت سقف واحد ، تحت سقف أبيه . ومع ذلك فقد ملك عليه السأم أقطار نفسه ، وأصبح منتهى أمله أن يرحل . وداوى العلة بأن صار يقوم بنزهات وتجولات طويلة ، حتى يسقط من التعب ، ولكن هذا لم يعد عليه يجدوى . وتحدث ذات يوم مع أبيه ، فعلم بأنه يملك عدة رسائل في غاية الأهمية ، كانت ام مدام اودينتسوف قد كتبتها في الأيام الماضية الى زوجته فلم يكف عنه حتى سلم اليه هذه الرسائل ، بعد أن نقب عنها في أكثر من عشرين درجاً وحقيقية . وبعد أن استولى على هذه الأوراق ، التي

الفصل الثالث والعشرون

انفرد بزاروف بنفسه نهائياً بعد أن ودع أركادي ، بأن صحبه الى مركبته ، وأبدى له تأسفه الساخر ، وأفهمه بجلاء بأنه قد أدرك ما يعني نفسه به ، والغرض الحقيقي من رحلته . وكان بزاروف فريسة انهماك في الشغل والعمل حقيقة فلم يتجادل مع بول بتروفيتش ، خصوصاً وأن هذا الأخير كان يتظاهر بالاستقرار ، أكثر من أي وقت مضى ، فلا يكاد يعبر عن آرائه إلا بمقطع واحد . وخاض مرة واحدة فقط في مناقشة مع انهليستي ، في موضوع حقوق الطبقة العليا البلطيقية ^(١) . وكان الحديث يجري على ما يرام ، ولكنه انقطع فجأة ، حين قال بول بلمهجة أدب باردة :

(١) كان النبلاء البلطيقيون أحفاد الغزاة الألمان يقيمون في مقاطعات البلطيق منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولم يكونوا ليشكلوا أكثر من عشرين بالمائة من مجموع السكان ، ومع ذلك ، فقد كانوا يتمتعون بالامتيازات الخاصة ، التي منحتها لهم الحكومة القيصرية ، وكانوا يحتلون مكانة فائقة في الحياة الاقتصادية ، كما كانت لهم اليد الطولى في ادارة القطر .

« على كل حال نحن لا نستطيع أن نفاهم . وليس لي ، على الأقل ،
شرف تفهمك . »

فصرخ بزاروف : « أهكذا ؟ ان الانسان يستطيع أن يفهم كل شيء ،
يفهم ارتعاشات الأثير ، وما يحدث في الشمس . ولكنه لا يستطيع أبداً
أن يفهم كيف يتمخط غيره بطريقة غير طريقته . »

فقال بول بتروفيتش وهو يبتعد : « أتعد هذه ظرافة ؟ »
ومع ذلك فقد كان يسأل بزاروف أحياناً ، أن يسمح له بمشاهدة
تجاربه ، بل أنه أدنى مرة وجهه الذي عطره بأخضر الروائح ، وغسله
بأحسن الصابون ، من المجر ، ليشاهد نقاعية شفاقة تمتص حبيبة خضراء
مسحوقة ، بواسطة كاشتين سريعتين في عنقها .. وكان نيقولا بتروفيتش
يقوم بزيارة بزاروف أكثر من أخيه ، وكان بوده أن يأتيه كل يوم
« لياخذ دروسه » كما كان يقول ، لولا أن أشغاله تمنعه . ولم يكن ليثقل
على الشاب بشيء ، كان يجلس في زاوية من زوايا الغرفة ، ويتابع تجاربه
باهتمام وانتباه ، ولا يسمح لنفسه إلا بسؤال حفيف بين حين وآخر .
أما وقت الغداء والعشاء ، فكان يجتهد في إدارة الحديث حول الفيزياء
والجيولوجيا والكيمياء ، وكل المواضيع الأخرى ، حتى قضايا الاقتصاد
المنزلي ، دون أن يتكلم ، بطبيعة الحال ، في السياسة ، لأنها ان لم تجر
إلى المنازعات ، فهي تنتهي بالشحناء ، على الأقل . وكان نيقولا بتروفيتش
على علم بكره أخيه لبزاروف . وقد وقعت حادثة أقرته على رأيه . فقد
انتشرت الكوليرا في الأنحاء ، وأودت بحياة اثنين من سكان مارينو .

واصيب بول بتروفيتش في احدى الليالي بنوبة خطيرة ، فأخذ يتألم حتى الصباح ، ولكنه رفض الاستعانة بزاروف . وفي الغداة ، حين سأله هذا عن السبب في عدم استدعائه ، أجابه ، وهو ما يزال شاحباً ، وكان قد قد سرح شعره وحلق وجهه على أحسن ما يرام : « ألم تصرح أنت نفسك بأنك لا تؤمن بالطب ؟ » وهكذا انقضت الأيام ، وزاروف عابس يواظب على عمله في نشاط وحرارة ، ومع ذلك فقد كان في المنزل مخلوق يحب بزاروف أن يحادثه ، دون أن يتعمق معه ويتبسط ، ذلك هو مئجكا . كان يصادفها في الصباح عادة ، في ساعة مبكرة ، في الحديقة أو في باحة الدار ، وكان لا يدخل مطلقاً غرفتها ، ولم تقترب هي من بابه إلا مرة واحدة ، لتسأله اذا كان غير ضار أن تسبح ميتياً . وكانت بعيدة كل البعد عن الخوف منه ، بل كانت تثق به ثقة تامة ، وكانت ترتاح لوجوده غاية الارتياح ، وتفرح بوجوده أكثر مما تفرح بوجود نيقولاي بتروفيتش نفسه . وكان من الصعب عليها أن تبين السبب . كانت تشعر بصورة غريزية بأنه ليس ذلك المثير النبيل ، وليس فيه من التعالي ما يجذب ويخيف معاً ، وكان في نظرها ، طبيياً بارعاً ، كما كان انساناً بسيطاً . وكان وجوده لا يمنحها من الاعتناء بولدها . وقد تناولت يوماً ملعقة دواء ، بعد أن أذهلها صداد عنيف ألم بها . وكانت تتجنبه أمام نيقولاي بتروفيتش ، لاعن مكر وخداع ، بل مراعاة للمواضع . وكان خوفها من بول بتروفيتش في ازدياد مطرد ، وكان يلوح لها أنه يترصدها ويراقبها منذ حين ، فقد كان يبرز أمامها فجأة كأنه قد خرج

من الأرض ، في زيه الانكليزي ، وبوجهه الجامد ، ونظراته النفاذة ،
ويداه في جيبه . فتقول لـ نياشا : « انه يرعش الانسان ، كجردل من
ماء بارد قد صب فوق راسه » فتجيبها هذه متنهدة ، مفكرة في آخر :
(لا قلب له) وكان بزاروف دون علمه ، هو الطاغية القاسي على قلبها .
واذا كان بزاروف قد راق مينجكا ، فانها قد راقته هي أيضاً ،
فكان عندما يحدثها ، يتألق وجهه ، وتبسط أساريره ، وترق ملامحه ،
وتستحيل عجزته الى بشاشة ولطف . وكانت مينجكا تزداد جمالاً يوماً
بعد يوم . وللنساء الشابات أوان ، يشرعن فيه بالازدهار والانتعاش
لجأة ، كأنهن أزاهير الصيف . وكان هذا الأوان قد حل بالنسبة لها .
وقد ساعدها على ذلك كل شيء حتى حرارة تموز ، وكانت تلوح وهي
في ثوبها الأبيض الخفيف ، أشد بياضاً ، وأكثر خفة . أما بشرتها فلم
تدركها السمرة . لقد لونت الحرارة ، التي كانت لا تحتمي منها ، خديها حتى
أذنيها ، ونثرت على كيانها بأسره هموداً حلواً ، ووضعت في عينيها الجملتين
نعاسة كسلى . فغداً من المستحيل عليها أن تقوم بعمل ، تقريباً ،
فدراعاها ساقطان بجانبها دون حول ، واذا ما مشت وجدت صعوبة كلية
في المشي ، وكانت لا تنقطع عن التهد والشكوى في عناء مضحك ،
ونصحها نيقولاى بتروفيتش بقوله : « عليك أن تستحمي كثيراً ، »
وكان قد هياً لهذه الغاية مكاناً واسعاً ، مغطى بخيمة في احدى بركة
التي لم تجف بعد تمام الجفاف .

فأجابته : « اوه ، يانيقولاى بتروفيتش ، سوف أموت قبل الوصول ،

أو بالأحرى حين أعود . لا يوجد ظل في الحقيقة . »

فأجابها وهو يسمح حاجبيه بيده : « صحيح ، لا يوجد ظل . »
وفي الساعة السابعة ، من صباح ذات يوم ، عندما كان بزاروف
عائداً من جولته ، وجدها في جوسقها حيث أزهار الليلاك ، الذابلة من
عهد طويل ، ولكن أشجارها لم تزال خضراء مورقة . كانت المرأة
الشابة جالسة ، وعلى رأسها شال أبيض ، كعادتها ، وكانت بجانبها كومة
من الورود البيضاء والحمراء ، رطبة لم يجف عنها الندى . فتمنى لها
صباحاً جميلاً .

فقالت : « آه ، يا أيفاجني فاسيليتش ، أهذا أنت ؟ » وبغية أن تراه
جيداً ، رفعت حافة شالها قليلاً ، كاشفة عن ذراعها الى المرفق .
فقال لها بزاروف وهو يجلس بقربها : « ما تصنعين هنا ؟
باقات أزهار ؟ »

« نعم لتزيين المائدة ساعة الغداء . هذا يسر نيقولايتروفيتش . »
« الغداء ما زال بعيداً . يا لها من أزهار ! »
« لقد قطفتها قبل أن تشتد حرارة الجو ، اذ من المستحيل عليّ أن
أخرج بعد ذلك . انني لا أتشم الهواء إلا خلال هذه الساعات القلائل ،
ان هذه الحرارة تقتلني ، ألن أسقط مريضة ؟ »
« يا لها من فكرة . فلا جس نبضك قليلاً . »

وأمسكها من معصمها ، ووضع ابهامه على شريانها ، ولم يكلف نفسه
حتى عناء حسابان دقات النبض المنتظمة .

وقال لها وهو يفلت يدها : « ستعيشين مائة سنة . »

فصرخت : « آه وقائي الله منها . »

« لماذا ؟ ألا تريدن اذن أن تعيشي طويلاً ؟ »

« مائة سنة ؟ لقد عاشت جدتي خمسة وثمانين عاماً ، ولكن يا لها من

شهيدة ، لقد أصبحت عمياء صماء ، حذباء ، تسعل دائماً ، فما أتعس أن

يعيش الانسان هكذا . هل تساوي الحياة هذا العناء ؟ »

« اذن فالأحسن أن يكون الانسان شاباً ؟ »

« أعتقد ذلك كل الاعتقاد . »

« ولماذا ؟ أخبريني . »

« كيف لماذا ؟ فأننا على سبيل المثال ، حينما أكون شابة ، أستطيع

أن أعمل كل شيء بنفسني ، أذهب وأجيء ، وأجلب ما أحتاج اليه ، دون

أن اكلف أحداً بذلك ، فهل ثمة ما هو أجمل من ذلك ؟ »

« أما أنا فسيان عندي أن أكون شاباً أو عجوزاً . »

« سيان عندك ؟ عجيب غريب ، إن ما تقوله مستحيل . »

« احكمي بنفسك يا فيودوسيا نيقولايفنا . ما فائدة شبابي ؟ انني

أعيش وحيداً ، وليس لدي شخص ... »

« اوه ، ان هذا يتوقف عليك . »

« أنت واهمة . ليت هنالك شخصاً يعطف علي ! »

فألقت عليه ثينجكا نظرة رائعة . ولكنها لم تجب . ثم سأله بعد

ذلك : « ما كتابك هذا ؟ »

« هذا كتاب علمي عسير فهمه . »

« أما تزال تدرس ؟ ألا يضجرك هذا ؟ لا بد أنك تعلم كل شيء . »

« يظهر أنني لا أعرف كل شيء . حاولي أن تقرأي قليلاً . »

فسألته مينجكا وهي تتناول المجلد السميك بكلتا يديها : « ولكنني
لن أفهم منه قطرة ، هل هو مكتوب باللغة الروسية ، على أقل تقدير ؟
ما أضخمه ! »

« باللغة الروسية ، باللغة الروسية . »

« الأمر سواء ، فلن أفهم منه شيئاً . »

« اوه ، ليس لأجل أن تفهمي ، ولكنني أردت أن تقرأي . فحينما
تقرئين تتحرك نهاية أنفك حركة غاية في اللطافة والعذوبة » فانفجرت
مينجكا ضاحكة ، وأفلت الكتاب فوق على الأرض ، وكانت قد بدأت
تهجى بصوت هامس كلمة صادقتها ، عن أحد العقاقير التي تستعمل ضد
السل وأمراض الأسنان . وقالت : « كفى ، كفى . »

« أحب أن أسمعك تتكلمين . لكأن حديثك خير جدول . »

فأدارت رأسها وقالت وهي تمسح الأزهار بأصابعها : « يالك من
ماكر ! أية لذة تجدها في سماعي ؟ ينبغي لك أن تحاور سيدات على جانب
عظيم من الثقافة . »

« آه يائيودوسيانيقولايفنا ، صدقيني اذا قلت لك أن جميع سيدات

الأرض المثقفات لا يساوين مرفقك . »

فهممت مينجكا وهي تضم ذراعيها الى جسمها : « أية حكاية تقصها علي ؟ »

فالتقط الكتاب وقال : « هذا كتاب طب ، كيف ساغ لك أن تطرحه على الأرض ؟ »

فرددت ثينجكا وهي تلتفت اليه قائلة : « كتاب طب ؟ من يوم أن أعطيتني القطرات ، وميتيا ينام نوماً يبعث على السرور . هل تذكر ذلك ؟ لست أدري كيف أشكرك ، انك طبيب طيب جداً . »

فأجابها بزاروف مبتسماً : « الطبيب يتقاضى حقه . انك تعرفين جيداً أن الأطباء ليسوا نساكاً . »

فرفعت الى بزاروف عينيها قد أكسبهما الضوء الباهر المنعكس عن وجهها كثيراً من الغموق . ولم تدر أكان يتكلم جاداً أم هازلاً وأجابته : « بكل سرور . يجب أن نتحدث في ذلك الى نيقولاى بتروفيتش ... » فقاطعها بقوله : « أعتقد انني أريد نقوداً ؟ كلا ، ما أريده ليس نقوداً . »

« فما هو اذن ؟ »

« احزري . »

« لست عرافة . »

« حسناً . سأقول لك . انني أريد ... أريد احدى هذه الازهار . »

فقهقهت ضاحكة وشرعت تضرب يداً بيد من فرط ما بدا لها بزاروف مضحكاً مسلياً . وكان ضحكها مشوباً بزهو وخيلاء . فأخذ يحدجها بنظراته .

وقالت أخيراً : « بكل طيبة خاطر ، بكل طيبة خاطر » ومالت على

المقعد واختارت زهرة وقالت : « أحمرء تريدها أم بيضاء ؟ »
« حمرء غير كبيرة . »

فاعتدلت في جلستها وقالت له : « هاك . » ولكنها سرعان ما سحبت يدها ، وعضت على شفتيها ، وصوبت عينيها شطر مدخل الجوسق ، وأرهفت أذنيها .

فسألها بزاروف : « ما الخبر . ؟ نيقولا ي بتروفيتش ؟ »
« كلا ... انه في الحقول ... وفضلاً عن ذلك ، فاني لا أخافه ...
ولكن هنالك بول بتروفيتش ... لقد خيل اليّ . »
« كيف ؟ »

« خيل اليّ أنه هناك . ولكن لا ... لا يوجد أحد . هاك . »
وأعطته الزهرة .

« ولكن لماذا تخافين بول بتروفيتش ؟ »
« انه يخيفني . انه لا يقول لي شيئاً ، ولكنه يحدجني بنظرة غريبة ،
وفضلاً عن ذلك ، فأنت أيضاً لا تحبه . لقد أوشكت بادئ الأمر أن
تتشاجر معه ، وأنت تشاخنه كل حين . ولم أفهم موضوع النقاش .
ولكني رأيتك تلعب به هكذا ... » ومثلت يديها كيف عبث به
بزاروف ، كما تصورت . فطافت ابتسامة على شفتيه .

وقال لها : « لو تغلب عليّ ، فهل تخفين الى نجدتي ؟ »
« أنا ؟ أخف لنجدتك ؟ ولكن ليس من السهولة التغلب عليك . »
« أتعقدن ذلك ؟ أما أنا ، فاني أعلم أن هنالك يداً تغلب عليّ متى تشاء . »

« وما هذه اليد ؟ »

« تبدين وكأنك لا تعرفين ، تنسمي الزهرة التي أعطيتها ، إنها

فواحة الشذى . »

فاشرأبت ثينجكا بعنقها ، وأدنت وجهها من الزهرة ... فزلق الشال
عن رأسها الى كتفها ، فكشف عن شعر غزير أسود لامع لا يخلو
من الشعث .

وقال لها : « انتظري » ثم مال فطبع قبلة قوية على شفتي المرأة
الشابة المفتوحتين الى النصف .

فارتعشت ودفعته بكلتا يديها دفعة بلغت حداً كبيراً من الضعف جعلته
يجدد قبليته ويطيها . «

وجاء صوت سعال جاف من وراء أزهار اليلاك . وأصبحت ثينجكا
في نهاية المقعد بطرفة عين . وظهر بول بتروفيتش ، وأوماً بتحية خفيفة ،
وقال بصوت حزين : « أهنا أنما ؟ » وابتعد .

فالتقطت ثينجكا جميع أزهارها في الحال ، وخرجت من الجوسق ،
وهي تهمس بصوت ينم عن التأنيب الخالص .
« شر ما صنعت يا ايفاجني فاسيليتش ! »

وتذكر بزاروف مشهداً آخر ، حديثاً كل الحداثة ، فاعتراه الحجل
والأسف ، واحتقر نفسه ، ولكنه سرعان ما هز رأسه وسخر من
نفسه ، وهرع الى غرفته .

أما بول بتروفيتش ، فقد خرج من الحديقة بخطى بطيئة ، وسار

حتى بلغ الغابة ، حيث هام الى أن حان موعد تناول الطعام . فسأله
أخوه على المائدة ، ما اذا كان منحرف المزاج ، لفرط ما خيم على وجهه
من ظلام وعبوس .

فأجابه بول بتروفيتش في هدوء : « إنك تعلم بأنني أشتكي أحيانا
من كبدي . »

الفصل الرابع والعشرون

بعد ساعتين ، قرع بول بتروفيتش باب غرفة بزاروف ، وشرع يقول ، وهو يجلس على كرسي ، قريباً من النافذة ، متكئاً بكتفايديه على عصا جميلة ، ذات مقبض من العاج على هيئة تفاحة (وما كان من عادته أن يخرج بعضاً)

« عذراً اذا أزعجتك ، وأنت منهمك في مشاغلك العلمية ، ولكنني ملزم بأن أرجوك أن تمنحني خمس دقائق من وقتك ... لا أكثر »
فأجابه بزاروف ، وكان قد شعر بانقباض خفيف ، سرى في وجهه عندما اجتاز بول بتروفيتش عتبة الباب :

« كل وقتي طوع أمرك . »

« حسبي خمس دقائق . لدي سؤال القيه عليك . »

« سؤال ؟ وما هو ؟ »

« هو ذا . في مطلع إقامتك في هذا البيت ، عندما كنت لا احرم نفسي من لذة التحدث اليك ، أتيت لي فرصة سماع رأيك حول مسائل كثيرة ، ولكنني ماعهدتك تشكلم أبداً ، لالي شخصياً ، ولا في حضوري ، عن المبارزات ، وعن موضوع المبارزة بوجه عام . فاسمح لي أن أسألك

رأيك في هذا الموضوع . »

جلس بزاروف على حافة المنضدة ، وشبك ذراعيه ، بعد أن كان قد نهض لاستقبال بول بتروفيتش ، وقال :

« أما رأيي فإليك ، المبارزة من الناحية النظرية سخافة ، أما من الناحية العملية فثني آخر . »

« اذن ، فهما يكن رأيك من الوجهة النظرية ، بقدر ما فهمتك ، فانك لا تسمح ، من الناحية العملية ، أن تهان دون أن تطلب الثأر والانتقام . »

« كما تقول تماماً . »

« صحيح . انني لسعيد جداً إذ أسمعك تقول ذلك . وان كلمتك لتضع حداً لارتياحي . »

« تريد أن تقول لحيرتك وترددك . »

« الأمر سواء ، يكفيك أنك تفهمني ، لست ... فأراً في مدرسة اكليركية . لقد أغنتني كلماتك عن الالتجاء الى وسيلة حقيرة أخرى . لقد عزمت على مقاتلتك . »

فجحظت عينا بزاروف وقال : « معي ؟ »

« تماماً . معك . »

« ولماذا ؟ أرجوك . »

« في استطاعتي أن أخبرك بالسبب ، ولكنني أفضل السكوت عنه . انني أرى أنك قد تجاوزت حدودك هنا . اني لا أستطيع احتمالك ،

انني أحتقرك ، و اذا كان ذلك لا يكفيك ... » و تطاير الشرر من عينيه .
و تأججت عينا بزاروف كذلك وقال : « حسناً ، كل شرح آخر
يكون من فضول القول . لقد تملكك هوى ممارسة الفروسية ، المتشعبة
بها روحك ، معي . باستطاعتي أن أرفض اشفاء غليلك هذا ، ولكنني
لا أفعل . »

فأجابه بول بتروفيتش : « إنني ممتن لك غاية الامتنان ، أستطيع إذن
أن أومل بأنك تقبل دعوتي للقتال ، دون أن تضطرنني أن ألتجئ الى
اجراآت عنيفة أخرى . »

فأجابه بزاروف بيروود : « تعني بذلك استعمال العصا ؟ اذا أردنا
الحقيقة فالحق معك ، بإمكانك أن تعني نفسك منها ، فلا يصيبك من
ذلك خطر . ابق رجلاً مهذباً ... و بما أنني رجل مهذب أيضاً ، فاني
أقبل دعوتك . »

فقال بول بتروفيتش وهو يضع عصاه في زاوية من زوايا الغرفة :
« حسن جداً . و الآن اليك بعض الايضاحات حول شروط منازلتنا .
ولكنني أود أن أعلم قبل كل شيء ، اذا كنت ترى من الضروري اصطناع
منازعة تبرر دعوتي من الناحية الشكلية ؟ »

« كلا على العكس . »

« كذلك رأيي ، وأرى أيضاً أن من الخير ألا تتعمق في البواعث
الحقيقية على خصامنا . نحن لا نستطيع أن يحتمل أحدهنا الآخر ، ماذا
يقتضي أكثر من هذا ؟ »

فردد بزاروف بسخرية : « حقا ، ماذا يقتضي أكثر من هذا ؟ »
« أما عن شروط منازلتنا ، فبما أنه لا شهود لنا ... وإلا فأين
نجدهم ؟ »

« نعم أين نجدهم ؟ »
« اذن فلي الشرف أن اعرض عليك الاقتراح التالي ، سنتنازل في
مطلع صباح الغد ، في الساعة السادسة ، وراء الغابة بالمسدس ، وستكون
المسافة عشر خطوات ... »

« عشر خطوات ، فليكن . إتنا تتباغض حتى على هذا البعد . »
« ثمانى خطوات اذا كنت تشتهي . »
« لم لا ؟ بطيبة خاطر . »

« ستكون هنالك طلقتان لكل منا ، ومهما يحدث ، فسيكون في
جيب كل منا رسالة يتهم نفسه بها بقتل نفسه . »
فقال بزاروف : « أما على هذه النقطة الأخيرة فلا أوافقك ، هذه
طريقة القصص الفرنسية . »

« ربما ، ولكنك توافق على أن الإنسان يكره أن يسمى قاتلاً . »
« أوافقك . ولكن هناك وسيلة لنجاة الانسان من هذا الاتهام
المحزن . فلن يكون لنا شهود بالمعنى الصحيح ، ولكن في الامكان أن
نجعل بعض الناس يشاهد المعركة . »
« ومن هو هذا ؟ »

« بيتر . »

« اي بيتر ؟ »

« خادم أخيك . إنه خادم بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، يقوم بدوره كما ينبغي ، وكما يطلب في مثل هذه الحالة . »

« أعتقد أنك تمزح يا سيدي العزيز . »

« كلا البتة . تدبر أمرك ، وستعلم أن اقتراحي مفعم بالتفكير السليم ، وتحقيقه سهل ، كل شيء سيتم على ما يرام ، سأقوم أنا بأعداد بيتر ، واحضاره الى المكان . »

فنهض بول بتروفيتش قائلاً : « إنك ما تفتأ تمزح . وإن السرعة الجميلة التي قبلت بها طلبي قد دفعني الى أن أحملها على محمل غير حسن ... هكذا إذن كل شيء قد تمياً ... وبالمناسبة ، هل عندك مسدسات ؟ »
« كيف يكون عندي مسدسات ، يا بول بتروفيتش ، إنني لست من المحاربين . »

« في هذه الحالة سأقدم لك مسدساتي ، لقد مضى عليها خمس سنين دون استعمال ، تستطيع الاعتماد عليّ . »
« لقد طمأنتني . »

فتناول بول بتروفيتش عصاه وقال : « وعلى ذلك يا سيدي العزيز فلم يبق عليّ إلا أن أشكرك وأدعك لمشاغلك . ولي الشرف أن أحييك . »
فأجابه بزاروف وهو يتناول يده : « يسرني أن ألقاك مرة أخرى يا سيدي العزيز . »

ومضى بول بتروفيتش . أما بزاروف فقد لبث في مكانه أمام الباب ،

وصرخ فجأة :

« لا بأس ، هذا جميل جداً ، ولكنه سخي . أية مسخرة تمثلها !
إننا كالكلاب المروضة التي ترقص على أرجلها الخلفية . لقد كان
الرفض مستحيلاً حينئذ (وشحب وجه بزاروف لمجرد الفكرة ،
وئارت كبرياؤه) لو ضربني لما استطعت ردع نفسي عن خنقه كما
يخنق الكتكوت . »

وعاد فانكب على مجهره ولكن قلبه كان في غاية الاضطراب . لقد
زاياله الهدوء الذي لا يستغني عنه الفاحص بالمكرسكوب وقال لنفسه :
« لقد رأنا هذا الصباح ، ولكن هل من الممكن أن تتورثاثرته لأجل
أخيه ؟ إنها قبلة ، فيا لها من مشكلة خطيرة ، لا بد أن في الأمر سرّاً .
باه ، أهو مغرم بها ؟ ذلك واضح وضوح النهار ، لقد وقعت في ورطة
عظيمة ، يا لها من قضية مشؤومة ، هل ثمة أفضع من أن يعرض الانسان
جبهته للرصاص ؟ وعلى كل حال فليكن ما يكون . ثم هناك أركادي
ونيقولايتروفيتش الطيب الكريم . مشؤومة ، يا لها من قضية مشؤومة ؟ »
وانقضى النهار ، أشد هدوءاً ، وأكثر عبوساً مما هو معتاد . ولم تظهر
مئبجكا علامة لوجودها في الدار ، فقد ظلت في غرفتها كالقارة في جحرها .
وكان نيقولايتروفيتش مغموماً ، فقد تراسى اليه أن آفة الجبوب قد
بدأت تعبت في قمحه الذي كان يعلق عليه أعظم الآمال ، وأصبحت كياسة
بول بتروفيتش الثلجية تثقل على كل أحد ، حتى على بروكوفيتش . وبدأ
بزاروف يكتب رسالة الى أبيه ، ولكنه مزقها ورمها تحت المنضدة ،

وهجست في نفسه هذه الحاضرة : « اذا مت فسيبلغهم الخبر ، ولكنني لن أموت ، وما زال لدي وقت طويل أجز نفسي فيه على هذه الأرض . »
ورجا بيتر أن يجيئه عند انبثاق ضوء النهار ، لأمر خطير ، فتصور بيتر أنه يريد أن يأخذه معه الى بترسبورج . ونام بزاروف متأخراً ، وعذبه أحلام مقلقه متقلبة طول الليل . . . فترأت له مدام أودينتسوف دون انقطاع ، ثم حلت أمه محلها ، ورأى هراً اذا شاربين أسودين يتبعها . وكان هذا الهر مئنجكا . ورأى بول بترفيتش خشبة عظيمة عليه أن يصارعها . وأيقظه بيتر في الساعة الرابعة صباحاً ، فارتدى ثيابه على عجل وخرج معه .

كان صباحاً رائعاً رائعاً . وكانت غمام مختلفة الألوان قد تناثرت في الأفق الشاحب الصافي ، وكان الندى الرقيق يغطي الأوراق والأعشاب ، وكانت قطراته الفضية تتلألأ في الحقول ، وكانت التربة السمراء تلوح وكأنها ما زالت تحتفظ بآثار حمرة الفجر ، وكانت أغاني القنابر تنبعث من كل أقطار السماء . فوصل بزاروف الى الغابة ، وجلس في الظل ، وحينئذ فقط ، أعلم بيتر بالخدمة المنتظرة منه . فتملك الخوف خادمنا المتمدن ، ولكن بزاروف طمأنه مؤكداً له بأنه ليس عليه إلا أن ينظر من بعيد ، وأن لا مسؤولية عليه قط ، وأضاف : « ثم فكر بالدور المهم المسند اليك . »

وخفض بيتر ذراعيه ورأسه ، وازرق وجهه ، ومضى الى شجرة من أشجار الحور واستند اليها .

كان طريق مارينو يدور حول الغابة الصغيرة ، ولا عجلة فيه ، لا عجلة ولا قدم ، ولم يتحرك الغبار الخفيف الذي يكسو الطريق ، منذ الليلة ، وكان بزاروف يلقي بين حين وآخر ، دون ارادته ، نظرة على طول الطريق ، بينما كان يقطف بعض الأوراق ويمضغها مردداً : « يالها من سخافة » وقد جعله نسيم الصباح يرتجف مرتين أو ثلاث مرات ... ورفع بيتر اليه عينين مفعجوعتين ، ولكن بزاروف اكتفى بالابتسام فما كان خائفاً .

وسمعت قرعة سنابك الخيل على الطريق .. وبعد قليل ظهر فلاح بين الأشجار ، وكان يسوق أمامه جوادين مقيدين ، وحين مروره ببزاروف حدجه بنظرة غريبة ، دون أن يرفع قبعته ، فاضطرب بيتر ، إذ لا شك أنه وجد في ذلك شؤماً ، وفكر بزاروف : « لقد استيقظ هذا الرجل مبكراً ، هو أيضاً ، وسيقوم بعمل نافع ، على أقل تقدير ، على حين أننا ... »

فقال بيتر على حين غرة : « أعتقد أن هذا هو السيد . »
فرفع بزاروف رأسه ، ورأى بول بتروفيتش يتقدم في الطريق بخطى سريعة مرتدياً سترة خفيفة ذات مربعات ، وسروالاً أبيض يابض الثلج ، متباطأً تحت ذراعه علبة ذات غلاف أخضر .

وقال ، محيياً بزاروف أولاً ، ثم بيتر الذي اعتبره الآن رجلاً آخر : « معذرة ! أخشى أن أكون قد جعلتك تنتظر ، لم أشأ أن أوقظ خادمي . »

فأجاب بزاروف : « لا تثريب عليك . لقد وصلنا قبل مدة قصيرة . »
« آه ، هذا حسن جداً . »

وسرح بول بتروفيتش بصره حوله وقال : « لا يوجد أحد فلن
يزعجنا مزعج ... هل نبدأ ؟ »
« اذا شئت . »

« المفروض أنك لا تحتاج الى ايضاحات جديدة ؟ »
« قطعاً . »

قال بول بتروفيتش وهو يخرج المسدسات من العلبة : « أتريد
حشوها ؟ »

« كلا احشها أنت نفسك . سأقيس أنا المسافة . » ثم أضاف مبتسماً :
« ان ساقى طويلتان جداً ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ... »

فهمهم بيتر في جهد (وكان يرتجف كما ترتجف الورقة) : « يا ايفاجني
فاسيليتش ، افعل ما تريد ، ولكني سأبتعد قليلاً . »

« أربعة ... خمسة . نعم نعم ابتعد يا بطلي ، باستطاعتك أن تختبئ
وراء شجرة ، وتصم أذنيك ، ولكن لا تغمض عينيك ، فاذا سقط
أحدنا فاهرع وانهمزه ... ستة ... سبعة ... ثمانية ... » ثم توقف
بزاروف ، والتفت الى بول بتروفيتش متسائلاً : « أهذا كافٍ ؟ أم
نضيف خطوتين أخريين ؟ »

فأجابه وهو يدس رصاصة في أحد المسدسين : « كما تهوى . »
« إذن فلنضيف خطوتين . »

وخط بزاروف بنهاية حذائه خطأ على الأرض ، وقال : « هذا هو
الحاجز ، ولكن على أي بعد من الحاجز نقف ، هذه أيضاً مسألة مهمة
لم تدبرها أمس . »

فأجاب بول بتروفيتش وهو يقدم المسدسين : « على بعد عشر خطوات
كما يبدو لي . كن طيباً واختر أحدهما . »

« سأكون طيباً كما تحب ، ولكن وافقني على أن هذه المباراة
تضحك الشكلي . تأمل قليلاً وجه تابعنا بيتر . »

فأجاب بول بتروفيتش : « إنك ما تزال تمزح . ولا أنكر بأن
نزلنا غاية في الغرابة ، ولكنني أرى من واجبي أن أحذرك بأني سأقاتل
جداً لا هازلاً . واللبيب بالإشارة يفهم . » وكانت العبارة الأخيرة
بالفرنسية .

« إنني لا أشك بأننا قد عزمنا على أن يتخلص أحدنا من الآخر
ولكن لماذا لا نضحك قليلاً ونمزح ، ونضيف كلمة حتى النهاية (قلها
باللاتينية) فأنت ترى بأنك إذا خاطبتني بالفرنسية أجبتك باللاتينية . »
وكرر بول بتروفيتش وقد احتل مكانه : « سأقاتل جداً . »

وعد بزاروف عشر خطوات ثم توقف ، وسأل بول بتروفيتش :
« أمستعد أنت ؟ »

« نعم . »

« إذن هيا . »

فتقدم بزاروف دون عجلة ، وكذلك صنع بول بتروفيتش ، ويده

اليسرى في جيبه ، رافعاً فوهة مسدسه ببطء ... وقال بزاروف لنفسه :
« انه يسدد الى أنفي ، وينظر خلسة لتصويب رصاصته ، ياله من شقي ،
انه يروم أمراً غير مستحب . سأنظر الى سلسلة ساعته ... » ومرق شيء
قريباً من أذنه على حين فجأة ، وهو ينظر . وفي اللحظة ذاتها دوت
قرقرة . فكان له من الوقت أن يفكر قائلاً لنفسه : « لقد سمعتها ، فلا
خوف عليّ » ثم خطا خطوة ، وضغط على الزناد دون أن يعين الهدف ،
فارتعش بول بتروفيتش ارتعاشة خفيفة ، ووضع يده على فخذه .
وجرى خط من الدم على سرواله الأبيض .

فرمى بزاروف مسدسه ، وهرع اليه سائلاً : « هل جرحت ؟ »
فأجاب بول بتروفيتش : « كان لك الحق أن تجعلني أقدم حتى الحد ؟
ولكن لا بأس ، إن لكل منا أن يطلق رصاصة أخرى حسب اتفاقنا . »
فأجاب بزاروف : « المذرة ، سنترك هذا للمرة الاخرى . » وحمل
جسم بول بتروفيتش ، وكان قد شحب وجهه وقال : « انني قد انتهيت
بوصفي مبارزاً ، فأنا الآن طبيب . وينبغي قبل كل شيء أن أخفص جرحك .
يا بيتر ، تعال هنا ، يا بيتر أين أخفيت نفسك ؟ »

فأجاب بول بتروفيتش ببطء وتراخ : لا بأس عليّ ... لست في حاجة
الى معونة أحد ... فلنحاول ... مرة أخرى ... » وأراد أن يرفع يده
الى شاربه ، ولكن يده الضعيفة سقطت ثانية ، وزاغت عيناه ،
وفقد وعيه .

فصرخ بزاروف ، دون إرادته ، وهو يمدد بول بتروفيتش على

العشب : « كيف ؟ أتسقط مغمى عليك ؟ ولسبب تافه ؟ ... فلننظر قليلاً
ماذا ألم به . »

وسحب منديله ، وقطع نزيف الدم ، وجس حافة الجرح ، وقال
وهو يصك أسنانه : « العظم سليم . والرصاصة لم تنفذ الى الأعماق ،
ولم تقطع إلا عضلة واحدة ، وسوف يستطيع أن يرقص بعد ثلاثة
أسابيع . ولكنه وقع مغشياً عليه ، آه يا هؤلاء الرجال العصبيين ،
ويا لبشرته الرقيقة ! »

ورن صوت يتر المرتجف وراء ظهره : « هل قتل سيدي ؟ »
« اذهب سريعاً وابحث عن الماء يا شيخي ، سيعيش أكثر
مني ومنك . »

ولكن هذا الخادم المدرب بدا وكأنه لم يفهم قط ، وظل واقفاً في
مكانه . ففتح بول بتروفيتش عينيه ببطء . فرسم يتر علامة الصليب وهو
يهمهم : « إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة . »

فقال الجنتلمان الجريح ، وهو يتسم ابتسامة مغتصبة : « ألحق معك ..
فما أظطع سحنتي ! »

فصرخ بزاروف : « اذهب وابحث عن الماء أيها الآخرق . »
« لا فائدة من ذلك ... دوار بسيط لن يدوم طويلاً ... أعني على
الجلوس ... هكذا ... يكفي أن تعصب هذا الحداث وسأعود على قدمي
الى البيت ، وإلا فباستطاعتهم أن يبعثوا اليّ بعربة ، وستبقى هنا اذا شئت .
لقد تصرفت معي تصرفاً شريفاً ... اليوم ... اليوم . سجل ذلك . »

« لا فائدة من استذكار الماضي . أما عن المستقبل ، فلا تكلف نفسك عناء التفكير فيه ، لأنني عازم على الرحيل بأسرع ما يمكن ، دعني الآن أعصب ساقك . ان جرحك غير بليغ . ولكن من الضروري إيقاف الدم . ولكن يجب أن أعيد هذه الجثة الهامدة الى الحياة وأمسك بيتر من ياقته وهزه هزاً عنيفاً ، وأرسله ليفتش عن عربة . وقال له بول بتروفيتش : « إيتبه ، حذار أن تفزع أخي ، لا تقص عليه شيئاً مما حدث . »

فمضى بيتر راكضاً ليفتش عن عربة ، وظل الحصان جالساً جنباً الى جنب دون أن يتبادلا كلمة . وتجنب بول بتروفيتش النظر الى بزاروف اذ ليس في العالم قوة تستطيع أن تحمله على مصالحته . كان خجلاً من مظهره المتعرج ، ومن رعوثه ، ومن جميع تصرفاته في هذه القضية ، ولو أنه كان يشعر كل الشعور بأن المسألة لا يمكن أن تنتهي بخير مما انتهت اليه ، وقال لنفسه معزياً : « مهما كان الثمن فقد اتقينا الفضيحة ، واني لمسرور بذلك . » وطال الصمت ، الصمت المؤلم المخرج ، وشعر كل منهما بسأم وضيق ، واستيقن كل منهما بأنه يفهم صاحبه ، وذلك حلوا بين الاصدقاء ، ولكنه في غاية المرارة بين الأعداء ، وخصوصاً حين لا يستطيع أن يبت كل منهما ما به للآخر ، ولا يستطيعان انفصالاً . وسأله بزاروف أخيراً : « أخشى أن أكون قد شددت ساقك شداً قوياً ؟ »

« كلا ، كلا ، كل شيء على ما يرام . » وأردف بعد لحظة : « ليس

من السهل خداع أخي . سأقول له بأننا قد تخاصمنا من جراء السياسة . «
فأجاب بزاروف : « حسن جداً . تستطيع أن تقول له بأنني قد
قدحت في جميع المتأنكلزين . »

« أحسنت . » وأضاف بول بتروفيتش مشيراً الى فلاح على الطريق ،
وهو الذي مر أمام بزاروف بخيوله المقودة قبل المباراة ، والذي خبأ
نفسه احتراماً حين رأى الأسياد : « ماذا يقول عنا هذا الرجل
حسب رأيك ؟ »

فأجاب بزاروف : « أكثر ما يحتمل أنه لا يفكر بشيء . إن الفلاح
الروسي هو الغامض المجهول الذي تتكلم عنه كثيراً مدام رادكليف (١)
من يدري ؟ إنه هو لا يعرف نفسه . »

فقال بول بتروفيتش : « آه ، هذه هي المسألة » وصرخ في نفس
اللحظة : « انظر ما صنع خادمك الأحمق العظيم بتر ، هو ذا قادم
الينا خيباً . »

فالتفت بزاروف وشاهد يقولاي بتروفيتش في العربية ، شاحباً
شحوباً فظيماً ، وقفز الى الأرض قبل أن تقف العربية ، وهوى نحو أخيه
وسأل مشدوهاً : « ما معنى كل هذا ناشدتك الله ؟ يا ايها جني فاسيليتش
ما الخبر ؟ »

(١) مدام رادكليف ، ني وورد (١٧٦٤ — ١٨٢٨) قصصية
انكليزية كتبت « أسرار ادولفو » وغيرها . وقد سافرت كثيراً .



فأجاب بول : « لا شيء . لقد أخطأنا في ازعاجك . لقد تنازعنا أنا
والسيد بزاروف ، فعوقبت على ذلك بعض العقاب ، وهذا كل ما في الأمر . »
« ولكن متى حدث ذلك خبرني بحق الاله ؟ »
« كيف أشرح لك القضية ؟ ان السيد بزاروف لم يرع حرمة للسير
روبرت ييل حين تحدث عنه ، ولا سرع فأضيف بأنني كنت المجرم في
كل هذا . وان السيد بزاروف تصرف تصرف رجل مهذب ، وأنا
أنا الذي استغفرته . »

« ولكنني أرى دماً ؟ »

« اذن فهل كنت تتصور أن ماء يجري في عروقي ؟ باه ، إن هذا
الفصاد لا يعود عليّ إلا بالخير ، أيها الدكتور أعني على الصعود الى المركبة
ولا تتخذ هذه الهيئة الحزينة ، ولن يبق الى الغد شيء من كل هذا ،
وعلاوة على ذلك فاني في منتهى السلامة . قرع صوتك أيها الحوذي . »
وتبعه نيقولاي بتروفيتش راجلاً ، وتأخر بزاروف عنه قليلاً ،
فقال له نيقولاي بتروفيتش : « أرجوك أن تعالج أخي بعناية ، حتى
يقدم طبيب من المدينة . »

فالتحق بزاروف دون أن ينبس ببنت شفة .

بعد ساعة واحدة كان بول بتروفيتش مسجى على سريريه ، وقد
ربطت ساقه ربطاً جيداً . وكان البيت في هرج ومرج . فقد كانت ثينجكا
في حالة سيئة ، وانتحى نيقولاي بتروفيتش ناحية وهو يلوي أصابعه ،
وكان بول هو الوحيد الذي يضحك ويتندر ويتفكك ، وعلى الأخص مع

بزاروف . كان يرتدي قميصاً رقيقاً فاخراً من الباتيست . وسترة صباحية أنيقة ، وطاقية ، ولم يرض بأن يرخوا الأستار وكان يشكو ضاحكاً من الحمية التي فرضت عليه .

ولكنه أصيب بالحمى مساءً ، وانتابه صداع شديد . وقدم طبيب من المدينة (فلم يشأ نيقولاي بتروفيتش أن يصغي الى رجاء أخيه بعدم استقدام طبيب ، وكان بزاروف من جانبه يتمنى أن يكون الأمر كذلك) وقد بقي محبوساً في غرفته طوال النهار ، أصفر السحنة ، عكر المزاج ، لا يزور الجريح إلا زيارات قصيرة . وصادف ثينجكا مرتين ، فتحاشته فزعة . ووصف الطبيب القادم مشروبات منعشة ، وأكد عدم الخشية من حدوث اختلاطات . وقد أخبره نيقولاي بتروفيتش بأن أخاه قد جرح نفسه قضاءً وقدرأً ، فهمهم الدكتور شاكا ، ولكنه أضاف لما دسوا في يده خمسة وعشرين روبلاً : « كثيراً ما يحدث ذلك حقيقة . »

ولم يهجع أحد من سكنة الدار تلك الليلة ، وكان نيقولاي بتروفيتش يدخل غرفة أخيه في كل لحظة ، على رؤوس أصابعه ، ثم يخرج على تلك الصورة ، وكان بول بتروفيتش أيضاً لا ينام إلا غراراً ، فيستيقظ كل لحظة من نعاسه فيقول لأخيه بالفرنسية : « نم » أو يطلب ما يشربه . واضطر نيقولاي بتروفيتش ثينجكا مرة على أن تحمل له كوباً من الليمون ، فخدجها بول بنظراته ملياً ، ثم رشف الكأس الى آخر قطرة . وارتفعت حرارته في النهار قليلاً ، وأخذ يهذي . شرع في بادئ الأمر يلفظ كلمات متقطعة متنافرة ، ثم فتح عينيه بغتة ، وحينما رأى أخاه مكباً

عليه في اهتمام زائد ورعاية قال له :

« أليست ثينجكا تشبه نيلي قليلاً ؟ »

« عن أية نيلي تتحدث يا بول ؟ »

« كيف تسأل عن هذا ؟ إني أتحدث عن الأميرة (ل) خصوصاً

في أعلى الوجه . إنها من العائلة نفسها . »

فلم يجب نيقولا ي بروفيتش ، وعجب في نفسه من دوام العواطف
الانسانية . و جال في فكره : « هاهو كل شيء قد طفا على السطح . »
وانتحب بول بعد لحظة ، وهمهم ويداه مشبكتان خلف رقبتة : « آه لشدما
أحبها ، هذه المخلوقة الساقطة ... إني لا أحتمل أن يمسيها أحد الأوغاد ... »
فاكتفى نيقولا ي بروفيتش بأن تهتد ، ولم يشك في حقيقة الشخص
الموجهة اليه هذه الكلمات . »

وجاء اليه بزاروف في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثاني . وكان
قد هياً حقايبه ، وأطلق سراح ضفادعه وحشرات وعصافيره .

قال له نيقولا ي بروفيتش وهو ينهض للقائه : « هل أتيت لتوديعي ؟ »

« نعم . »

« اني أفهمك وأوافقك . لقد كان أخي المسكين مخطئاً ، ولاريب ،
ولقد نال جزاءه . لقد قضى على نفسه بيده . لقد جعلك في وضع لا يمكنك
من سلوك طريق آخر . إني أعتقد تمام الاعتقاد بأنك لم تستطع أن
أن تتحاشى هذه المبارزة ، يجب أن نلقي اللوم على سوء التفاهم بينكما ،
وعلى اختلاف وجهة نظريكما » وتلعثم قليلاً عند هذه العبارة : « ان أخي

من المدرسة القديمة ، وهو شرس مشاكس سريع البادرة . لقد أعددت
العدة لكتمان القضية . »

فقال بزاروف بعدم اكتراث : « سأترك عندك عنواني ، فلعل
القضية تتطور ؟ »

« أومل أن لا يحدث ذلك ، يا ايفاجني فاسيليتش ، واني لآسف
كثيراً أن تكون إقامتك هنا قد انتهت الى هذه النهاية ، واني مغتم
لأن أركادي ... »

« سأراه قريباً دون ريب ، والا فأرجوك أن تحمل اليه تحياتي ،
وتبدي له أسفي الشديد . »

فأجاب نيقولايتش بتروفيتش منحنياً : « وأنا أيضاً أرجوك ... »
ولكن بزاروف أدار ظهره ، وخرج دون أن ينتظر ختام الجملة .

وعندما علم بول بتروفيتش بأن بزاروف سيرحل ، أعرب عن رغبته
في أن يراه . وهز يده مودعاً ، ولكن بزاروف ظل جامداً جهود الثلج ،
فقد أدرك جيداً بأن خصمه أراد ، بكل بساطة ، أن يظهر نفسه شهماً .
ولم يستطع أن يستأذن من ثينجكا ، فتبادلا نظرة من خلال النافذة .
ولاحت له حزيمة واجمة . فقال لنفسه : « بسببها وقعت الواقعة ، ولاشك ،

سوف تتمكن من نسيان القضية . » أما بيتر فقد غلبه التأثر الى حد أن
شرع يكي على كتف بزاروف بالرغم من أن بزاروف لم يقصر في تهدئته
فقال له : « أتريد أن تحيل عينيك ماء ؟ » وهربت دنياشا الى الحديقة
لتخفي انفعالها . وصعد مسبب هذه الأحزان الى عربة السفر ، وأشعل

سيكاراً ، وعلى أربعة فراسخ ، في منعطف الطريق ، لاح له قصر
كيرسانوف الفخم لآخر مرة فبصق قائلاً : « تف على هؤلاء النبلاء
القذرين » والتف متدثراً بمعطفه ما وسعه الالتفاف والتدثر .

ما لبثت حالة بول بتروفيتش أن تحسنت ، ولكنه كان مضطراً الى
ملازمة الفراش لمدة اسبوع تقريباً ، وتحمل سجنه هذا على حد تعبيره ،
بصبر فائق ، ولكنه عوض عن ذلك باعتنائه البالغ بهندامه ، بالرغم مما
يسببه ذلك له من ألم ، وباهراقه ماء الكولونيا على كل شيء . وكان
نيقولاي بتروفيتش يقرأ الجريدة له ، وئينجكا تقوم على خدمته ،
كالعادة ، فتجلب له الحساء ، والليمون والبيض المسلوق الى النصف ،
والشاي ، ولكنها كانت تشعر بائسزاز عظيم كلما دخلت الى غرفته . وقد
أفزع عمل بول بتروفيتش هذا غير المنتظر ، جميع أهل الدار ، وخاصة
ئينجكا ، وبروكوفيتش وحده هو الذي ظل هادئاً ، فكان يقول : « ان
السادة النبلاء في زمانه كانوا يتناحرون أيضاً ، ولكن فيما بينهم فقط ،
إلا أنهم كانوا يجلدون قليل الأدب ، مثل بزاروف ، بالسوط ، في
الاصطبل ، عندما تبدر منهم وقاحة . »

وكانت ئينجكا ، في قرارة نفسها ، لا تشعر بندم أو تأنيب ضمير .
ولكنها كانت تتألم وتتعذب ، بين حين وآخر ، حينما تخالجهما الشكوك
حول السبب الحقيقي للمعركة ، وعدا ذلك ، فقد كان لبول بتروفيتش
طريقة غريبة جداً في النظر اليها . وكانت تشعر بثقل وطأة هذه النظرة ،
حتى حينما تدير ظهرها له ، وقد لحقها الهزال من هذا القلق الدائم ،

ولكنها ، كما يحدث في مثل هذه الحالات دائماً ، لم تزد إلا جملاً .

وفي صباح ذات يوم ، شعر بول بتروفيتش بتحسّن صحته ، فغادر فراشه الى الديوان ، وبعد أن استفسر نيقولاى عن صحته ، ذهب الى ساحة الدرس حيث كان يدرس القمح ، فجاءت ثينجكا بقدرح من الشاي وضعتّه على المائدة ، وأرادت أن تنسحب فاحتجزها بول .

قال لها : « الى أين تركضين هكذا ، يا ثيودوسيا نيقولايفنا ؟ هل لديك ما تصنعيه ؟ »

« كلا ، كلا ... أو بالأحرى ينبغي أن أذهب لصّب الشاي . »
« تستطيع دنياشا أن تصبه دونك ، تلبي قليلاً مع مريض مسكين . وعلى كل حال ، ان لدي ما أقوله لك . »
فجلست ثينجكا صامتة ، على حافة الأريكة .

قال بول بتروفيتش بارماً شاربيه : « انصتي الى . لقد أردت أن أسألك هذا السؤال من عهد بعيد . هل أخيفك ؟ »
« تخيفني أنا ؟ »

« نعم . أخيفك أنت . أنت لا تنظرين الى وجهي أبداً . ويخيل لرائيك أنك غير مرتاحة الضمير . »

فاحمرت ، ولكنها بالرغم من ذلك ، رفعت عينيها الى بول بتروفيتش ، وكان في قول بول شيء غريب جعل قلبها يرتعش منه .

« ليس ثمة ما تلومين نفسك عليه ، مع كل هذا ، أليس كذلك ؟ »
فلهت قائلة : « وما هو هذا الشيء اذن ؟ »

« وهل أدري أنا ؟ ثم ، انك مسؤولة تجاه من ؟ تجاهي ؟ هذا غير
محتمل ، أتجاه شخص آخر ؟ في هذا البيت ؟ وهذا مستحيل أيضاً .
تجاه أخي ؟ ربما ، ولكنك تحببته ؟ »

« اوه ، اوه ، نعم أحبه . »

« من كل قلبك ؟ من كل روحك ؟ »

« أحب نيقولاى بتروفيتش من كل روحي . »

« حقيقة ؟ انظري في وجهي جيداً يا مينجكا (وهذه هي المرة
الاولى التي يدعوها باسمها المجرد) ... إنك تعلمين أن الكذب
خطيئة كبيرة . »

« إنني لا أكذب ، يا بول بتروفيتش ، أنا لا أحب نيقولاى
بتروفيتش ؟ أليس هو حياتي كلها ؟ »

« ولا تفضلين عليه أحداً ؟ »

« ومن تراني أفضل عليه ؟ »

« من يدري ؟ السيد الذي غادرنا مثلاً ؟ »

فنهضت وقالت : « ناشدتك ، باسم السماء يا بول بتروفيتش ، لم تعذبني
هكذا ؟ بم أسأت اليك ؟ كيف تستطيع أن تكلمني هكذا ؟ »
فأجابها باكتئاب : « يا مينجكا ، ذلك لأنني رأيت في ذلك اليوم ... »
« ماذا رأيت ؟ »

« هنالك ... في الجوسق ... »

فاحمرت حتى اذنيها ، حتى عروق شعرها ، وقالت بصعوبة ومشقة :

« لم تكن غلطتي ... »

فاتكأ بول على مرفقه وقال ؟ « لم تكن غلطتك ؟ أصبح هذا ؟
أصبح ؟ كلا ، أبدأ ، أبدأ . »

فأجابت نينجكا ، وصدرها يصعد الزفرات المكتومة : « لقد كانت
مفاجأة ، إنني لا أحب إلا رجلاً واحداً في الدنيا ، ذلك هو نيقولاي
بتروفيتش ، ولن أحب سواه مدى حياتي ، أما العمل الذي شهدته ، فأنني
سأقول بخصوصه ، يوم الديونة ، لم أرتكب يوماً جرمًا ، وليس في
ضميري ما أستحق التأنيب عليه ، وأفضل أن أموت في هذا المكان ،
لوحات حولي أمثال هذه الشبهات ، وإذا اعتقد الناس بأنني قد خنت عهد
من أحسن الي . »

واختنق صوتها وتلاشى ، وفي تلك اللحظة شعرت بان بول بتروفيتش
قد قبض على يدها وضغطها بقوة ... فحلمقت فيه وظلت مصعوقة ، وكان
وجهه قد ازداد شحوباً ، وتطاير الشرر من عينيه ، وكان أشد ما يبعث
على التأثر والألم ، أن انحدرت على خده دمعة كبيرة .

وقال في صوت مغمغم : « أيتها الفتاة الغريبة ، أحبي أخي ، إنه طيب ،
إنه كريم ، لا تخدعيه مع شخص آخر . لا تستمعي الى ما يلقى في أذنيك
من عبارات الاغراء . واعلمي أنه ليس هناك ما هو أشد فظاعة من أن
يكون الانسان محباً غير محبوب . لا تهجري أخي المسكين نيقولاي أبدأ . »
جفت دموع نينجكا ، وزال خوفها من شدة هول المفاجأة ، وبلغ
مصائبها أوجه حينما أطبق بول بتروفيتش — نعم بول بتروفيتش — أطبق

شفتيه على يدها ، هي ثينجكا ، دون أن يقبل تلك اليد ، ولكنه أخذ يصعد الزفرات بين حين وآخر ، زفرات تشنجية .

فقالت لنفسها : « يا إلهي ، أعتقد أنه سيصاب بنوبة . »

لقد تحرك فيه كل ماضيه ، وكل حياته الضائعة .

وقرعت درجات السلم تحت خطى سريعة ... فدفع المرأة الشابة ، وطرح رأسه على الوسادة ، وانفتح الباب ، ليفتح مجالاً لدخول نيقولاي بتروفيتش ، مرحاً غصاً متورداً . كان مرتدياً قميصه دون سترة ، وقد حمل ميتيا بين ذراعيه ، مرحاً ، غصاً متورداً مثله ، يتحرك على صدره ، مسنداً قدميه الصغيرتين الى أزرار معطفه الضخمة .

فاندفعت ثينجكا نحوه ، وطوقت الاثنين بذراعيها ، وأسندت رأسها الى كتف نيقولاي بتروفيتش . فتعجب من ذلك ، لأنه عهدا حمية خجولة متحفظة ، وما كانت تبدي حنانها إلا عندما يكونان وحيدين . فقال :

« ما الخبر ؟ » والقي نظرة على بول ، وسلم الطفل الى ثينجكا ، ودنا

من أخيه وسأله : « هل تشعر بأن حالتك تسوء ؟ »

فأخفى بول وجهه في منديل من الباتيست وأجاب : « كلا ... إني

على ما يرام ... بل إني لأشعر بتحسن عظيم . »

فقال نيقولاي : « لقد تسرعت بترك الفراش » وأضاف متوجهاً

الى المرأة الشابة ، ولكنها كانت قد انسحبت ، وأطبقت الباب خلفها :

« الى أين تذهبين ؟ لقد جئت لأريك طفلي الصغير ، لقد أسأمه عدم

رؤية عمه . لم أخذته ثينجكا معها ؟ ولكن ما بك ؟ هل حدث
بينكما شيء ؟ »

فقال بول بتروفيتش بوقار وصرامة : « يا أخي ؟ »
فارتعد نيقولاى بتروفيتش وخالجه احساس بقلق لا يستطيع فهمه .
وعاد بول يقول : « عدني يا أخي بالاستجابة للطلب الذي
سأوجهه اليك . »

« ماذا تريد ؟ تكلم . »

« ما أريد غاية في الخطورة . انه امر يتعلق بسعادتك بأسرها .
لقد فكرت في هذه الأيام الأخيرة بما سأقوله لك الآن ... يا أخي ،
قم بواجبك ، بواجب الرجل الشريف ، رب القلب الكريم . ولا تكن
مثلاً سيئاً للآخرين ، وأنت من خيرة الرجال »
« ماذا تقصد ؟ »

« تزوج ثينجكا . إنها تحبك . وانها أم ولدك . »

فراجع نيقولاى بتروفيتش الى الورا ، وضم يديه وقال : « أنت
تتكلم هكذا يا بول ؟ أنت الذي عهدتكم أبدأ ، ألد أعداء مثل هسده
الزيجات ، أتشير علي بهذه ؟ أن أفعل ما تسميه أنت واجباً ؟ »

فأجاب بول بابتسامة حزينة : « آسف على ذلك . لقد بدأت أعتقد
بأن بزاروف لم يكن مخطئاً حين اتهمني بالارستقراطية . نعم يا أخي
العزیز ، ينبغي أن نرضي الناس ونتجنب سيخطهم ، لقد تراكت علينا
السنون ، وأصبحنا شيوخاً ، وحصلنا على الحكمة ، فلنطرد من قلوبنا

كل غرور . ولنصدع بواجبنا ، كما تردد أنت كثيراً ، فعسى أن ننال
السعادة ، علاوة على ذلك . »

فعانق نيقولاى بتروفيتش أخاه وقد فاضت عواطفه ، وصاح :
« لقد فتحت عيني تماماً . لقد كنت أعتبرك دائماً ، خير الرجال وأذكاهم
وأرى الآن ، أنك حكيم أيضاً ، بالإضافة الى كرمك . »

فأجاب بول بتروفيتش : « على رسلك لا تؤذ ساق أخيك الحكيم ،
الذي تبارز بالرغم من أن سنه تناهز الخمسين ، كما لو كان ضابطاً شاباً .
هكذا اذن ، لقد قر القرار ، ستصبح ثينجكا زوجة أخى . »

« ولكن ما الذي سيقول أركادي ، يا عزيزي بول ؟ »
« أركادي ، فليذهب الى الملائكة . أجل ليس الزواج من مبادئه ،
ولكن سيظمن غروره حبه للمساواة . ولكن ، لو أردنا الحقيقة ،
فلم هذه الفروق الطبقيّة في القرن التاسع عشر ؟ »

« آه بول ، بول ، دعني أعانقك مرة أخرى ، ولا تخف ، فسأحافظ
على ساقك . »

وتعانقا ، وسأل بول : « ما رأيك في اعلان عزمك اليها الآن ؟ »
فأجاب نيقولاى : « فيم العجلة ؟ هل تحدثتما في الأمر سوية ؟ »
« نحن ؟ ما هذه الفكرة ؟ »

« المهم أن تتأمل للشفاء ، أما الأمر الآخر فالوقت له متسع ، ينبغي
علينا أن نفكر ، ونزن الأمور ... »
« ولكنك قد عزمت . »

« عزمت كل العزم . وأشكرك من كل قلبي . فلا أدعك الآن ، وعليك
أن تستريح ، فالانفعالات لا تعود عليك بجدوى ، وسنتكلم ثانية في الأمر
ونقلبه على أوجهه ، حتى يحين الحين . نعم قليلاً شافاك الله ، والبسك
ثوب العافية . »

وتساءل بول بتروفيتش حين أصبح وحيداً : « لم شكرني كثيراً ؟ كأن
الأمر لا يعنيه وحده ، سأرحل بعيداً عندما يتزوج ، الى درسدن ، أو
الى فلورنسا ، وسأملك هناك حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة . »
وبل جبهته بماء الكولونيا ، وأغمض عينيه ، وغمر نور الصباح
الرائع رأسه الناحل الجميل الملقى على الوسادة ، فلاح كأنه رأس ميت .
وحقاً لقد كان الرجل في عداد الأموات .

الفصل الخامس والعشرون

وفي نيكولسكوي ، كان أركادي وكاتيا ، جالسين على مقعد في الحديقة ، في ظل شجرة دردار ، وكانت فيني منبطحة على الأرض بجانبهما ، وقد استرخى جسمها بشكل قوس ، في حلاوة ولطافة ، بذلك الوضع الذي يسميه المولعون بالكلاب ، حنية الأرنب ، ولزم أركادي وكاتيا جانب الصمت ، وكان يمسك الأول كتاب نصف مفتوح ، وكانت الثانية تلتقط فتات الحبز الأبيض المتخلف في قعر سلتها ، وترميه لعائلة من العصافير ، فتقفز زاعقة حتى قدميها ، جريئة قلقة ، وذلك ما يميز العصافير عن بقية الطيور . وهب نسيم رخاء فحرك أوراق شجرة الدردار ، حركة خفيفة ، جعلت بقع الضياء الذهبية الصفراء في الممشى المعتم ، وعلى ظهر فيني الأصفر ، تتحرك حركة مستمرة ، وتغطي أركادي وكاتيا بظل كثيف دائم ، ولكن كانت تخطف بين الحين والحين ، حزمة فضية ، كالشعلة ، في شعر الفتاة الشابة . كانا صامتين . ولكن أسلوب ذلك الصمت ، وهما جالسان جنباً لجنب ، يشهد على وجود تقارب بينهما ، تغمره الثقة ، فكان يبدو أن كلاهما غير مهتم بالآخر ، ولكن كلاهما كان في قرارة نفسه مرحاً طروباً بوجود الآخر معه . وقد تغير وجهها منذ أن

رأيناها آخر مرة ، فأركادي يبدو أكثر هدوءاً ، وكاتيا أشد حيوية ، وأعظم جرأة .

قال أركادي : « ألا تجدان أن شجرة الدردار تحمل اسمها باللغة الروسية بحق ^(١) (باسنو) انني لا أعرف شجرة ورقها أخف وأشف من هذه .

فرفعت كاتيا عينها ببطء وأجابت « نعم . »

وفكر أركادي : « إنها لا تؤاخذني ، على الأقل ، على انتهاج التعبير الشعري . »

وقالت كاتيا مشيرة الى الكتاب الذي يمسكه بيده : « انني لا احب هايني ، لا حين يضحك ، ولا حين يبكي . بل احبه عندما يكون حالماً مكتئباً . »

فأجاب أركادي : « أما أنا فأحبه عندما يضحك . »

« تلك بقية قديمة من ميولك الساخرة . » فقال أركادي في نفسه :
(بقية قديمة ؟ ليت بزاروف يسمعها !) « ولكن صبراً فسوف نصوغك من جديد . »

« من يصوغني من جديد ؟ أنت ؟ »

« من ؟ هي اختي ، وبورفيري بلاتونيتش ، الذي انقطعت عن
مخاصمته ، وعمتي التي رافقتها أول أمس الى الكنيسة . »

(١) معنى الكلمة في الروسية : واضحة مشرقة شفافة .

« لم أستطع في الحقيقة أن أمتنع عن مرافقتها . أما عن أنا سيرجيفنا ،
فهل تذكرين ؟ انها كانت تتفق مع ايفاجني في كثير من الآراء . »
« لقد كانت أختي تحت تأثيره كما كنت انت . »
« تماماً ، ولكن من قال لك بأنني قد تخلصت من تأثيره ، ونفوذ ؟ »
فسكتت كاتيا ؟ وأردف أركادي : « انني أعلم بأنك ما كنت تحبينه
كل حين . »

« لا . اذ ليس لي رأي عنه . »
« آه يا كاترين سيرجيفنا . هذا كلام لا أصدقه أبداً . لا يوجد انسان ،
لا يستطيع كل منا ، أن يصدر حكماً عليه . ولكنه غامض لا أكثر . »
« اذا كان الامر كذلك فأقول لك بأنه ... لم يكن ليسوءني ،
ولكنني أشعر بأنني غريبة عنه ... كما أنه غريب عني كل الغربة ، وهو
فضلاً عن ذلك غريب عنك أيضاً . »
« غريب ؟ »

« نعم كيف أفسر ذلك ؟ ... انه مستوحش ، أما نحن فداجنان . »
« أنا داجن ؟ »
« فأومأت برأسها : « نعم . »

فهرش أذنه وقال : « هل تعلمين يا كاترين سيرجيفنا ، بأنني ، في
أعمامي ، مغتاض مما تقولين ؟ »
« هل تؤثر بأن تكون مستوحشاً ؟ »

« كلا ، ولكنني أفضل لو كنت قوياً نشيطاً . »

كهذه . فمن الصعب على الحقائق أن تجد طريقها اليهم ، وهذا شأن
القياصرة أيضاً . »

« ولكنني لست غنية كما ترى . »

فظل حائراً مرتبكاً ، ولم يفهم شيئاً مما تقصد بادی الامر ، ولكنه
ما لبث أن قال لنفسه : « آه نعم ، ان جميع الثروة تعود لأختها » وما كان
ذلك بغيضاً الى نفسه .

وصاح : « ما أحسن ما قلت . »

وجاء دور كاتيا في عدم فهمه . فقال أركادي : « نعم ، ما أبسطك
حين تقولين ذلك ، دون تظاهر زائف بالحجل والتأثر . وبهذه المناسبة
انني أتصور أن كل شخص يدرك فقره ويؤمن به ، ينبغي أن تكون
لديه كرامة . »

« لم يخالجنني شعور من هذا القبيل ، بفضل أختي ، ولم أحدثك عن
ثروتي إلا لأن الحديث جري الى ذلك . »

« طيب ، ولكن سلمي جدلاً بأن لديك شيئاً من الكرامة التي
نحن بصدددها . »

« هات مثلاً . »

« مثلاً ؟ معذرة اذا سألتك ، هل توافقين على التزوج من

رجل مترٍ ؟ »

« أجل اذا كنت أحبه كثيراً ... بل انني لا أتزوجه حتى ولو كنت

قد أحببته . »

فصرخ : « آه . هو ذا أنت . » ثم أضاف بعد لحظة من الصمت
« ولماذا لا تتزوجينه ؟ »

« لأن الشائع حتى في الأغاني ، أن الزيجات بين غير الأكفاء تكون
تعسة جداً . »

« لعلك تحبين السيطرة ؟ »

« اوه ، كلا ، علام السيطرة ؟ اني ، على النقيض ، مستعدة للخضوع
كل الاستعداد ، بالرغم من علمي بأن عدم المساواة بكل ألوانها لا تشمل .
اني أفهم أن الانسان يخضع اذا ضمن احترام نفسه ، وهذه هي السعادة ،
ولكن أن أكون خاضعة خضوعاً مطلقاً ؟ ان هذا مما لا أستطيع
حتى تصوره . »

فردد أركادي : « هذا ما لم أكن أتصوره . انك من طينة أختك
انا سرجيفنا ، انك مستقلة مثلها ، بل أنت أشد صلابة وعزيمة . ان
فيك مجموعة من الصفات النبيلة ، في أعماق نفسك ، ولكنك من جهتك
لا تريدن الافصاح عنها . »

فقلت كاتيا : « ولكن هذا طبيعي جداً . »

« وأنت ذكية حاذقة مثلها ، ولك نفس المقومات الشخصية التي
لديها ، بل لعلها أقوى عندك . »

« لا تقارني باختي ، من فضلك ، إنها موازنة ضيزى . يبدو أنك
نسيت بأنها جميلة ومتقفة معاً ... وأنت بصورة خاصة ، يجب أن
لا تتحدث عنها ، وعلى وجهك هذا الطابع غير الجدي . »

« ما تعنين (بصورة خاصة) هذه ؟ ومن اين جاءك أنني أمرض ؟ »

« أما أنك تمنح فأمر أكيد . »

« أتعقدين ؟ وماذا لو كنت مقتنعاً بما أقول ، ولو كنت أيضاً

لم أستطع أن أعبر عن شعوري بوضوح كافٍ ؟ »

« انني لا أفهمك . »

« أصحيح ؟ اذن فقد بالغت في تقدير موهبة الملاحظة عندك ؟ »

« كيف ؟ »

فأدار أركادي رأسه دون أن يجيب ، والتقطت الفتاة آخر ما في

سلتها من الفتات ، وألقته للعصافير ، مرة واحدة ، وبحركة مباغتة ،

فطارت العصافير خوفاً من حركتها الشديدة ، دون أن تغتم شيئاً .

وقال أركادي فجأة : « يا كاترين سيريغيفنا ، وقد يكون ما سأقول

عديم الأهمية عندك ، اعلمي اني لا افضل عليك أختك ، ولا أية امرأة

أخرى في الدنيا . »

ونهض وابتعد بخطى كبيرة ، كما لو كانت الكلمات التي أفلتت منه

قد أفرغته .

وألقت كاتيا يديها الاثنتين والسلة التي تمسكها ، على ركبتيها ، وأخذت

راسها ، ونظرت وراء أركادي نظرة طويلة ، وسرت في خديها حمرة

خفيفة ، ولكن نغرها لم يتسم ، وعبرت عيناها الغامضتان عن البغته ،

وعن شعور آخر لم تسمه بعد ، ورن صوت اختها بجانبها يقول : « هل

أنت وحيدة ؟ لقد ظننت أركادي بصحبتك ؟ »

فرفعت كاتيا عينها دون استعجال ، الى انا سير جيفنا ، وكانت هذه
تداعب اذن فيني بمظلتها المفتوحة ، وهي واقفة في الممشى ، مرتدية رداء
أنيقاً ، غاية في الأناقة ، وأجابت : « نعم وحيدة . »

فأجابت أنا ضاحكة : « أرى ذلك جيداً ، لقد رجع الى غرفته اذن ؟ »
« نعم . »

« هل كنتم تقرأان معاً ؟ »

« نعم . »

فدلت أنا يدها تحت ذقن اختها ، ورفعت وجهها اليها بلطف وقالت :
« لم تتشاجرا كما أتعثم ؟ »

فأجابت كاتيا ، ذائدة يد اختها بلطف : « كلا . »

« يا لها من أجوبة كئيبة . لقد أتيت الى هنا لأصحبه في نزهة ، فقد
طالما سألني مثل هذه النزهة . ولكن فلذنتقل الى شأن آخر . لقد
جلبوا لك من المدينة أحذية جديدة ، فذهبي وجريها ، لقد لاحظت
أمس فقط ، كم قد أصبح حذاءوك العتيق قديماً ، إنك لاتهتمين هنا ،
يا كاتيا بمثل هذه الأمور ، مع أن لك قدماً صغيرة ساحرة ، ويداك أيضاً
جميلتان ولكنهما كبيرتان قليلاً ، عليك أن تقدري قدميك حق قدرهما .
ولكن أختي الصغيرة ليست مغناجاً . »

وابتعدت انا سير جيفنا يصحبها حفيف ثوبها الجميل . وغادرت كاتيا
مقعدها ، بعد أن أخذت كتاب هايني ، وخفت الى البيت ولكنها
لم تجرب الأحذية .

وفكرت على مهلها ، وهي تصعد درجات الشرفة الحجرية ، التي
ألهبتها الشمس ، بخطوات خفيفة : « قدمان ساحرتان ، أجل ، وسيكون
عن قريب ، عند هاتين القدمين الساحرتين ، كما تسمينها . » ولكنها
ما لبثت أن اعتراها الحجل ، فركضت هاربة من خواطرها .

ولما اجتاز أركادي الدهليز الموصل الى غرفته ، لحقه الخادم ، وأخبره
بأن السيد بزاروف في انتظاره .

فهمهم أركادي ، وقد تولاه دعر مفاجيء غامض : « ايفاجني ؟ هل
هو هناك منذ مدة طويلة ؟ »

« لقد وصل توأ ، ولم يشأ أن نخبر انا سيرجيفنا ، وطلب أن يقاد
رأساً الى غرفتك . »

وقال أركادي لنفسه ، بعد أن صعد درجات السلم أربعاً فأربعاً ، وهو
يدفع الباب بعنف : « أتمنى ألا يكون حدث شيء في البيت » وطمأنته
رؤية بزاروف في الحال ، ولكن عيناً أخرى أكثر خبرة من عينه ،
تستطيع أن تكتشف ، في ملامح هذا الزائر الغير المنتظر ، الفوارة دائماً
بالحياة ، المقطبة قليلاً ، علامات تتم عن الاضطراب الداخلي والقلق
الخفي . كان جالساً على سناد النافذة ، ومعطفه المعفر بالغبار على كتفيه ،
وقبعته على رأسه ، ولم يتحرك ، حتى حين ارتدى أركادي على كتفيه صارخاً :
« هذه مفاجأة ، فأية ريح رخاء جاءت بك ؟ هل الحال على ما يرام
في البيت ؟ هل الأهل في خير وعافية ؟ »

وكان أركادي يروح ويغدو في الغرفة شأن من يتصور نفسه

مغبطاً ، ويريد اظهار اغتباطه .

فرد بزاروف : « ان الحال على ما يرام في البيت ، ولكن ليسوا
كلهم في خير . كف عن الثثرة ، ومر لي بكأس من الكفاس ، واجلس
واستمع لما سأقوله لك ، في كلمات وجيزة ، ولكنها وافية بالمرام . »
فسكت أركادي ، وقص عليه بزاروف قصة مبارزته مع بول بتروفيتش ،
فشده أركادي ، وتأثر تأثراً بالغاً ، ولكنه حاول اخفاء انفعالاته .
واكتفى بالسؤال عما اذا كان جرح عمه طفيفاً حقاً ، وحينما أجابه
بزاروف ، بأنه مرضي كل الرضى ، ولا أتكلم من الوجهة الطبية ،
اضطر على الابتسام ، ومع ذلك فقد شعر ، من أعماق نفسه ، بالحجل
والقلق ، وظهر على بزاروف بأنه قد فهم صاحبه فقال :

« نعم يا صديقي ، هذه هي حالة العيش مع السادة النبلاء . انهم عبيد
لعاداتهم ، وأهوائهم ونزواتهم . والآن سأذهب لرؤية والدي العجوزين ،
وقد عرجت الى هنا ، في طريقي ، لأجل أن أطلعك على جملة الأمر ، ولكن
أرى أن الكذبة التي لا تجدي لامعنى لها ، كلا ، لقد جئت الى هنا لسبب
يعلمه الله . ألا ترى معي أنه من الخير أحياناً أن يقبض على الانسان من
عقرة رأسه ، وينتزع انتزاعاً كما تنتزع اللقطة من عروقها ؟ وهذا ما صنعته
بنفسي منذ أيام ... ولكنني أردت أن أرى ، للمرة الأخيرة ، المنبت
الذي انتزعت منه هذه اللقطة ، أي القاعدة التي كانت العروق ناشبة فيها . »
فقال أركادي متأثراً : « أو مل أن تكون هذه الكلمات غير منطبقة
علي ، وأنت لا تؤثر الانفصال عني ؟ »

فجدجه بزاروف بنظرة ثابتة فاحصة وقال : « هل يؤملك ذلك حقيقة ؟ ان لدي قناعة بأنك قد انفصلت عني . انني أراك غصاً طرياً في أوج الترف والالاقة ... ولا بد أن تكون علاقاتك مع انا سيرجيفنا سائرة على ما يرام . »

« علاقاتي مع انا سيرجيفنا ؟ »

« ألم تترك مارينو وتأتي الى هنا في سبيلها ، أيها الطائر البري ، وبهذه المناسبة ، كيف حال مدارس الأحد ؟ أفلست مغرمّاً بها اذن ؟ كلا ، فهل بقي مجال للكتان ؟ »

« انك تدري يا ايفاجني أنني كنت صريحاً معك على الدوام . وعلى ذلك فأؤكد ، وأقسم أمام الله بأنك واهم . »

فقال بزاروف هامساً : « هم ، تعبير جديد . ولكن لماذا تأخذ الأمر بمثل هذا الجد ؟ ما دام الأمر عندي سيان . ولو كان مكاني رجل خيالي لقال — انني أشعر بأن طريقتنا قد اختلفتا — أما أنا فأقول بكل بساطة ، بأن أحدهنا قد أصبح يكره الآخر . »

« ايفاجني . »

« لا ضرر من ذلك قط ، يا فؤادي ، فالانسان حري بأن يترك أشياء كثيرة ممتلئة في حياته ، وأنا الآن أسائل نفسي عما اذا كان قد حان الوقت لأن يودع كل منا صاحبه ، فاني منذ ألقيت عصا الترحال هنا ، أشعر بالقرف الشديد ، كما لو كنت قد قرأت للمرة ، الثانية رسائل كوكول

الى زوجة حاكم كولوكا (١) ... انني لم أطلب تبديل الحيل بعد .
« ولكن ليس من الصحيح أن تتصرف مثل هذا التصرف .
« ولم لا ؟ »

« لن أتحدث عن نفسي ، اما ما يخص انا سيرجيفنا فالامر خلاف
ما تتصور تماماً ، انها مشتاقة الى رؤيتك ، على وجه التأكيد .
« أما من هذه الناحية ، فأنت مخطيء .
فأجاب أركادي : « انني ، عكس ما تقول ، متأكد بأنني على صواب ،
أما وقد صممت على ما تريد ، فهل تريد أن تنكر أنك أتيت الى هنا
من أجلها ؟ »

« هذا ممكن ، ولكنه لا يمنع أن تكون واهماً . »

ومع ذلك فقد كان الحق بجانب أركادي ، فان انا سيرجيفنا كانت
تشتهي أن ترى بزاروف . وقد أعلمته بواسطة أحد الخدم بأنها تنتظره .
فاستبدل ملبسه ، وكان قد حزم أمتعته ، بحيث يسهل عليه استخراج
الحلة التي ارتداها .

(١) تألف هذه الرسائل قسمًا من الانتاج الذي نشره كوكول
تحت عنوان - منتخبات من مراسلاتي مع أصدقائي - وفيها امتدح
الادوقراطية . وكان قد كتبها في اخريات أيام حياته ، حين كان يجتاز
أزمة نفسية خطيرة ، وقد تناقض المؤلف العظيم تناقضاً صريحاً مع ما كتبه
سابقاً . وقد انتقده الناقد العظيم ييلنسكي انتقاداً حاداً ، في رسالته الشهيرة
(الى كوكول .)

واستقبلته مدام اودينتسوف ، لا في الغرفة التي أعلن لها فيها عن
غرامه على حين بغتة ، بل في الصالون . ومدت اليه أطراف أصابعها في
دلال وحلاوة ، وكان على وجهها ضيق غير ارادي .

فأسرع بزاروف قائلاً : « ينبغي ، يا انا سيرجيفنا ، أن اطمئنك
قبل كل شيء . أنك ترين أمامك جثة قد دبت فيها الحياة من جديد ،
وينبغي أن يكون الآخرون قد نسوا حماقاته الأخيرة . سأرحل وأبقى
بعيداً مدة طويلة ، ومن العيب ألا أظهار بالركة والحنان ، ويحزنني أن
أمضى من هنا ، وأتصور أن ذكراي تولد في نفسك كراهية
واشترآزاً . »

فتنفست أنا سيرجيفنا الصعداء ، كما لو كانت قد بلغت توأقة جيل
أشم ، وافتر ثغرها عن ابتسامة أحييت ملاحظها ، ومدت يدها ثانية
لبزاروف ، فشد عليها وقابلته بالمثل .

وقالت : « لا توقظ الأحران عندما تكون نائمة ، انني أشعر بالندم
وبتأنيب الضمير أيضاً بسبب خطأ ، أو سمه طيشاً اذا أردت ، ولي كلمة
أخرى ، فلنعد أصدقاء كما كنا ، ونعتبر ما مضى حلماً ليس غير ، ومن
يهتم بالأحلام ؟ »

« نعم من يتذكرها ويهتم بها ؟ وثم فهل الحب إلا من صفات
الامراء والملوك ؟ »

« حقاً إنني لسعيدة أن أسمعك تقول ذلك . »

هكذا تكلمت انا سيرجيفنا ، وهكذا تكلم بزاروف ، وتصور

كل منهما بأنه قد صار ح صاحبه ، ولكن هل توخيا الحقيقة الخالصة ؟
انهما بالذات لا يدريان ، والمؤلف أقل دراية منهما بالموضوع ، ولكن
الحديث كان ينم على أن كلا منهما قد صدق صاحبه . ومهما كان الأمر
فإن هذه المرأة وهذا الرجل قد صاغا كلماتهما بشكل يولد ثقة
متبادلة بينهما .

وعقبت ، فسألته عما صنع عند آل كيرسانوف ، فأوشك أن يقص
عليها مبارزته مع بول بتروفيتش ، ولكنه امتنع خشية أن تظنه يتباهى ،
فاكتفى بأن أجابها بأنه قضى وقته في العمل .

فأردفت : « لقد استحوذ عليّ بادیء الأمر تبرم بكل شيء ، يعلم الله
سببه ، حتى لقد أوشكت أن أرحل الى الخارج ، تأمل . ولكنه مضى
وانقضى — وشكراً لقدوم صديقك أركادي ، فعدت الى سيرتي الأولى ،
وأخذت أقوم بدوري الحقيقي من جديد . »

« وما هو هذا الدور ، اذا سمحت لي بالسؤال ؟ »

« دور العمة لأختي ، أو مربيتها ، أو أمها ، أو سم ذلك كما تشاء ،
وبهذه المناسبة ، هل تعلم بأنني قد ظلمت مدة طويلة ، وأنا لا أفهم كنه
الصداقة الوطيدة التي تربطك بأركادي ؟ لقد ألفيته تافهاً لا معنى له .
ولكنني أعرفه حق المعرفة الآن ولقد اقتنعت بأن رأسه دماغاً يعمل ،
وفوق كل شيء ، انه شاب يافع جداً ... ليس مثلي ، ولا مثلك
يا ايفاجني فاسيليتش . »

فسأل بزاروف : « هل بقي على خجله منك ؟ »

فشرعت تقول : « هل ... » ثم أضافت بعد لحظة تفكير : « لقد أصبح مستودع أسرارى ، فنحن نثرثر أحياناً سوية . لقد كان فيما مضى يتهرب منى ، بالرغم من علمه بأننى لا أنشد صحبته ، وبهذه المناسبة أخبرك بأنه لا يكاد يفارق كاتيا . »

ففكر ايفاجنى ساخراً : « المرأة تخادع دائماً وتحتال . »
وأجاب بابتسامة باردة : « تقولين انه كان يتحاشاك ، ولكننى لا أستطيع أن أقنع نفسى حتى الآن بأنك لم تنفذي الى سر غرامه . »
فصرخت دون ارادتها : « كيف ؟ هو أيضاً ؟ »
فأكد بزاروف بهزة من رأسه وقال : « أجل هو أيضاً . أيعقل أن تكونى جاهلة ذلك حتى الآن ، واننى أنا الذى يتحففك بالخبر . »
فثبتت طرفها على البلاط وأجابت : « أعتقد أنك واهم . »
« أما أنا فلا أعتقد . ولكن ربما كان عليّ أن لا أتكلم فى ذلك »
واضاف لنفسه : « ان ذلك سيمنعك من أن تلعبى دور المنافق معى . »
« ولم لا ؟ ولكننى أعتقد بأنك تعير أهمية كبرى لانطباع عابر بسيط . »
اننى مبالغة الى الاعتقاد بأنك تبالغ وتعالى . »
فقال مقترحاً : « يجدر بنا أن نتكلم فى أمر آخر . »
« ولأى سبب ؟ »

ولكنها قادت الحديث بنفسها الى مجرى آخر . لقد كانت غير مرتاحة اليه ، على الرغم من قولها بأن كل شيء قد غفى عليه النسيان . لقد كانت تشعر بشيء من الخوف ، حتى عندما تتبادل معه أبسط الأحاديث ،

والمزاج ، شأنها شأن المسافر على ظهر الباخرة ، في البحر ، يضحك
غير مكترث ، كأنه على ظهر اليابسة ، ولكن ملامحه لا تلبث لأقل نائبة ،
ولأنه حادث طارئ ، أن تشف عن قلق غريب . وهذا يدل على أنه
شاعر طول الوقت بالخطر المائل .

لم يستمر حديث بزاروف مع انا سيرجيفنا طويلاً ، فقد رجعت الى
غموضها الذي ظهر في أجوبتها المتكتمة . و انتهت بأن اقترحت عليه أن
يمضيا الى الصالة الكبيرة ، حيث يجدان كاتيا والأميرة .

وتساءلت ربة الدار : « ولكن أين أركادي نيقولا ياقتش ؟ » ولما
أجيبته بأنه لم يظهر منذ ساعة ، أرسلت من يبحث عنه . فبحثوا عنه .
ووجدوه في الحديقة حيث كان قد انفرد بنفسه ، واضعاً ذقنه بين يديه
وقد استغرقته الأفكار . كانت هذه الأفكار عميقة خطيرة ، ولكنها
لم تكن محزنة البتة . لقد علم بأن بزاروف في خلوة مع انا سيرجيفنا ،
فلم يشعر لذلك بأقل مقدار من الغيرة ، بل على العكس ، كان ينظر أمامه
مسروراً ، كأن شيئاً مفرحاً ، مفاجئاً قد مر به ، وبعنه على أن يتخذ
قراراً مهماً .

الفصل السادس والعشرون

كان المرحوم اودينتسوف لا يحب البدع ، ولكنه سمح ببعض التجديد ، على أساس حبه للفنون الجميلة ، ولهذا السبب شاد رواقاً على الطريقة اليونانية ، بالقرميد الروسي ، بين أشجار البرتقال والبركة . وفي الجدار الذي يؤلف هذا الرواق ، أو قل الممشى . اقيمت ستّ قواعد لستة تماثيل ، أوصي اودينتسوف بصنعها في الخارج ، تمثل العزلة ، والصمت ، والكآبة ، والحياء ، والتفكير ، وحدة الاحساس . وجلبت احداها ، وهي آلهة الصمت ، الواضعة اصبعها على شفيتها ، ونصبت في محلها ، ولكن حدث في اليوم ذاته أن حطم الصبيان أنفها ، وبالرغم من أن جباساً مجاوراً ، صرح بأنه مستعد أن يعيد الأنف أجل مما كان عليه مرتين ، فان اودينتسوف أمر برفع التمثال فرفع ، ودخرج في زاوية ساحة معدة لدرس القمح ، حيث أصبح ، خلال سنوات طويلة ، مصدر رعب خرافي للفلاحات . وغطت الأعشاب منذ عهد بعيد ، واجهة الرواق ، بحيث لم يبق بارزاً فيه غير تيجان العواميد التي أعدت للأنصاب . وكان الجو فيه منعشاً ، حتى وقت الظهيرة . وكانت انا سيرجيفنا لا تحب

هذا المكان ، اذ رأت فيه ثعباناً في أحد الأيام ، ولكن كاتيا كانت تأتية أغلب الأحيان ، ففتتعد مصطبة حجرية ضخمة قرب هذه الأعمدة . وفي وسط هذا الظل البارد المنعش كانت تقرأ وتطرز ، أو تفرق نفسها في ذلك الاحساس الذي يعرفه كل منا ، الاحساس بالطمأنينة والسلام ، الاحساس الذي ينبعث من تأملنا ، نصف الواعي ، بمجرى الحياة في داخل نفوسنا وفي خارجها .

وغداة وصول بزاروف ، كانت كاتيا جالسة على مقعدها الأثير ، وبجانها أركادي ، وكان قد طلب منها أن تصحبه الى الرواق ، كان الوقت قبل موعد الغداء بساعتين ، وكان الصباح المبلى بالندى قد ترك مكانه لظهيرة محرقة ، وكان وجه أركادي يحمل تعابير اليوم المنصرم بذاتها . وكانت كاتيا تبدو مهمومة . فقد استدعتها أختها منذ الصباح ، وبعد شيء من التذليل والمداعبة ، وذلك ما يولد في نفس كاتيا شيئاً من الخوف دائماً ، أشارت عليها أن تكون أشد حذراً ويقظة مع أركادي ، وأن تتجنب الاختلاء به ، والتحدث اليه ، بصورة تلفت نظر عمته واهل الدار جميعاً . لقد كانت أنا على خلاف طبيعتها ، وفضلاً عن ذلك فان كاتيا كانت تشعر ببعض التبرم والضيق ، كمن يلوم نفسه على ارتكاب جرم ، وحين استجابت لرغبة أركادي ، قررت في نفسها بأن تلك الخطوة ستكون الأخيرة .

قال أركادي فجأة بشيء من الارتباك والحجل : « يا كاترين سيريغيفنا ، بما أنني قد سعدت بالعيش معك تحت سقف واحد ، مدة ، وقد تحدثنا

في أشياء كثيرة ، فان ثمة قضية واحدة جوهرية بالنسبة الي ، لم أستطع التصريح بها بعد . » وأضاف وهو يتصدى لنظرة المرأة الشابة تارة ، ويتحاشاها أخرى : « لقد قلت لي أمس بأنني قد خلقت هنا من جديد ، والحقيقة هي أنني قد تغيرت في كثير من الوجوه ، انك تعلمين ذلك أكثر من أي شخص آخر ، انني مدين لك ، في الواقع ، بهذا التحول . »

« مدين لي ؟ كيف ... ؟ »

« لم أعد ذلك الشاب الطائش المغرور الذي كنته بالأمس . ولم أبلغ الثالثة والعشرين عبثاً . إنني عازم على أن أكون مفيداً ، أخدم الحقيقة بكل قواي ، ولكنني لن أنقب عن مثلي العليا حيث كنت أنقب عنها سابقاً . يخيل لي الآن أنني أكثر اقتراباً منها . ولم أستطع حتى الآن أن أفهم حقيقة نفسي ، لقد أخذت على نفسي واجبات تفوق ما أستطيع تحمله ... لقد تفتحت عيني أيّ أخيراً ، ويعود الفضل في ذلك الى شعور معين ... لست واضحاً في تفسيري كل الوضوح ، ولكن أومل أن تكوني قد فهمتي . »

فلم تجب ، ولكنها كفت عن النظر اليه .

وأردف يقول بصوت أكثر انفعالاً ، وكان فوق رأسه شحرور يفرد بين أوراق شجرة البتولا ، تغريداً ارتجالياً ، دون أن يبالي به : « انني أظن أن واجب كل رجل شريف أن يكون مخلصاً كل الاخلاص مع أولئك القريبيين من قلبه ، ولهذا ... فقد عزمتم ... » ولكن بلاغته خاتمه ، فارتبك وتلعثم ، ولم يكمل جملته ، اذ اضطر الى التوقف

لحظة . فلم ترفع كاتبا بصرها ، حتى ليخيل لرائيها أنها لم تفهم ما أراد أن يقول ، وأنها تنتظر تمة الحديث .

وعاد يقول بعد أن استحث قريحته : « أما اني سأباغتك فأمر أعرفه مقدماً ، وإن دهشتك ستزداد حين تعلمين بأن هذا الشعور الذي نوهت به ، يتعلق بك الى حد ما ... أجل الى حد ما . لقد لمتني أمس على عدم الاتزان كما تذكرين » . وكان يتكلم بهيئة رجل قد دخل مستنقعا ، وشعر بأنه سيزداد غورا فيه في كل خطوة يخطوها ، ومع ذلك فهو يمجذ في التقدم مؤملاً أن يستل نفسه بصورة ما . واستمر يقول : « ان هذا اللوم يوجه للشبان ... للشبان عادة ، حتى ولو كانوا قد أصبحوا لا يستحقونه ... ولو كانت ثقتي بنفسي أعظم ... » ثم فكر وقد تملكه اليأس : « أعينيني . ناشدتك أن تعينيني . ولكن كاتبا لم تعرفه حتى مجرد التفاته . فقال : « لو استطعت أن أومل ... » ورن صوت انا سير جيفنا الصافي في اللحظة ذاتها قائلة : « لو استطعت أن أستيقن مما قلته لي . »

فصمت أركادي واعتري كاتبا الشحوب . وكان وراء العوسج الذي يحجب الرواق درب تحتازه انا سير جيفنا صعبة بزاروف . فلم يرها لا كاتبا ولا أركادي ، ولكنهما سعا كل كلمة من كلماتهما ، بل وحتى حفيف ثوب انا ، وتنفسهما . وخطا المتجولان يضع خطوات ، ثم وقفا أمام الرواق تماماً ، كأنهما قد تعمدا ذلك . وعادت أنا تقول : « إننا واهمان مغالطان . ألا ترى أننا قد جاوزنا

سن الشباب والغرور ، لقد عشنا طويلاً وأدركنا التعب والكلال .
و ... لماذا لا نعترف بذلك ... لقد أصبحنا ندرك كثيراً من الأشياء .
لقد أثرت أنت اهتمامي أول الأمر ، كما أثرت اهتمامك ... فحصل تقارب
بين فضولينا ... وبعد ذلك ... »

« وبعد ذلك سئمت فضولك . »

« إنك تدري أن سبب سوء تفاهمنا غير ذلك . وأياً كان الأمر ،
فلم يكن أحدنا بحاجة الى الآخر ، وهذا هو سر القضية . لقد كان فينا
كثير من ... كيف أقول ؟ كثير من التجانس والتشابه ، ولكننا لم نفهمه
أول الأمر . أما أركادي فعلى العكس . »

فسأها بزاروف : « وهل أنت بحاجة اليه ؟ »

« حسبك يا أيفاجني فاسيليتش ، إنك تقول بأنني معنية به ، وقد
أخبرتني بأنني قد استهويته . انني ، بالنسبة له ، أصلح أن أكون عمته ،
ومع ذلك ... لا أخفي عنك ... إنني أفكر فيه كثيراً ، هذه الأيام .
ان في عواطفه كثيراً من الفتوة والطراوة الجذابتين ... »

قال بزاروف بصوت خافت هادئ ، وتلك حالته عندما يزيد أن
يسخر أشد السخرية : « ان عبارة (الفتوة والطراوة الساحرتين)
لتردد كثيراً في مثل هذه الحالات . لقد اصطنع الدهاء والكياسة أمس ،
فلم يحدثني ، لا عنك ، ولا عن أختك ، وتلك أعراض خطيرة . »
« انه لكاتيا أخ ليس غير ، وهذا ما يسرني منه ، ولو أنني قد
أكون على خطأ بالسماح لهما بهذه الالفة . »

فقال بزاروف في هدوء : « إنك تتكلمين بعاطفة الأخت . »
« تماماً ... ولكن علام نحن واقفان هنا ؟ فلنكمل جولتنا ،
وما أغرب الحديث الذي كنا نخوض فيه ، أليس كذلك ؟ لم أكن
أعتقد أبداً بأن في مقدوري أن أتحدث معك على هذه الصورة . إنك
تعلم بأنني أخشاك ... ولكنني في الوقت ذاته أثق بك ، لعلمي بأنك
إنسان طيب ... »

« قبل كل شيء ، لست طيباً قطعاً ، وثانياً ، لست لك في شيء
بعد اليوم ، ومع ذلك فأنت تقولين بأنني طيب ... إن هذا يشبه أن
تضعي الكيليل من الأزهار على هامة ميت . »

فقالت أناسير جيفنا : « ايضاجني فاسيليتش ، اننا لسنا مسؤولين ... »
ولكن هبة ريحٍ حركت الأوراق وذهبت بكلماتها .
وأتى صوت بزاروف بعد عدة لحظات : « أنت حرة طبعاً ... »
ولم يتميز بعد ذلك شيء من حديثهما ، فقد ابتعدت خطاها ... وعاد
كل شيء الى السكون .

فالتفت أركادي الى كاتيا ، وكانت ما تزال جالسة في نفس الوضع ،
سوى أن رأسها ازداد انحناءً .

قال أركادي ، ويداه مشبكتان وصوته يرتعد : « يا كاترين سير جيفنا ،
إنني أحبك حباً لا رجعة فيه ، مدى الحياة ، ولا أحب سواك في الدنيا .
لقد أردت أن أقول ذلك لك ، وأن أستطلع رأيك في الأمر ، وأن
أطلب يدك ، وأنا الآخر لست موسراً ، ولكنني مستعد لكافة

التضحيات .. مالك لا تجيبين ؟ ألا تثقين بي ؟ هل تتصورين بأنني غير جاد ؟ ولكن تذكرني هذه الأيام الأخيرة ، ألم تعلمي ، منذ وقت طويل ، أن ما عدا هذه العاطفة — هل تسمعين — أن كل ما عدا هذه العاطفة قد اختفى دون أن يترك أثراً . انظري الي . أجيبي بكلمة واحدة ... إنني أحبك ... نعم إنني أحبك ... بقي بي . »

فرفعت اليه عينين براقبتين حادتين ، وبعد أن فكرت لحظة طويلة ، طافت على شفيتها ابتسامة خفيفة ، وسمعتها تقول : « نعم . »

فنهض بقفزة واحدة وقال : « نعم ؟ أقلت نعم ؟ يا كاترين سيرجيفنا ، هل لي أن أفسر ذلك بأنك تعلمين بأنني أحبك ، وأنتك تؤمنين باخلاص كلماتي ... أو بالأحرى ... أو بالأحرى هل ثمة معنى لا أجراً على ذكره ؟ »

فقالت ثانية : « نعم . »

فلم يعد يخالجه الشك . فأمسك بيديها الكبيرتين البديعتين ، وقد خنقه الفرح ، فضمهما الى قلبه . وشعر بأن ساقيه تنهاران تحته ، وأخذ يردد دون انقطاع : « كاتيا ، كاتيا » فابتسمت في حلاوة ودلال ، وسالت على وجهها دموع ، دموع بريئة . وان من لم يشاهد هذه الدموع في عيني من يحبه ، لا يعلم الى أي حد يكون الرجل سعيداً في الدنيا ، سعادة يمازجها الحجل والاعتراف بالجميل .

وفي ساعة مبكرة من غداة ذلك اليوم ، أرسلت أنا سيرجيفنا الى بزاروف ، ترجوه أن يأتي لرؤيتها في غرقها . وسلمته وهي تضحك

ضحكة مكبوتة ، ورقة مطوية . وكانت من أركادي يطلب بها يد أختها .
فسرح بزاروف نظره فيها ، وضغط على مشاعره ، ليعفي شعوراً
بفرح وتشف اضطرم في صدره بغتة .

وقال : « لم يمض أكثر من يوم منذ أخبرني بأنه يحب كاترين
سيرجيفنا حباً أخوياً . والآن مم أنت خائفة ؟ »

فأجابت ، وهي تضحك : « بم تشير علي ؟ »

فأجابها بزاروف ضاحكاً أيضاً ، ولو أنه كان بعيداً عن المرح مثلها ،
اذ لم يشعر برغبة في الضحك قط : « أعتقد أنه ينبغي عليك أن تمنحي
الصغيرين بركتك . والصفقة رابحة على كل حال ، فإن لكيرسانوف ثروة
لا بأس بها ، وأركادي هو الابن الوحيد لأبيه . والأب رجل كريم ،
وسيوافق حتماً . »

فخطت أنا بضع خطوات ، وتناوب الاحرار والشحوب على وجهها ،
ثم قالت : « هل ترى ذلك حسناً ؟ حسناً ، فليكن ، ولا مانع لدي .
لقد فرحت لها ... وسأنتظر جواب أيه بطبيعة الحال . سوف يذهب
بنفسه ليأتي بالجواب . ألم يكن الحق معي حينما قلت لك أمس أننا قد
أصبحنا عجوزين ، أنا وأنت . ولكن كيف لم أر شيئاً بينهما ؟ ان هذا
شيء مدهش » وانفجرت ضاحكة ولكنها سرعان ما أدارت رأسها .

فقال بزاروف ضاحكاً بدوره : « ان شبيبة هذا اليوم مرده
شياطين . » وأضاف بعد لحظة من الصمت : « وداعاً ، وأتمنى لك أن
تمجزي هذا الأمر على أحسن صورة ، وسأفرح لذلك من بعيد . »

فالتفتت اليه فجأة وقالت : « لماذا لا تبقى (الآن) ؟ تلبث ... يلذنا
 أن نحادثك ... يخيل إلينا أننا نسير على حافة هوة . البداية تخيف ، ثم
 يعجب الانسان نفسه من جرأته ، حين يعتاد ذلك . ابق . »
 « أشكر لك دعوتك . وكذلك اطرائك لموهبتي في الحديث .
 ولكنني في عالم غير عالمي منذ زمن بعيد . ان الأسماك الطائرة تستطيع
 أن تحيا في الجو بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما تهبط الى الماء مرة
 أخرى ، فاسمح لي بأن أغوص في عالمي ثانية وأصبح فيه . »
 فحدث وجهه المتقلص الشاحب المتعب ، ورأت ظل ابتسامة مريرة
 تطوف عليه . فقالت لنفسها : « لقد أحبني هذا الرجل » وأدركها العطف
 عليه ، فدت اليه يدها في حنان واشفاق ، ففهم كل ذلك وقال : « كلا »
 واندفع خطوة الى الوراء وأكمل : « انني فقير ، ولكنني لم أقبّل
 الصدقة حتى الآن ، ولن أقبلها أبداً . وداعاً ، وأرجوك حظاً حسناً... »
 فقالت في نزوة طارئة : « انني متأكدة بأن لقاءنا هذا ليس
 الأخير . »

فأجابها بزاروف وهو ينحني مسلماً مبتسماً : « كل شيء جائز في
 هذا العالم . »

قال بزاروف وهو متربع أمام حقيبتيه ، يكبس فيها أمتعته : « لقد
 عزمت اذن على أن تبني لك عشاً ؟ وماذا بعد ؟ انها لفكرة حسنة .
 سوى أنك كنت مخطئاً في تجنب الصراحة . لقد كنت أظن أنك ستصرف
 تصرفاً آخر . ولعلك أنت الآخر قد عجبت من نفسك . »

فاجاب أركادي : « أنت مصيب ، فاكنت اقصد شيئاً من هذا عندما تركتك في مارينو ، ولكن لم تنسب أنت أيضاً سبل الصراحة قسمي عملي فكرة عظيمة ، وكأني لا أعرف رأيك في الزواج ؟ »

« خيراً يا عزيزي ، تلك طريقي في الكلام كما تعلم ، ألا ترى ما أصنع ؟ لقد بقي محل فارغ في حقيقتي ، فوضعت فيه قشاً ، وهكذا يصنع الناس بحقيقة الحياة ، انهم يملأونها بشيء ما ، لكي لا يبقى فيها فراغ ، ولكن لا تمتنع . لا عليك ، انك تتذكر أن رأيي كان حسناً دائماً في كاترين سيرجيفنا ، هنالك كثير من الفتيات يحسبن ذكيات لأنهن يستطعن التهد بعض الأحيان ، أما صاحبك فتعرف كيف تخفي هذا التهد ، وتبقى كاتمة سرها ، حتى تضمك تحت ابهامها ، ان ذلك شيء حسن لا مناص منه . » وأغلق حقيقته ونهض وقال : « والآن اكرر عليك قبل أن أرحل عنك بأن فراقنا سيكون أبدياً ، اذ ما جدوى أن يخادع أحدهنا الآخر ، ذلك ما تشعر به أنت أيضاً ... لقد تصرفت بحكمة ، انك لم تخلق لعيش موحش ، وحياة مقفرة قاحلة ، مثلنا ، ليس فيك تهور ، ولا تستطيع أن تكره ، ولكن فيك دالة الشباب ونيرانه . وأنتم ، أيها النبلاء ، انكم لا تستطيعون الاستمرار الى ما وراء الاستسلام النبيل ، أو الاشمزاز الكريم ، وهذا ليس في الحقيقة شيئاً يذكر ، انكم لا تريدون القتال ، ومع ذلك تحسبون أنفُسكم شجعاناً ، أما نحن فنريد أن تناضل ونصارع . ان عثير معاركنا سيملاً عيونكم ، وان وحول أقدامنا الراكضة ، ستلطخ ملابسكم . إنك لم تفصل على

طرازنا . إنك معجب بنفسك دون أن تشعر ، وتجد لذة في شتم نفسك ،
أما نحن ، فهذا هو مرضنا الملازم ، ونحن لا نريد سواه . نحن نريد أن
نقلب حياة الآخرين ، ونحطمهم . إنك ولدت رأسالياً ، ولكنك ستبقى
جنسلماناً وديعاً متحرراً ، كما اعتاد أن يقول والذي بالفرنسية . »

فقال أركادي في حزن : « ستركني الى الأبد . وهذا كل ما تستطيع
أن تقول لي . »

فهرش بزاروف عنقه وقال : « كلا ، يا أركادي ، كلا ، أستطيع أن
أضيف شيئاً آخر ، ولكنني أصرف النظر عنه ، اذ لا أحب العواطف
الخيالية ، فأذوب ذوبان السوائل . تزوج بأسرع ما يمكن ، وأسس
عشك ، وأنجب كثيراً من الأولاد ، وسيكون أولادك أرجح منك عقلاً ،
وأكثر اطلاعاً ، وليس ذلك إلا لأنهم سيولدون في زمن خير من زمنك ،
ومن زمني أيضاً . والآن أرى أن الجياد جاهزة ... فالى الأمام ...
هيا ماذا بقي ... العناق ؟ »

فارتدى أركادي على رقبة استاذه وصديقه القديم ، وتفجرت الدموع
من عينيه .

قال بزاروف في هدوء : « هذه هي حال الشبيبة ، ومن حسن
الحظ أن كاترين سيرجيفنا هنا ، فسوف تعرف كيف تواسيك ، وتنسيك
آلامك سريعاً . »

وأضاف قائلاً بعد أن استوى في مركبته : « وداعاً أيها الأخ »
ولفت نظره ، بإشارة من يده ، الى غرايين قد حطا فوق سطح الاصطبل ،

جنباً الى جنب . وأضاف قائلاً :

« انظر هذا درس لك ، عليك أن تحذو حذوها . »

فسأل أركادي : « ماذا تعني ؟ »

« كيف ؟ هل أنت ضعيف في علم التاريخ الطبيعي ؟ ألا تعلم أن الغراب من أشد الطيور تعلقاً بالأسرة ، واحتراماً لها ؟ هذا مثال يحتذى . وداعاً أيها السيد . » وابتعدت المركبة ، وعجلاتها تصر صريراً .

لقد نطق بزاروف بالحقيقة . فان أركادي نسي استاذة تماماً في المساء ، عندما تحدث مع كاتيا . وشرع بالخضوع لأوامرها ، وأدركت هي ذلك ، وما كان ذلك جديداً عليها . ان عليه أن يذهب الى مارينوليتداول مع أبيه . أما أنا سيرجيفنا فلم نشأ أن تضايق الشابين ، ومحافضة على آداب اللياقة فقط ، لم تدعهما وجدين لمدة طويلة . وقد أبعدت بلطف الأميرة التي أهاجها الزواج المقبل ، حتى استدر الدموع من عينيها . وقد خشيت أنا سيرجيفنا ، في بادئ الأمر ، ألا تسر الأميرة عندما ترى الشابين سعيدين ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك ، فقد ابتهجت ، ولان فؤادها ، وهذا ما جعلها تغبظ هي أيضاً ، ولكنها اغتمت في الوقت ذاته . وفكرت : « لقد كان الحق مع بزاروف . لقد كان الأمر بيننا تطلعاً وفضولاً ، ولا نبي ، سوى التطلع والفضول ، وحب الراحة والأتانية ... »

ونادت بصوت مرتفع : « قولاً لي يا طفلي ، هل صحيح أن الحب عاطفة خيالية مصطنعة ؟ »

ولكن لم يفهم سؤالها ، لا كاتيا ولا أركادي . لقد خجلا
منها ، لقد كان يشغل فكريهما الحديث الذي سماعه دون رغبتهما «
ولكنها أزالته مخاوفهما ، وما كان ذلك عسيراً فقد هدأت
هي نفسها أيضاً .

الفصل السابع والعشرون

أفرح وصول بزاروف المفاجئ ، ، والديه العجوزين فرحاً عظيماً ،
اذ ما كانا يتوقعان قدومه . فكانت أرينا فلاسفينا تروح وتغدو في أنحاء
المنزل ، منهمكة كل الانهماك ، حتى لقد شبهها فاسيلي ايفانوفيتش بحجلة ،
والواقع ان ذيل سترتها الصغيرة المرقوع أضفى عليها شهياً بالطيور .
واكتفى فاسيلي ايفانوفيتش بارسال أنعام متقطعة ، وهو يعرض على طرف
غليونه المصنوع من الكهرمان ، أو يحرك رقبتيه ويدير رأسه ليطمئن
بأنها لم تتحرك من محلها ، ثم ينفجر فجأة بضحكة مكتومة .

قال له ولده : « لقد جئت لقضاء ستة أسابيع على أقل تقدير ،
يا عجوزي ، وأؤمل ألا تضايقني . »

فأجاب أبوه : « سأجعلك تنسى حتى وجهي ، اذا كنت تعد رؤيتي
مضايقة . »

وقد برّ بوعده . فقد استقل بزاروف في مقصورته كما فعل أول مرة .
ولم يخفِ والد بزاروف نفسه فحسب ، بل انه منع زوجته من إظهار
حنانها الفياض اذ قال لها : « يا عزيزتي ، اني أعتقد بأننا قد أضجرنا

أنيوشا عند مجيئه أول مرة ، ولكن الآن أكثر عقلاً . »

فوافقت على رأي زوجها ولكن ماذا ربحت من ذلك ؟ ما كانت ترى ولدها إلا على الطعام ، وحتى حينذاك كانت تخشى أن توجه إليه كلمة . لقد كانت تشرع بعض الأحيان في القول : « انيوشكا . » فما يكاد يرفع بصره إليها حتى تتلعثم ، وتشد شرائط مئزرها قائلة : « لا شيء . لا شيء ... لا شيء . » ثم توجه الخطاب إلى فاسيلي ايغانوفيتش ، فتقول له ، وقد أسندت خدها إلى راحتها : « لا أدري ما بهوى انيوشكا للغداء . أيفضل حساء الكرنوب ؟ أم لحم البقر مع الفجل ؟ » فيجيبها : « ولم لا تسأليه ؟ » فتقول : « خشية ان أضايقه . »

ولكن سرعان ما خرج بزاروف من عزلته ، بعد أن بردت حمى العمل ، فأخذ يشعر بضجر مظلم ، وبقلق أخرس . واصطبغت حركاته كلها بسأم غريب ، فتغير فيه كل شيء ، حتى خطاه الثابتة المقدمة ، وترك الذهاب إلى المزرعة ، وشرع يبتعد عن الوحدة وينشد من يصطحبه . كان يتناول شايه في الصالة ويطوف في البستان بجانب فاسيلي ايغانوفيتش ، ويدخن معه في سكوت بل لقد بلغ به الحال أن سأل عن أخبار الأب الكسيس ، وقد فرح فاسيلي ايغانوفيتش بادی الأمر لهذا التحول ، ولكن فرحه لم يدم . فكان يشكو ، في صوت منخفض ، إلى زوجته قائلاً : « ان قلبي يتألم لانيوشا ، لأنه غير مرتاح ، أو لأن مزاجه سيء . — فهذا لاشيء . — بل لأنه حزين ، وهذا هو الأمر الفظيع . إنه صامت ، ولو كان يرعد

ويزجر ويتذمر لكان خيراً . إنه يضعف ويهزل ، ويفقد لونه ... »
فتنه العجوز وتقول : « يا إلهي ، يا إلهي ، بودي أن أضع طلسماً
في عنقه ، ولكنه لا يدعي أفعـل ذلك أبداً . »

وقد حاول فاسيلي ايفانوفيتش ، عدة مرات ، وفي حذر لانهاية له ،
أن يسأل ابنه عن أعماله ، وعن صحته ، وعن أرКАДي ... ولكن
بزاروف كان يجيب بذهول وعدم اكترات وتضايق . ولاحظ ذات يوم
أن أباه يريد أن يسحب أسرارـه من أنفه — أن يستكنه سره —
خلسة ، فأجابه متبرماً : « إني أراك تدور حولي على قدميك . وهذه
الطريقة أسوأ من غيرها . » فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش بجدة : « على
رسلك ، على رسلك ، إنك تغالط نفسك . »

وهكذا لم تجد طرق الأب الدبلوماسية ، ولم تصب نجاحاً . وبينما
كان البحث يدور في أحد الأيام حول تحرير الفلاحين ، مدح التقديمية ،
مؤملاً أن يجد هذا المدح صدى عند ولده . ولكنه أجاب بعدم
اكترات : « بينما كنت ماراً بالأمس في ساحة القرية ، اذ سمعت الصبيان ،
أولاد فلاحينا ، يزعمون بأغنية الشوارع المستذلة ، بدلاً من أغنيـتهم
القديمة ، فكانوا يصيحون : (لقد طلع الفصل الذي يتفتح فيه القلب
للحب ...) هذا هو التقدم . »

كان ايفاجني يذهب الى القرية أحياناً ، وكان يهزل كعادته ، فيتحدث
مع أول فلاح يصادفه ، كأن يقول له : « تعال فاشرح لي طريقتك في
فهم الحياة ، يزعمون أنك قوة روسيا ومستقبلها ، وأنتك ستفتح عهداً

جديداً في تاريخنا ، وأنتك ستمنحنا لغتنا الأصلية وشرائعنا . ؟ »

فيصمت الفلاح أو يجيب بكلمات من هذا النوع : « إنني ... أعلم جيداً ... كما لو كنت أريد أن أقول ... ثم هنالك أشياء كثيرة ... »
ولكن بزاروف يقاطعه : « اشرح أولاً ما هو علمك ؟ أهو قائم أيضاً على ثلاث سمكات ؟ »

فيجيب الفلاح بصوت أغن وبسذاجة ، وبما هو معروف عنه من خضوع للشعائر الكنسية : « الأرض هي التي تقوم على ثلاث سمكات . وفوقها تتحكم ارادة السيد ، إنكم أنتم آبائنا ، وكلما اشتدت صرامة السيد ، صبحت حالة الفلاح . »

وحين يسمع بزاروف جواباً من هذا النوع ، يهز كفيه باحتقار ، ويشيح عن الفلاح بوجهه ، ويتابع طريقه بهدوء .
وقد سأل الفلاح ، فلاح آخر متوسط السن ، عبوس الحياء ، وقد سمعه من عربته يتحدث مع بزاروف : « عم كان يحدثك ؟ أعين بقايا الديون ؟ »

فأجابه الأول : « عن البقايا ؟ هل تتصور ذلك يا صاحبي ؟ » وكان صوته الذي فقد غنة الخضوع يفيض بالقسوة والاشمئزاز ، ثم أردف : « تحدث عن لا شيء ، وتحدث لأن لسانه يأكله ان لم يتحدث . انه سيد وأنت تدري ما هو السيد . ان السادة سواء ، كلهم سواء . »
فأجاب الآخر : « أجل . » وبعد أن نفضا طاقتيهما ، وعدلا حزاميهما ، أخذا بأطراف الحديث عن شؤونهما الخاصة .

وأأسفاه ، إن بزاروف هذا الذي يهزكتفيه باحتقار وإثمزاز ،
 والذي يحسن الكلام مع الفلاحين (كما كان يزهو بذلك خلال مناقشته
 مع بول بتروفيتش) بزاروف هذا الواثق كل الثقة بنفسه ، ما كان يدري
 أنه أصبح في نظر الفلاحين مهرجاً من المهرجين . وعلاوة على ذلك ، فقد
 انتهى بأن وجد ما يشغله . ففي أحد الأيام ضمد فاسيلي إيفانوفيتش
 أمامه ساق أحد الفلاحين ، وكانت يد الشيخ ترتعش . ولم يستطع شد
 العصائب ، فخنق ولده لمساعدته ، وأصبح من تلك اللحظة يعينه في عمله ،
 دون أن يكف عن السخرية بالأدوية التي يصفها هو بنفسه ، ومن أبيه
 الذي يطبقها في الحال . ولكن تهكمه لم يكن ليضايق فاسيلي إيفانوفيتش ،
 بل كان على العكس يريحه ويفرحه . فكان يصغي مغتبطاً إلى إيفاجني ،
 وهو تمسك بأصابعه رداءه القديم المسدل على بطنه ، مدخناً غليونه ،
 وكلما ازدادت تندرات ولده شدة ، تفجرت قهقهات الشيخ فكشفت عن
 أسنانه السوداء كلها ، وازدادت سعادة ولين عريكة ، وكان يكرر تلك
 النوادر ، حتى ولو كانت ثقيلة خالية من المعنى والذوق السليم . وكان يعيد
 في كل مناسبة عبارة : « ليس هذا بالأمر المهم . » لسبب واحد ، هو
 أن ابنه استعمل هذا التعبير عندما رآه ذاهباً للصلاة ذات مساء ،
 وأسر إلى زوجته قائلاً :

« حمداً لله ، لم تمد أفكاره سوداء ، ليتك تدرين كيف رفسني
 هذا اليوم . »

وفضلاً عن ذلك فإن مجرد وجود مساعد له من هذا النوع ، ملأه

زهواً وخيلاً . وقد يقول لفلاحة مسكينة ، مرتدية معطفاً بالياً ، ومعتمدة
بطاقيّة ذات قرون ، وهو يعطيها قنينة من دواء سائل ، او قعباً من
مروخ نبت البابونج : « احمدي الله ، في كل لحظة ، على أن أرسل لي ولدي
الى هنا ، افقهي ذلك ، هو ذا أنت تعالجين بأحسن الطرق العلمية
الحديثة ، ان امبراطور فرنسا نفسه ، ما كان لديه طبيب خير منه »
فكافت الفلاحة ، التي أتت لتشكو من مرض انتابها ، دون أن تستطيع
تعبيراً واضحاً ، تنحني باحترام عميق ، وتتناول من حضنها أربع يعضات
ملفوفات في منشفة ، فتقدمها اجرة للعيادة .

لقد قلع بزاروف سنّاً لأحد الباعة المتجولين ، ومع أنه لم يكن في
هذه السن شيء غير اعتيادي ، فقد احتفظ بها فاسيلي ايفانوفيتش «
كأنها شيء نادر ، وكان لا يمل من التكرار أمام الأب الكسيس :
« تأمل هذه العروق ، ما أقوى ايفاجني ، ليتك رأيت المريض وهو
يشب في الهواء ، اني أعتقد أن السنديانة نفسها لا تستطيع مقاومة
قبضته . »

فيقول الأب الكسيس في الختام ، وهو لا يدري كيف يتخلص من
هذا المهوس : « هذا أمر يستحق التقدير والاعجاب . »
وجلب أحد الفلاحين المجاورين لفاسيلي ذات يوم أخاه المصاب
بالتيفوس . وكان التاعس ميتاً ، مسجى على حزمة من القش ، تغطي
جسمه بقع كامدة . وادعى الأخ أنه قد فقد الوعي منذ مدة طويلة .
فأسف فاسيلي ايفانوفيتش لعدم الاستعانة بالطب قبل فوات الأوان ،





وصرح بأنه لم يبق ما يمكن عمله . لقد مات الفلاح في الطريق ووصل
جثة هامدة .

وبعد يومين أو ثلاثة ، دخل بزاروف على أبيه في مكتبه ، وسأله
إذا كان لديه قليل من نترات الفضة ؟

« نعم ، وما تريد أن تصنع بها ؟ »

« بي حاجة إليها . لديّ جرح صغير أكوّيه . »

« ومن الجريح ؟ »

« أنا . »

« أنت ؟ كيف ؟ أين هذا الجرح ؟ أرنيه . »

« في يدي ، هاك فانظر . لقد ذهبت هذا الصباح الى القرية التي
جئي ، منها بهذا الفلاح المصاب بالتيفوس ، وبالرغم من محاولة اخفاء الجثة ،
فقد نجحت في العثور عليها ، وما كنت قد مارست هذا العمل إلا من
فترة طويلة . »

« ثم ماذا ؟ »

« وكانت النتيجة أن جرحت نفسي ، ولما ذهبت لطبيب المركز
أطلب منه ما أبتغي ، وجدته لا يملك ما أريد . »

فمشى وجه فاسيلي ايفانوفيتش فجأة ، وهرع الى مكتبه دون أن
ينبس بكلمة ، وعاد في الحال بقطعة من نترات الفضة ، (حجر جهنم)
فأخذها بزاروف وخرج من الغرفة ، فتوسل اليه فاسيلي ايفانوفيتش
قائلاً : « أسألك بالله أن تدعني أساعدك . »

فابتسم بزاروف وقال : « ما أحب المهنة اليك ! »
« لا تمزح ، أرجوك . أرني اصبعك . ليس الجرح كبيراً . هل
أوجعتك ؟ »

« اعصر الجرح أكثر ، ولا تخف . »
فتوقف فاسيلي ايفانوفيتش وقال : « الأحسن أن نكويها بالحديد
المحمر ، ما رأيك ؟ »

« كان ينبغي اجراء ذلك قبلاً . ان الأمر الآن لا يستحق التعب ...
فاذا كنت قد أصبت ، فلا هذا ولا تترات الفضة تفيد ، اذ يكون قد
قضي الأمر ... »

فهمهم فاسيلي ايفانوفيتش : « كيف ؟ ... قضي الأمر ؟ ... »
« طبعاً ، لأنني جرحت منذ أكثر من أربع ساعات . »
وقال فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو ما يزال يطهر الجرح : « ألم يكن
لدى طبيب المركز تترات فضة اذن ؟ »
« كلا . »

« هل هذا ممكن ؟ كيف بحق السماء ، لا يكون عند الطبيب شيء
كهذا لا يمكن الاستغناء عنه ؟ »
فأجاب بزاروف : « ليمك رأيت مباحه ! »

وظل فاسيلي ايفانوفيتش ذلك المساء ، وطول النهار الذي أعقبه ،
يخلق المناسبات ليجد ذريعة لدخول غرفة ولده ، وما كان يحدثه عن
جرحه ، ولا عن أي شيء يذكره به ، ولكنه كان يطيل النظر في عينيه

بعناد واصرار ، وكان يتفحصه بقلق عظيم ، حتى ضاق به ذرعاً ، وهدده بالرحيل . فوعده فاسيلي ايفانوفيتش ، حينئذ ، بأنه لن يقلقه ، خصوصاً وأن أرينا فلاسفينا ، التي تجنب أن يخبرها بشيء ، كانت تسأله دون انقطاع ، عما جرى له ، وما له لا ينام ؟ . وحبس نفسه في الدار خلال اليومين التاليين ، وكان وجه ابنه لا يبشر بالاطمئنان ، وكان يلاحظه خلصة . وعند الغداء ، في اليوم الثالث ، لم يستطع مغالبة نفسه لما وجد بزاروف مسبل الجفنين ، لا يأكل شيئاً .

فسأله أبوه ، هاشأباشاً : « لماذا لاتأكل شيئاً ؟ ان الأطعمة جيدة . »

« لا أستطيع ، اذ لا شهية لى للأكل . »

« أليس لك شهية ؟ » ثم أضاف باستحياء : « والرأس ؟ هل تشعر

بصداع ؟ »

« نعم ثم ماذا ؟ »

فاعتدلت أرينا فلاسفينا وأرهفت أذنيها ، وأردف فاسيلي ايفانوفيتش :

« لا تمتعض ، يا ايفاجني مما سأسألك اياه ، دعني أجس نبض رأسك . »

فنهض بزاروف وقال : « لست في حاجة الى ذلك ، حتى أعلم بأنني

مصاب بالحمى . »

« هل ترتجف ؟ »

« نعم ، وهات لي زيزفوناً ، فلهلي مصاب بالبرد . »

فقالت أرينا فلاسفينا : « اذن فلهذا السبب سمعتك تسعل هذه الليلة ؟ »

فد بزاروف وهو يبتعد : « لا بد أنني قد أصبت بالبرد . »

وشرعت الأم بتحضير التمام ، ومضى فاسيلي ايفانوفيتش الى الغرفة
المجاورة حيث بقي مدة طويلة ، حاملاً رأسه بين يديه ، لا يتحرك ،
ولا يتكلم .

ولزم بزاروف غرفته طوال النهار ، وأمضى الليل الطويل نصف نام
وهو في حالة مزعجة ، وفي الساعة الواحدة صباحاً فتح عينيه بجهد ،
ورأى على ضوء المصباح ، وجه أبيه الشاحب المنحني عليه ، فرجاء أن
ينسحب ، فأطاع الشيخ ، ولكنه سرعان ما عاد على أطراف أصابع
قدميه محاولاً إخفاء نفسه وراء الخزانة ، وعيناه لا تكفان عن النظر
الى وجه ابنه . أما أرينا فلا سيفنا فلم يغمض لها جفن هي الأخرى ،
وكانت تجيء لتفتح الباب في كل لحظة باناة ورفق ، ولتنتصت الى أنفاس
أنوشكا ، وتنظر الى زوجها . وما كانت تستطيع أن تميز سوى ظهره
الثابت المحدود بقليل ، فتشعر اثر ذلك بالارتياح وتنفس عن كربها .
وفي الصباح حاول بزاروف أن ينهض ، ولكنه أصيب بدوار وتقصّد أنفه
دماً ، فتمدد مرة أخرى . وكان والده يساعده في سكون . ودخلت
أرينا الى غرفته ، وسألته عن صحته ، فأجابها بأنه « أحسن . » ثم
استدار صوب الحائط . وأشار فاسيلي ايفانوفيتش بكلتا يديه الى زوجته
أن تخرج . فصعدت بالأمر وهي تمض على شفقتها لئلا تبكي . وبدا فجأة ،
أن كل شيء في البيت يسبح في ظلام ، فقد اكتأبت الوجوه ، وخيم
سكون شامل في كل مكان ، وطرّد من البيت الى القرية ديك كثير الصياح ،
ظل يصيح مدة طويلة ، دون أن يدرك هول الفاجعة ، وظل بزاروف

مسيحي في فراشه ووجهه صوب الحائط . وقد وجه فاسيلي ايفانوفيتش
اليه الكلام عدة مرات ، ولكن ذلك أتعب المريض ، فلزم العجز
جانب الصمت ، ووجد في أريكته ، يترقع أصابعه بين حين وآخر . وكان
يخرج الى الحديقة أحياناً لقضاء بضع دقائق ، جامداً متوتراً ، حتى لتخاله
قد استحال الى تمثال ، من هول صدمة مفاجئة غامضة (ولم يفارق وجهه
تعبير الدهشة والبعثة) ثم يعود الى ولده منتبهاً لتجنب أسئلة زوجته .
وأفلحت هذه أخيراً بامسالك ذراعه وقالت بصوت متقطع يحوي معنى التهديد
تقريباً : « ما خطبه ؟ » فأجهد نفسه محاولاً أن يتسم . وأذهله أن
يسمع انفجار قهقهات خرجت من صدره ، لقد أرسل منذ الصباح
لاحضار طبيب من المدينة ، وقال في نفسه ينبغي أن يخبر ولده لئلا يمتعض .
والتفت بزاروف الى أبيه فجأة ، وكان مسجى على الديوان ، والتقى
عليه نظرة غامضة ، وطلب شيئاً يشربه .

فقدم له فاسيلي ايفانوفيتش ماء ، واغتتمها فرصة ، فوضع يده على
جبينه ، فوجده يلهب .

قال بزاروف ببطء ، وبصوت أجش أبج : « يا شيخني ان الامر على
أسوأ ما يرام ، ان العدوى قد وصلت اليّ ، وسوف تودعني الثرى بعد
بضعة أيام . »

فترنح فاسيلي ايفانوفيتش كما لو كانت ساقاه قد أصيبتا بضربة قاصمة ،
وتلعثم وهو يقول : « صه يا ايفاجني إنها أفكار سوداء تراودك ...
لقد أصبت بالبرد ... »

ولكن ابنه قاطعه ، وقال دون تعجل : « على رسلك ، على رسلك »
ان هذا الكلام لا يقال لطبيب . انني أشعر بكل أعراض التسمم ، وأنت
تدري ذلك جيداً . »

« أعراض التسمم ... ولكن على مهلك ، يا ايفاجني . »
« اذن فما هذا ؟ » وثمر عن كم قيصه ، وأرى والده البقع الحمراء ،
وهي نذير شؤم ، تغطي جلده .

فارتعد فاسيلي ايفانوفيتش ، وأثلجه الرعب ، وقال أخيراً : « فلنسلم ...
وعلى فرض أن هذا شيء من هذا النوع ... من التسمم ؟ »
فقال بزاروف بشدة : « هذا المرض ، اسمه يايما »

« وما في ذلك ؟ انه نوع من المرض ، نوع من التسمم بالعدوى ؟ »
فردد ايفاجني بصوت واضح قاطع « يايما » . هل نسيت اذن
كتب الطب التي درست فيها ؟ »

« حسناً ، حسناً ، كما تشاء ... ولكننا سنشفيك ، مهما كان الأمر . »
« قل هذا لغيري . ولكن ليست القضية هي هذه . انني لم أكن
أنتظر هذا الموت المبكر . وهذا الحادث ، اذا أردت الحقيقة ، من
أسوأ الحوادث . أنت وأمي متدينان ، وها قد سنحت الفرصة لوضع
دينكما موضع اختبار . » وشرب جرعة من الماء « والآن أريد أن
أسألك أمراً ... ما دام رأسي يطاوعني . غداً أو بعد غد ، كما تعلم ،
سيبدأ دماغني يعطي اشارة التوقف عن عمله ... وكن متأكداً بأنني
سليم العقل حتى الآن . قبل لحظات رأيت كلاباً حمراء تجري حولي ،

وأنت تثيرها علي ، كما لو كنت ديكاً وحشياً ، وهذه الأخيلة تشبه أخيلة
سكران . هل تفهم ما أقول ، علي الأقل ؟ »

« ولكنك يا ايفاجني ، تنكلم بصورة اعتيادية تماماً . »
« حسن جداً ، لقد أخبرتني بأنك أرسلت تطلب طبيباً ... فليكن
ذلك ، مادام يسرك ... والآن ، امنحني سروراً مقابل ذلك ، وارسل
في طلب شخص آخر . »

فسأل الشيخ باستعجال : « أركادي نيقولا يافيتش ؟ »
فسأله بزاروف ، وقد لاح كأنه يبذل جهده ليتذكر : « أي
أركادي نيقولا يافيتش ؟ آه ، نعم ... هذا الفقي الجاهل اللاحق ، كلا ،
دعه مطمئناً ، فهو الآن غراب ، لا تفتح عينيك دهشة ، فلم يبدأ دور
الهديان حتى الآن . ابعث رسولاً إلى انا سيرجيفنا اودينتسوف ، وهي
احدى ملاكات الأراضي المجاورة ... لعلك تعرفها ؟ (فأوماً فاسيلي
ايفانوفيتش أن نعم) وليقل لها الرسول ان ايفاجني بزاروف يحبك ،
ويخبرك بأنه يحتضر . هل أستطيع أن أعتد عليك ؟ »

« سينفذ أمرك . ولكن هل من الممكن أن تموت ؟ أنت ؟
ايفاجني ... فكر قليلاً : اذن فأين العدل السماوي ؟ »

« لا أعرف عن هذا العدل شيئاً ، ولكن ابعث الرسول علي الفور . »
« سأسرع بذلك هذه اللحظة ، وسأكتب الرسالة بنفسي . »

« كلا ، فهذا لا يجدي ، فليقل لها بأنني أحييها ، فهذا كافٍ . والآن ،
فلأعد إلى كلاي . عجيب غريب .. اريد أن أفكر في الموت ، وليس

لدي ما أعمله ، أرى نوعاً من البقع ، وهذا كل شيء . »

واستدار في تناقل صوب الحائط ، وخرج فاسيلي ايفانوفيتش من الغرفة ، ودخل غرفة زوجته ، وركع أمام الأيقونات ، وقال بصوت منتحب : « صلي يا أرينا صلي ، ان ولدنا يحتضر . »

وصل طبيب المركز وهو الطبيب الذي لم يستطع اسعاف بزاروف بمظهر ، نفسه ، ففحص المريض ، وأشار عليه بالانتظار ، وتكلم عن الشفاء المحتمل ، كالعادة ، فسأله بزاروف : « هل سبق لك أن رأيت أناساً في مثل حالتي لم يرحلوا الى الجحيم ؟ » وقبض بغتة على إحدى قوائم مائدة ثقيلة ، كانت قريبة من الديوان ، فمزها ثم دفعها ، وقال : « نعم ، انني ما أزال محتفظاً بقوتي ، ومع ذلك فأنا أعلم بأنه لا مناص لي من أن أموت ... ان لدى الشيخ ، من الوقت الذي عاشه ، ما يكفيه للاقلاع عن عادة حب الحياة ... أما أنا ... فلاأحاول أن أكره الموت وأنكره ! » وأضاف بعد صمت قصير : « انه هو الذي ينكرني ، وهذا كل ما في الأمر ... من الباكي ؟ أهني أمي ؟ يا للمرأة المسكينة ! لمن ستطعم الحساء المشهور ، وأنت أيضاً ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، أرى أنك تنشج أيضاً ، اذا كانت المسيحية لا تستطيع أن تمنحك عوناً ، فكن فيلسوفاً ، تذكر الرواقيين ، أظنك كنت تتباهى بكونك فيلسوفاً ؟ »

فصرخ الأب الشيخ : « أنا فيلسوف ؟ » وسالت دموع كبيرة

على خديه .

كانت حالة بزاروف تسير من سيء الى أسوأ ، وكانت امارات الشر

سريعة ، كما يحدث أغلب الأحيان ، في حالات تسمم الجروح . كان
مالكاً قواه ، يفهم كل ما يقال له ، وكان ما يزال يصارع . وقد كرر
بصوت منخفض ، وهو يشد بقبضته : « لا أريد أن أهذي فالهذيان غاية
في الحيوانية . » وبعد لحظات ، سمع وهو يقول : « كم يساوي ثمانية
ناقصاً عشرة ؟ » وكان فاسيلي ايفانوفيتش يقطع الغرفة جيئة وذهوباً ،
كأنه مجنون ، وهو يقترح دواءً ثم آخر ، وكان يغطي قدمي ولده في كل
لحظة وكان يردد ، وهو طائر اللب « ... غطاء رطب ... مقيء ... لزقة
خردل على المعدة ... فصاد ... » وكان الطبيب ، الذي التمس منه أن يبقى ،
يستحسن كل شيء . وقد وصف للمريض شراب الليمون ، وكان يطلب
لنفسه غليوناً ، تارة ، ومقويّاً أو مدقناً تارة أخرى ، ويعني بهذين القودكا ،
وبقيت أرينا فلاسيفنا جالسة قرب الباب ، لا تبرحه ، إلا أحياناً ، لأجل
أن تصلي . لقد سقطت مرآتها من يدها ، قبل بضعة أيام ، فتحطمت ،
فاعتبرت ذلك نذير شؤم . ولم تجد انفيسوشكا ما تقوله لها لتعيد الظمأ نينة
إلى قلبها . ورحل تيموفيتش برسالة المحتضر إلى أنا سيرجيفنا .

كانت الليلة شراً على بزاروف ... فقد افترسته الحمى . وقبل الصباح
شعر بأنه قد تحسن . فدعا أمه لتسريح شعره ، وقبل يدها ، وشرب
جرعة من الشاي . وعاودت الشجاعة فاسيلي ايفانوفيتش قليلاً ، فصار
يكرر معلناً : « الحمد لله ، لقد حلت الأزمة ... حلت الأزمة ... »

فقال بزاروف : « آه ، يا لخصائص الكلمات ، لقد قلت (حلت الأزمة)
بوها أنت فرح بذلك . وما أعجب فعل الكلمات في الناس ، إذا قيل

للإنسان انك بليد دون أن يضرب فسيؤلمه ذلك كثيراً ، فإذا ما اطريت عقله ، حتى ولو لم تعطه درهماً ، فهو سعيد . »

أعاد هذا الخطاب الصغير الى فاسيلي ايفانوفيتش ذكرى نزوات ابنه ، حينما كان في تمام صحته ، فغمره الحنان ، وملاته الرقة ، وهتف وهو يضرب يداً بيد : « مرحى ، ما أحسن ما تقول ، مرحى مرحى . »
فابتسم بزاروف ابتسامة حزينة ، وسأل أباه : « ما رأيك الحاسم في هذه القضية ، هل مضت الأزيمة ؟ أم هي قد بدأت ؟ »
فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش : « انك تشعر بتحسن في صحتك ، وهذا ما أراه فيبهجني . »

« حسناً ، حسناً جداً ، الخير كل الخير في أن يتهيج الإنسان دائماً ، ولكن هل أرسلت ... لمن تعرف ... »
« نعم بالتأكيد . »

لم يدم الخير طويلاً . وعادت التوبة سيرتها الأولى ، فما عاد فاسيلي ايفانوفيتش يفارق ولده ، وظهر أن قلقاً غريباً ، أخذ يخامر الشيخ ويعذبه ، وقد أوشك أن يتكلم عدة مرات دون جدوى ، ولكنه عزم على الكلام أخيراً فقال : « ايفاجني ، يا ولدي ، يا عزيزي ، يا ولدي الكريم . »

ففعل هذا النداء غير المنتظر فعله في بزاروف ... فأدار رأسه قليلاً ، وكان يبذل مجهوداً ظاهراً في طرح حمل ثقيل عن كاهل دماغه ، وقال : « من ؟ أبي ؟ »

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ، وهو يركع بجانبه ، ونو أن بزاروف ظل
مغمض العينين لا يرى شيئاً : « ايفاجني ، ايفاجني ، انك تشعر بتحسن
في صحتك ، وعسى أن يشفيك الاله المعين ... ولكن استفد من هذه
اللحظة ، اصنع ذلك لأجل أمك ، ولأجلي-أنا ، قم بواجبك ، بوصفك
مسيحياً ، وعزيراً علي أن أحدثك أنا بهذه الصورة ، يا للفظاعة ...
ولكن الافطع من ذلك ... أن هذا سيكون آخر كلامي لك ، ف فكر
يا ايفاجني ، بأن ... » وتحطم صوت الشيخ .

وشاع رويداً رويداً على وجه الابن تعبير غريب ، وظلت عيناه
مغمضتين ، وقال أخيراً : « اذا كان ذلك يسرك فاني أوافق عليه ،
ولكن لا أرى داعياً للعجلة . انك نفسك تقول بأن صحتي في تحسن . »
« نعم ان صحتك في تحسن . ولكن من يدري ؟ ان مكر الله لا يسبر
له غور . وحينما تكون قد أتممت واجبك ... »

فقاطعه بزاروف : « سأنتظر ، انني أرى ، كما ترى ، بأن الأزيمة
قد بدأت ، فاذا ما كنا واهمين ، فبرحى لنا ! ان الانسان يمنح الغفران
للمرضى حين يفقدون وعيهم ... فكيف بالله . »

« باسم السماء ، يا ايفاجني ... »
« سنتنظر ، أما الآن فأريد أن أنام ، دعني ... » وأسند رأسه الى
الخذة مرة أخرى .

فنهض الشيخ ، وجلس على أريكة ، وذقنه في يده ، وكان يعض
على أصابعه ...

وطرقت سمعه فجأة قرقة مركبة صغيرة ، تلك القرقة التي تسمع بسهولة في الريف ، واقتربت العجلات الخفيفة ، وسمع صهيل الخيول . . . فترك فاسيلي ايفانوفيتش أريكتسه ، وأسرع الى الشباك . ودخلت الى صحن الدار مركبة ذات مقعدين ، تجرها أربعة جياد . فانطلق الى الباب ، دون أن يسأل نفسه عن القادم ، في غمرة من الفرح المفاجيء . . . وفتح البوابة خادم في بزته الخاصة ، ونزلت منها امرأة ترتدي لباساً موشى بشرائط بيضاء ، وعلى وجهها برقع أسود .

قالت : « أنا اناسير جيفنا اودينتسوف . أما يزال ايفاجني فاسيليتش في قيد الحياة ؟ هل أنت أبوه ؟ لقد جئت بطبيب . » فهتف فاسيلي ايفانوفيتش : « بورك فيك . » وقبض على يدها ، ورفعها الى شفثيه بحركة تشنجية ، على حين خرج الدكتور من المركبة مستعجلاً ، وهو رجل قمي ، على عينيه نظارتان ، ويستدل بالنظر الى سحنته ، بأنه ألماني . وأجاب الأب : « ما يزال حياً ، ما يزال ولدي ايفاجني حياً ، والآن سوف ينجو ، أيتها السيدة ، أيتها المرأة ، انك ملاك هبط من السماء . . . » وقالت العجوز المسكينة متلعثمة ، وهي تجري من الصالة الى غرفة الانتظار ، دون أن تفهم شيئاً : « ما الخبر ، يا الهي . » وارتمت على قدمي انا سير جيفنا ، وشرعت في تقبيل نهاية ثوبها ، كالمجنونة .

فقالت أنا سير جيفنا محتجة : « ماذا تفعلين ، انهضي . » ولكن أرينا لم تصغ اليها ، وردد فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات : « ملاك ، ملاك . . . »

وسأل الطبيب أخيراً ، وقد عيل صبره : « أين المريض ؟ »
فأعادت هذه الكلمات فاسيلي ايفانوفيتش الى عالم الواقع فقال :
« تفضل ، واتبعني من هنا . وكرر القول بالألمانية كما اعتاد في الماضي ،
فقال الألماني وهو يتسم ابتسامة مرة : « آه . »
وأدخله فاسيلي ايفانوفيتش الى غرفة المريض ، وهمس في أذن ولده :
« هذا طبيب من قبل أنا سيرجيفنا . »

ففتح بزاروف عينيه بغمة ، وقال : « ماذا تقول ؟ »
« أقول ان أنا سيرجيفنا هنا وقد أتت بهذا الدكتور معها ليراك . »
فأجال بزاروف نظراته حوله وقال : « أهى هنا ؟ أريد أن
أراها . . . »

« سترأها يا ايفاجني ، ولكن عليك أن تتحدث الى السيد الدكتور
قليلاً ، سأقص عليه قصة المرض بكاملها ، مادام سيدور سيدوريتش (وهذا
اسم طبيب المركز) غير موجود ، وسن عقد بعد ذلك مجلساً صغيراً مشتركاً . »
فنظر بزاروف الى الألماني وقال : « حسناً ، اسرع ، ولكن
لا تتكلم باللاتينية ، لأنني أفقه ما تقول . »

فقال تلميذ (اسكولاب) الجديد بالألمانية ، وهو يلتفت الى الشيخ :
« سيدي يبدو . . . »

فقدم الشيخ : « الأفضل أن تتكلم بالروسية . »
فأجاب الآخر : « أهكذا . . . حسناً اذن . . . »
وابتدأت المداولة ، وبعد نصف ساعة دخلت أنا سيرجيفنا الغرفة

بدورها ، صعبة فاسيلي ايفانوفيتش . فهمس الدكتور في اذنها بأن
لا أمل في الشفاء مطلقاً .

ووقفت قرب الباب ، ونظرت الى بزاروف مصعوقة مذهولة ، أمام
ذلك الوجه الملتهب ، وجه رجل على وشك الموت . كانت عيناه الزائعتان
تحدجانها ، فاعتراها خوف ثقيل مثليج ، وفكرت لحظة : « لو كنت
قد أحبيته لشعرت شعوراً آخر . »

وقال بزاروف في جهد : « شكراً ، هذا أكثر مما كنت أؤمل .
انه عمل كريم . اذن فقد التقينا ، كما تنبأت من قبل . » وتحركت الشفقة
في قلب أنا سيرجيفنا « دعنا يا أبي ... هل توافقين يا أنا سيرجيفنا ؟ انني
شخص لا يخشى منه الآن .. » وأشار ، بحركة خفيفة من رأسه ، الى
جسمه الممدد النحيل . وانسحب فاسيلي ايفانوفيتش ، وكرر بزاروف :
« شكراً . انه لجميل منك . يقال ان الملائكة يحيئون هكذا الى وسائد
المحتضرين . »

« يا ايفاجني فاسيليتش ، أؤمل ... »

« كلا يا أنا سيرجيفنا ، فلنتدبر بالشجاعة ، وننظر الى الحقيقة في
وجهها . أما بالنسبة الي فقد انقضى كل شيء . لقد سقطت تحت العجلة
فلا داعي للتفكير بالمستقبل . الموت قديم جداً ، ولكنه جديد بالنسبة
لكل انسان . انه لم يخفني الآن ... وعن قريب سأفقد وعي ، فأقول
لك عمي مساء ، وطابت ليلتك (وحرك يده حركة ضعيفة .) ماذا
أقول لك ؟ ... أأقول انني أحبيتك ؟ ولكن ما كان لذلك معنى في

السابق ، وسوف لا يكون له معنى الآن . الحب أمر شكلي ، انني
سأضمحل عن قريب ، وأتلاشى . الأحسن أن أقول لك بأنك
جميلة ، ما أجملك وأنت منتصبه أمامي هكذا . . . » فلم تستطع أن تمنع
ارتداشة سرت في جسمها . « لا تقلقي . . . اجلسي هناك . . . لا تقتربي
مني ، فإن مرضي معد . »

فاخترقت الغرفة بسرعة ، وجلست على الأريكة ، قريباً من الديوان
الذي كان مسجى عليه .

فهمهم : « ما أطيبك . . . قريبة مني كل القرب ، وما أسماك . . .
يافعة ، غضة طرية نقية . . . في هذه الغرفة الحبيثة . . . هيا وداعاً ،
عيشي طويلاً ، فالحياة ما تزال أحسن الأشياء ، تمتعي بالحياة قبل فوات
الأوان . انظري ، انظري هل هناك أقبح من دودة نصف مسحوقة ،
تتولى وتتحوى . لقد قلت لنفسي ، سأعمل ليل نهار ، أموت أنا ؟ ان
لي رسالة لا بد أن أؤديها ، انني عملاق ، ولكن لم يعد للعمالق في هذه
الساعة إلا أن يموت باحتشام ولياقة ، ولو أن الناس كلهم سيسخرون منه ،
ليس كذلك ؟ . . . لا بأس ولن تخور عزيمتي . » وسكت ماداً يده
منحنياً متحرياً عن كأس الماء . فسقته أنا سيرجيفنا ، ولم تكن قد
نزعرت قفازيها ، وكانت تخشى أن تتنفس ، وأردف : « سوف تنسينني ،
فالأموات ليسوا في حساب الأحياء . سيقول لك أبي : (أي رجل
فقدت روسيا بفقده !) هذا كلام باطل ، ولكن لا تتمزعي من الشيخ
أوهامه . دعيه يقول ما يريد ، وكوني رؤوفة بأمي أيضاً . لن تجدي

أناساً أطيّب منهما ، في دنياك العظيمة ، ولو فتشت في وضح النهار ،
ومصباحك بيدك . هل كانت روسيا ، حقيقة بحاجة اليّ ... يبدو أنه
لا . ان الناس يحتاجون الى نوع آخر من الرجال ، يحتاج الناس الى
أسكافي ، يحتاجون الى خياط ، يحتاجون الى قصاب ... لأنه يبيع
اللحم ... قصاب ... انتظري ، انني أهدي ... هناك غابة ... »

رفع بزاروف يده الى جبينه ، ومالت أنا سيرجيفنا عليه قائلة :
« يا ايفاجني فاسيليتش ، انني قرية منك ... »

فسحب يده واستوى فجأة ، وقال في قوة مفاجئة : « وداعاً . »
والتمت عيناه للمرة الأخيرة وهتف : « وداعاً ... اصغي ... لم أعانقك
في ذلك اليوم ... اطفئ المصباح ... تماماً ... »

ووضعت شفتيها على جبين المحتضر : « فهمس » قضي الأمر ، وها
هي الظلمات ... » وسقط رأسه على الوسادة .

فخرجت أنا سيرجيفنا بهدوء ، فسألها فاسيلي ايفانوفيتش بصوت
خفيض : « خيراً ؟ »

فأجابته متحسرة : « لقد هجع . »

أجل لن يستيقظ بزاروف بعد الآن ، لقد فقد وعيه عند المساء تماماً ،
ومات في غداة اليوم . وقام الأب الكسيس بالمراسيم الأخيرة ، وعندما
دهن صدره بالزيت فتح بزاروف احدى عينيه ، فتصور القوم أنه عندما
رأى القسيس بلباسه الكهنوتي ، ومبخرته الداخنة ، وشموعه المتقدة ،
أمام الايقونات ، سرى في وجهه الأصفر الشاحب ما يشبه الرعدة

والفزع . وأخيراً حينما لفظ النفس الأخير ، وضع البيت بالبكاء
والنحيب ، انفجر فاسيلي ايفانوفيتش على حين فجأة ، وصرخ بصوت
أجش ، ووجهه ملتهب ، وهو يتلوى من الألم ، وقبضته مرفوعة نحو
السما : « لقد قلت له بأنني سأثور على السماء ، وها أنذا أنور ، وأنور... »
ولكن أرينا فلاسيفنا ترامت على رقبتة تبلاها بالدموع . فركع
الاثنان معاً جنباً الى جنب ، وقد روت انفيسوشكا في غرفة الخدم ،
فيما بعد : « هنالك ركعا معاً جنباً الى جنب وقد تدلى رأسهما على صدريهما
كرأسي حملين وقت الظهيرة . »

.....

ولكن الظهيرة تمضي بمرحها ، ويأتي المساء ، ثم يعقبه الليل بسكونه
ودعته ، فينام الناصبون والمتعبون كافة ، نوماً هنيئاً ، وادعاً .

الفصل الثامن والعشرون

وانقضت ستة أشهر ، وكان الشتاء الأبيض قد عاد ، مصحوباً بسكونه الذي لا يسر له غور ، سكون الأيام الجليدية الناصعة ، العميق ، بثلجه الكثيف الذي ينهار تحت الأقدام ، وجدده الوردى على الأشجار ، وسمائه اللازوردية الشاحبة ، والدخان الذي يتلاشى فلولاً فوق المداخل ، ونفحات البخار الخارجة من الأبواب لحظة تفتح ، وأوجه العابرين الفضة الحمراء وقد قرصها البرد ، والحيل العجلى تحب وقد أخذها سعار العدو والركض . وكان الألوان كانوا الثماني ، وكان النهار قد انتهى والشمس قد غابت ، وكان قرص برد المساء قد بلغ منتهاه في ذلك الهواء الجامد الكثيف ، وكان شفق المغيب الدامي قد انطفأ في السماء .

كانت النوافذ في مارينو مضاعة ، وكان بروكوفيتش يرتدي رداء رسمياً أسود وقفازين أبيضين ، وهو يعد مائدة لسبعة أنفار ، وقد بدت عليه علائم الجذ و امارات الوقار أكثر من أي وقت مضى . وكان قد جرى قبل اسبوع احتفال بزيجتين في الكنيسة الصغيرة — وقد حدث ذلك بدون ضجيج ، وبلا شهود على وجه التقريب — تزوج أركادي

كاتيا ، وبنى نيقولاي بتروفيتش بينجكا . أما الآن فقد أولم نيقولاي
بتروفيتش ولية وداعية لأخيه الذي أزمع السفر الى موسكو في بعض
أعماله . وأما أنا سيرجيفنا التي أغدقت على الزوجين كرمها ، فقد سافرت
هي أيضاً الى العاصمة القديمة فور انتهاء الزواج . وفي الساعة الثامنة تماماً ،
كان جميع المدعوين محيطين بالمائدة ، ومن ضمنهم ميتيا الصغير ومريته ،
التي كانت قد عقصت شعر رأسها ، فلاح كالتاج وعليه غطاء حريري
مرصع بالذهب ، وتوسط بول بتروفيتش بين كاتيا وبينجكا ، وأخذ
الزوجان مجلسهما بجانب زوجتيهما . لقد انتاب هؤلاء جميعاً تغير خلال
هذه الأشهر القليلة ، فكأنهم قد انتعشوا ، وازدادوا نضارة ونضوجاً .
وكان بول بتروفيتش الوحيد الذي نخره الهزال ، ولكن ذلك زاد
ملاحظته ميزة على ميزاتها ، وجعل هيئته أكثر سطوة وعظمة . أما بينجكا
فقد أصبحت امرأة أخرى ، فكانت تحافظ على رصانة محترمة ، وهي في
ردائها الحريري الجديد ، وغطاء رأسها المخملي الواسع ، وسلسلتها الذهبية
حول عنقها . لقد كانت تسبغ وقاراً على نفسها ، وعلى كل من يحيط بها —
وكأنها حينما تفتت ضاحكة تقول معذرة : « معذرة ، العفو ، ليس الذنب
ذنبى » وما كانت وحدها التي تضحك ، فقد كان الجميع يضحكون ،
وكأنهم يطلبون العفو أيضاً . انهم يشعرون بشيء من الاضطراب
والحزن ، ولكنهم في الحقيقة سعداء . كان كل واحد منهم مغمماً بشعور
لطيف ، فكأنهم قد عقدوا خناصرهم على أن يمثلوا دوراً هزلياً ساذجاً .
وكانت كاتيا أكثرهم انشراقاً وصفاءً . فكانت ترمق ما حولها بهدوء

مبعثه الثقة ، وكان من السهولة بمكان أن يرى الملاحظ أن نيتقولاى
بتروفيتش كان يعبدها . وقبل الانتهاء من الطعام بقليل ، رفع كأسه ،
وتوجه الى بول بتروفيتش ، وأنشأ يقول : « انك سوف تفارقنا ...
تفارقنا أيها الأخ العزيز ، ولكن لمدة قصيرة ، ولا يسعني بالرغم من
ذلك ، إلا أن أقول لك بأني ... بأننا ... كم أنا ... كم نحن ... ان من
أشد مصائبنا أن لا نحسن الخطابة . هيا أنت يا أركادي ، هيا تكلم . »
« أوه ، كلا يا أبي ، لست مستعداً . »

« وأنا ؟ هل أنا مستعد ؟ » والتفت الى أخيه قائلاً : « اذن سوف
أقول لك بكل بساطة ، اسمح لي بمعاذتك ، وبأن أقدم لك تمنياتي
الطيبة . وأرجوك بصورة خاصة ، أن تعود بأسرع ما يمكن . »
عاق بول بتروفيتش جميع الحاضرين دون أن ينسى ميتيا ، بطبيعة
الحال ، وقبل علاوة على ذلك يدنينجكا ، التي ما كانت تعرف حتى ذلك
الحين كيف تمد يدها ، مداً جيداً ، للتقبيل ، وقال وهو يكرع كأسه
ويزفر زفرة عظيمة :

« أي أصدقائي ، أتمنى لكم السعادة ، ووداعاً » ولفظ كلمة وداعاً
بالانكليزية ، فمرت هذه الكلمة الانكليزية دون أن يهتم بها أحد ،
ولكنهم كانوا قد تأثروا بها جميعاً .

وهمت كاتيا في اذن أركادي ، وقرعت كأسها بكأسه قائلة : « نخب
ذكرى بزاروف » فشد على يدها ، ولكنه لم يستطع أن يشرب النخب .
ويلوح لي أن القصة قد شارفت نهايتها . ولكن ربما يود بعض القراء

أن يعرف ما آل اليه أمر أبطال هذه القصة . وها أنا مستعدون لاشباع
رغبة هؤلاء .

تزوجت أنا سرجيفنا حديثاً في موسكو ، زواجاً لا عن غرام ، بل
عن تعقل وروية . تزوجت رجلاً من زعماء روسيا المقبلين ، هو مشرع
ذكي ، ذو عقلية عملية قوية ، و ارادة خارقة ، وبلاغة ممتازة ، ما يزال
في شرخ الشباب ، ولكنه بارد برودة الثلج . وها يعيشان في وفاق
تام ، وربما سيعرفان السعادة في المستقبل ، ومن يدري ؟ بل ربما
سيذوقان الحب نفسه .

أما الأميرة فقد قضت نحبها ، وقد عفى عليها النسيان من يوم وفاتها .
أما آل كيرسانوف الأب والابن ، فهما يقيمان في مارينو ، وقد أخذت
أعمالهما تسير على ما يرام . فأركادي يتدفق حماسة وحيوية ، وتدر عليه
المزرعة ريعاً حسناً ، وأما نيقولاى بتروفيتش فقد عين وسيطاً من أولئك
الذين انتخبوا لتنفيذ تحرير الفلاحين ، فتراه في كل أنحاء المقاطعة يخطب خطباً
طويلة (اذ من رأيه أنه يجب البرهنة للفلاح ، وبعبارة أخرى يجب أن
نكرر عليه ونعيد الأقوال ذاتها ، حتى نجعله مجنوناً بها لا يتصور غيرها)
ولكن اذا أردنا الحقيقة فانه لم يرض أحداً ، لا السادة المثقفين النبلاء
الذين يتكلمون أحياناً بنشاط وحماسة ، وأحياناً بكآبة ، عن كلمة
التحرير ، التي يلفظونها كما لو كانت كلمة فرنسية ، ولا السادة غير المثقفين
الذين لا يتحرجون عن لعن هذه الكلمة المسماة (تحريراً) وهؤلاء
و أولئك يرونه رجلاً رخواً مائعاً . وولد لكاترين سرجيفنا ولد واحد

أمته كوليها ، وها هو ميتيا يحب جذلان فرحاً من الصباح الى المساء ،
يملاً البيت بثرثرة المرحه . أما نينجكا ، أو كما صارت تسمى ، فيودوسيا
فيقولاي فنانا فكانت لا تحب أحداً بعد زوجها ، ابناً ، بقدر ما تحب كتبها .
وعندما تجلس هذه الى البيانو ، فانها مستعدة لأن تمسك لتسمعها نهراً
كاملاً ، وهي جالسة الى جانبها . ولنقل كلمة عن بيتر ، انه ما برح ثقيل
الظل والفهم ، بل وزاد في ذلك ، وأما أنا نيته وتباهيه بنفسه ، فقد طغيا
عليه أكثر من أي وقت مضى ، وما زال يرطن بالألفاظ الفرنسية ويفلظ
فيها . وقد تزوج هو أيضاً ، تزوج بآنبة بأع مخضرات من أهل المدينة ،
وقد أتته بيانة عظيمة ، ورفضت هذه العروس خاطبين آخرين لأنهما
لا يملكان ساعة يد ، على حين ان بيتر ، لا يملك هذه الساعة فحسب ،
بل لديه أحذية نظيفة ملمعة ايضاً .

وفي درسدن ، على سطح بروهل ، تصادف بين الثانية والرابعة —
في أوقات النزهة — رجلاً في العقد الخامس من عمره ، وقد ابيض
شارباه ، يظهر وكأنه يتألم من النقرس ، وما برح جميلاً ، وهو في ثياب
أنيقة ، وعليه ذلك الطابع الذي يبدو على عليه القوم وسراهم . انه
بول بتروفيتش . لقد غادر موسكو ، وذهب للاستشفاء في الخارج ، وأقام
في درسدن ، حيث يخالط الانكليز بصورة خاصة ، والروس العابرين .
أما مع الانكليز فكانت أساليبه بسيطة ، تكاد تكون متواضعة ،
ولكنها تنصف بالتعاضم والوقار ، فيعده الانكليز شخصاً مضجراً ،
ولكنهم يقدررون فيه الرجل المهذب الكامل . وهو يلوح أكثر انطلاقاً

مع الروس ، فانه يطلق العنان لنفسه على سجيتها ، فيسخر ويتهم ، وكذلك يفعل الآخرون فيسخرون ويتهمون ، ولكنها سخرية مقبولة محببة على الدوام ، بلهجة حسنة يشوبها عدم الاكتراث . وهو يبشر بالنظرية السلافية ، وهذا بنظر سرة المجتمع ، يعتبر شيئاً ممتازاً . ولا يقرأ شيئاً بالروسية ، ولكنه يحفظ على مكتبه بمنفضة فضية ، على شكل حذاء من أحذية الفلاحين الروس الوطنية . والسواح مغرمون بملاحقته . وها هو ماتفي ايليتش كولياجن ، وهو الآن في صفوف المعارضة ، يخف لزيارته ، وهو أشد وقاراً من أي وقت سلف ، وهو في طريقه الى مياه بوهيميا . وان سكان درسدن ليظهرون لبول كثير أمن الاحترام ، بالرغم من أنه قليل الاختلاط بهم ، فهم يعلمون أنه لا يستطيع أحد أن يحصل ، بسهولة وسرعة ، على تلك الأشياء الممتازة ، كبطاقات الشرف في الحفلات المهمة ، سوى (هر بارون فون كيرسانوف) وهو يفعل الخير ، اذا وجد اليه سبيلاً ، وانه ما يزال ذا أثر في المجتمع ، وما كان أسداً من اسوده ، يوماً ما عبثاً . ولكن الحياة قد ثقلت عليه اكثر مما كان يتصور . وحسبنا أن نراه في الكنيسة الروسية ، ينقحي ناحية ، فينفرد بنفسه ، وقد استند الى الجدار ، موزع اللب ، طائر الفؤاد ، مطبق الشفتين ، دون حراك ، ولكنه قد يعود الى نفسه فجأة ، فيرسم علامة الصليب التي لا تسكاد تبين . أما مدام كوكشين ، فتعيش هي أيضاً في البلاد الأجنبية ، وهي الآن في هيدلبرج ، لا تدرس العلوم الطبيعية ، بل الهندسة ، وتزعم أنها قد اكتشفت قوانين جديدة . وهي مواظبة على الاختلاط بالطلاب ،

وبالكيميائيين الروس الذين تعجب بهم هيدلبرج ، على الأخص ، باوئك
الذين أذهلوا الأساتذة الألمان باصابة أحكامهم ودقتها ، ثم أدهشوهم بعد
ذلك بيطالتهم المطلقة ، وكسلهم الذي لا علاج له . وأما سيتنيكوف ،
فكان يتجول مع بعض هؤلاء الكيميائيين ، من النوع الذي ليس له
قابلية تمييز الأكسجين من الآزوت ، ولكنهم ينتقدون كل شيء ، وهم
أشد ما يكونون رضاء عن أنفسهم ، وقد رافق العظيم اليسيفيتش أيضاً ،
كل ذلك في سبيل بلوغ العظمة التي لم يأس من الوصول إليها يوماً . وكان
ما يفتأ يردد بأنه سينجز ما بدأ به زاروف . ويقال أن أحدهم ضربه
في الأيام الأخيرة ، ولكنه أدرك ثأره وانتقم ، وذلك بأن كتب مقالاً
غامضاً في صحيفة قليلة الأهمية ، يدعي به أن من ضربه جيان خسيس ،
ويدعي كذلك بأنه قد سخر منه . وما زال ينجل من ذكر أيه ، ونوع
عمله . أما زوجته فتعبره أبله مغفلاً ... ولكنها تسميه أدياً !

وفي بقعة منقطعة من روسيا مقبرة صغيرة قروية ، عليها سماء الأسى
والتعاسة ، شأنها شأن مقابرنا جميعاً ، على وجه التقريب ، قد امتلأت
الحنادق حوها بالأعشاب البالغة النمو ، حتى حجبتها ، وتفتت صلبانها
الحشبية الرمادية ، المائلة حتى الأرض ، تحت تلك السقوف المنحرفة التي
نصلت ألوانها ، أما البلاطات المنصوبة على الأرض فقد تحولت من محلاتها
كأنها قد دفعت دفعا من الوراء ، وثمة شجرتان ، أو ثلاث ، لا تمنح
إلا ظلاً غاية في الضآلة ، وترى الخراف ترعى بحرية بين القبور ...
ولكن بين هذه الرموس رمس لم تمسه يد انسان ، ولم تطأه قدم حيوان ،





حاشا العصفير التي تحط عليه ، وتغرد عند الفجر ، يحميه سياج من
الحديد ، وتضله صفصافتان قائمتان على جانبيه . هنا يرقد ايفاجني
بزاروف ، يزوره أحياناً عجوزان محطمان ، هما زوج وزوجته ، يأتیان
من القرية المجاورة ، وكل منهما يتوكأ على الآخر ، يمشیان بخطى متساوية ،
حتى يقتربا من السياج فيركعان ، ويهرقان الدموع المريرة ، ويحدقان
بأناة وصبر في البلاطة الخرساء التي تغطي ولدهما ، ويتبادلان بعض
الكلمات الكسيرة ، ثم يمسحان على البلاطة ، أو يقومان غصناً يغطيها ،
ثم يصلیان على روحه ويدعوان . وكم يصعب عليهما مفارقة هذا المكان
الذي يجدان ، حين يكونان بقربه ، أنهما يكونان على أقرب ما يكون
من ولدهما ، وأشد صلة بذكراه .

فهل في الامكان أن تكون دعواتهما وصلاتهما ودموعهما عبثاً بلا
طائل ؟ وهل في الامكان أن يكون ذلك الحب ، الحب النقي الخالص من
الأنانية ، غير قادر على شيء ؟ كلا والف كلا . ومهما كان القلب الذي
يهجع في اللحد ، قاسياً تائراً خاطئاً ، في الحياة ، فان الأزهار الباسمة النابتة
فوق ضريحه ، لتتطلع إلينا بعيون بريئة لا أئيمة . ان هذه الأزهار
لا تحدثنا عن الشر ، بل عن الهدوء الأبدي ، وعن الطبيعة العابثة وهي
في هدوئها وطمأنينتها بوصفها صورة للوفاق الدائم ، والحياة
الأبدية الأخرى .

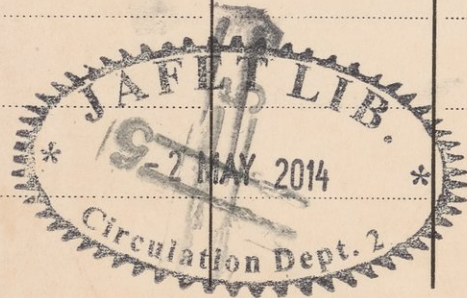
DATE DUE

JAFET LIB.

- 9 JAN 1992

JAFET LIB.

1-DEC-1993



891.73:T93abAa:c.1

فاضل، اكرم

الآباء والبنون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032650

